مَعَالِمُ فِي طَرِيقِ طَلَبِ العِلْمِ

الطبعة الثالثة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م
طبعة مزيدة ومنقحة

الصف والإخراج دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

معالم في طريق طلب العلم

تقديم

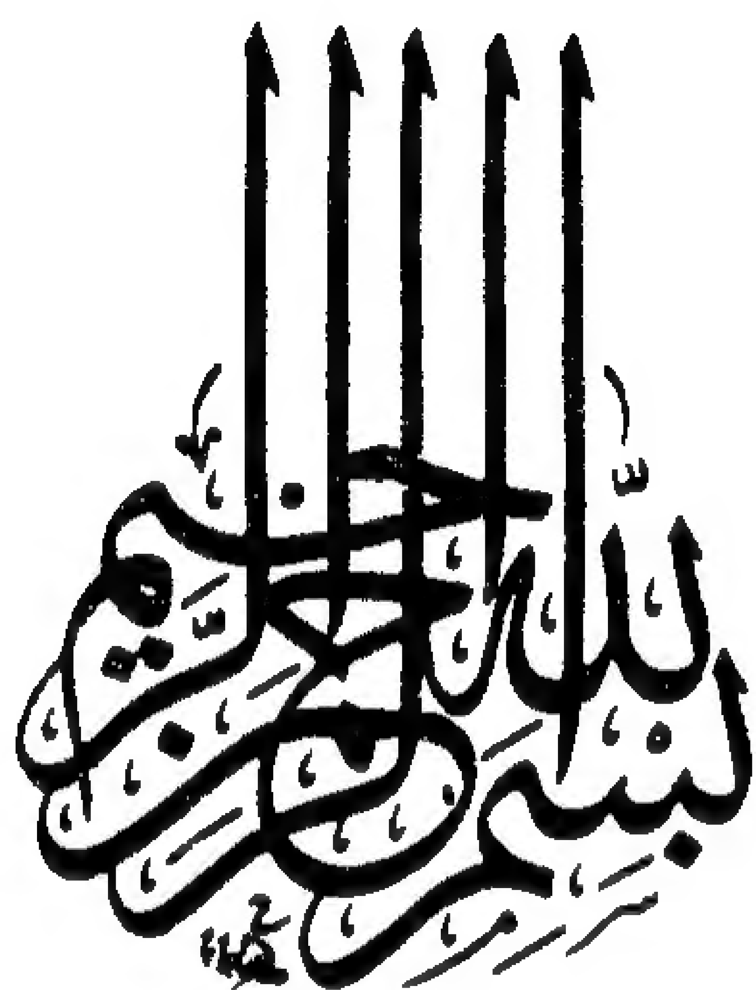
فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

تأليف

عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السدحان

دار العاصمة

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

تَقدِيمُ

فَضِيلَةِ ٱلشَّيخِ عَبدِ ٱللهِ بنِ عَبدِ ٱلرَّحمٰنِ الجِبرِينِ

صورة التقديم الخطيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والذي تفضل على من يشاء بالعلم وتكرم
أحمده سبحانه حمداً يزيد في النعم ويدفع النقم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك
المعظم وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المكرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم
أما بعد فقد قرأت هذه الرسالة القيمة التي جمعها الشيخ العالم الفاضل عبد العزيز
بن محمد بن عبد الله السدحان فوجدتها في غاية المناسبة فقد أودعها المؤلف
ما لذ وطاب من آداب طالب العلم في التلقي والتطبيق والتأدب والأخلاق وما
يستعين به على التحصيل ويتحلى به في حياته والسبل والوسائل التي تمكنه
من نيل المطلوب وما يتجنبه من الأخلاق الدنيئة والسمات الرذيلة التي
تدنس طالب العلم وتشين سمعته وغير ذلك مما احتوت عليه هذه الرسالة من
الوسائل والمعوقات ونحو ذلك مما يدل على بذل الجهد وإفراغ الوسع في
جمع هذه الفوائد والقصص والوقائع والأمثلة التي تحلى بها علماء سلف
الأمة وجهابذة العلماء وذلك لأنهم حملة العلم الشريف ونقلة ميراث النبي
الكريم صلى الله عليه وسلم فنوصي بقراءة هذه الرسالة وما أوصى به من الرسائل
والكتب التي نقل عنها أو دل عليها بما له صلة بموضوع من هذه المواضيع
المفيدة فجزاه الله أحسن الجزاء وأكثر في أهل السنة من الشباب الناشئين
الذين يحرصون على نفع إخوانهم وزملائهم ودلالتهم على ما يفيدهم في
حياتهم ليكونوا نبراساً لمن جاء بعدهم وقدوة صالحة لمن قصد الخير وأحبه
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ٧/٤/١٤٢١هـ

كتبه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم الجبرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والذي تفضل على مَن شاء بالعلم وتكرم.

الحمد لله حمداً يزيد في النعم ويدفع النقم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المعظم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المكرم، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم.

أما بعد: فقد قرأت هذه الرسالة القيمة، التي جمعها الشيخ العالم الفاضل عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان، فوجدتها في غاية المناسبة فقد أودعها المؤلف ما لذَّ وطاب من آداب طالب العلم في التلقِّي والتطبيق، والتأدب والأخلاق، وما يستعين به على التحصيل ويتحلى به في حياته، والسبل والوسائل التي تمكِّنه من نيل المطلوب، وما يتجنبه من الأخلاق الدنيئة والسمات الرذيلة، التي تدنِّس طالب العلم وتسيءُ سمعتَه، وغير ذلك مما احتوت عليه هذه الرسالة، من الوسائل والمعوِّقات ونحو ذلك، مما يدلُّ على بذل الجهد وإفراغ الوسع، في جمع هذه الفوائد والقصص والوقائع والأمثلة، التي تحلَّى بها علماء سلف الأُمة وجهابذة العلماء؛ وذلك لأنهم حملة العلم الشريف ونقلة ميراث النبي الكريم ﷺ، فنوصي بقراءة هذه الرسالة وما أوصى به من الرسائل والكتب التي نقل عنها أو دلَّ عليها، مما له صلة بموضوع من هذه المواضيع المفيدة.

فجزاه الله أحسن الجزاء وأكثر من أهل السنة من الشباب النابهين الذين يحرصون على نفع إخوانهم وزملائهم، ودلالتهم على ما يفيدهم في حياتهم؛ ليكونوا نِبراساً لمن جاء بعدهم، وقدوة صالحة لمن قصد الخير وأحبه. وصلى الله على محمد وآله وصحبه سلم.

٧/ ٤/ ١٤١٨هـ

كتبه: عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن إبراهيم الجبرين

مُقدّمةُ الطّبعةِ الثالثة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أما بعد: فهذه هي الطبعة الثالثة من كتاب «معالم في طريق طلب العلم» تداركت فيها بعض الأخطاء الإملائية والمطبعية، وحصل فيه بعض التعديل والترتيب. الله أسأل أن ينفع به مؤلفه والمطلع عليه.

وأشكر الله تعالى الذي أعان على خروج الكتاب، ثم أشكر كل من تفضل بإبداء ملحوظة، وعلى رأس أولئك شيخنا العلامة عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، أثابه الله تعالى خيراً[1].

عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان

الرياض ١٠/ ١/ ١٤٢٠هـ

---

(١) ومن باب رد المعروف إلى أهله:
فلقد قام الإخوة: فيصل القحيز، ومحمد الشهراني، وسلطان المطيري، بنسخ الأشرطة كاملة ثم مطابقة المطبوع على المخطوط. وممن له جهد مشكور كذلك: الأخوان: خالد بن محمد بن عبداللطيف، ويوسف بن عبدالقوي، من دار العاصمة، جزى الله الجميع خيراً.

مُقَدّمَةُ الطّبعَةِ الثّانِيَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فإن من نعمة الله تعالى على شباب الإسلام: أن يتوجّهوا إلى حلقات العلم، ويزاحموا العلماء بالركب؛ لينهلوا من معين علمهم ويستنيروا بآرائهم وتوجيهاتهم، ومتى ما تحصن شباب الإسلام بالعلم، فإنهم سيقدرون على مواجهة الصعاب، وتحمّل المشاق.

فبالعلم يعبد المسلم ربه على بصيرة، وبالعلم تتهذب الأخلاق، وبالعلم تزول الأحقاد، وبالعلم تتآلف القلوب. فصاحب العلم قدوة في صمته، وقدوة في كلامه، وقدوة في لباسه، وقدوة في جميع شؤونه.

وبالجملة: فهو كالغيث أينما حلّ نفع: في منزله، في مسجده، في سوقه، في مجتمعه.

وعلى هذا: فينبغي لكل واحد منا أن يسارع للُّحوق بركب طلبة العلم، ويستفيد من مجالستهم والتقاط الفوائد من أحاديثهم.

ولما كان هذا المقصد الشريف تهوي إليه نفوس كثير من الشباب الأخيار، كان كثير منهم يتساءل عن الطريق الأمثل لطلب العلم:

فمنهم من يقول: كيف أحفظ القرآن؟

ومنهم من يقول: كيف أحفظ المتون؟

ومنهم من يقول: بأي متن أبدأ؟ وأي درس أحضر؟

وهلم جرّاً من هذه الأسئلة الكثيرة التي تدل على حرص أصحابها وقوة عزيمتهم.

وقد أحسن الظن بي غير واحد من أُولئك الشباب، فكانت أسئلتهم تتكرر كثيراً: تارة مشافهة، وتارة مهاتفة، وتارة مكاتبة، فجمعت لنفسي ولهم آثاراً كثيرة عن آداب أَهل العلم، وما يتبع ذلك من طريق طلبه، وثمرة تحصيله، وقمت بترتيب هذه المواضيع على حسب جهدي، ثم أَلقيتها في الدورة العلمية الثانية المقامة في مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وذلك في عام ١٤١٥هـ بعنوان: «معالم في طريق طلب العلم» ثم جمعت ذلك في هذا الكتاب الذي بين يديك.

وهذا جهد المقل، والله أَسأل أَن ينفع به من كتبه وقرأه ونشره، إِنه تعالى سميع مجيب. وقد سميته **«معالم في طريق طلب العلم»**.

ومن باب رد المعروف إِلى أَهله، فلا أَنسى ـ بعد شكر الله تعالى ـ أَن أَشكر أُولئك الأَحبة الذين قاموا بنسخ الأَشرطة، ثم مقابلة المطبوع بالمخطوط، ثم عمل الفهارس، إِلى غير ذلك مما لم أَذكره، جزى الله الجميع خيراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عبدالعزيز بن محمد السدحان

الرياض ١٤١٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الإنسان لينشرح صدره، ويطمئن قلبه، إذا رأى طلاب العلم في حلقات العلم، فهم قد تركوا لذة النوم، وهجروا الفراش، في وقت يهجع الناس فيه، وتركوا سائر الملذات، وآثروا أمراً يرجون به النجاة في الدنيا والبرزخ والآخرة.

وقد مدح الله حاملي العلم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾(١).

وخَصَّ العلماء بالخشية؛ لأنَّهم أعرف الناس بالله، وكلما كان العبد بربه أعرف، كان له أرجى ومنه أخوف.

فالعلم سبب لمرضاة الله تعالى، وسبب للحياة الطيبة في الدنيا والحياة البرزخية وفي الحياة الأُخرى.

والعلم سبب لتقويم السلوك وتهذيب النفوس، وهو سبب ـ لمن أخلص النية في طلبه وتطبيقه ـ للنجاة من الشرور، على اختلاف أنواعها وأجناسها.

وعندما يجتمع الأحبة لينهلوا من بعض أحبتهم، يَتَعلَّمون ويُعلِّمون،

---

(١) فاطر: ٢٨.

فإنَّ هذا يُعَدُّ قربة من أَعظم القربات، وكان سلفنا يشدّون رحال مطيهم طلباً للعلم، وكثير منا قد قرأ أَو سمع ما قام به المحدثون من رحلاتهم الطويلة، التي لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

فهذا شعبة رحمه الله يرحل شهراً كاملاً في طلب حديث سمعه من طريق لم يمر عليه[١].

وذاك جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ـ صحابي أَفضل منه ـ يقول:

بلغني عن رجل من أَصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم أَسمعه منه، قال: فابتعت بعيراً، فشددت عليه رحلي، فسرتُ إليه شهراً حتى أَتيت الشام، فإذا هو عبدالله بن أُنيس الأنصاري، قال: فأَرسلت إليه: أَن جابراً على الباب، قال: فرجعَ إليَّ الرسول فقال: جابرُ بن عبدالله؟ فقلت: نعم، قال: فرجع الرسول إليه فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقته، قال: قلت: حديث بلغني أنَّك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أَسمعه فخشيت أَن أموت أَو تموت قبل أَن أسمعه[٢]...

وهذا أبو زرعة ومحمد بن نصر وغيرهم يقطعون الفيافي على الأَقدام، كل هذا في سبيل تحصيل العلم، فهم يقطعون المسافات الشاسعة التي تتقطع دونها رقاب المطي، مع ما يصاحب ذلك من التعب وعناء الطريق، ومع ذلك فإنَّ لذة العلم التي وضعها الله عز وجل في قلوبهم أَنستهم عناء الطريق وبعد الشُّقَّة.

وقال ابن القيم رحمه الله: (كُلُّ ما كان في القرآن من مدح للعبد فهو من

---

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص١٤٨، ١٥٣.
(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص١١٠.

ثمرة العلم، وكل ما كان فيه من ذم للعبد فهو من ثمرة الجهل).

إنَّ عنوان هذا الكتاب «**معالم في طريق طلب العلم**»، وهذا العنوان واسع يدخل تحت مظلته أشياء كثيرة، وكلها تصب في قالَب طالب العلم: ما الذي ينفعه؟ وما الذي يكدِّر سيره؟ وما الذي يعيقه؟ وما الذي يشحذ همته؟ وكيف الطريق إلى الطلب؟ وما هي الآفات التي تعكر طلب العلم وتكدر صفوه ونقاءه؟

الكلام يطول عن العلم وفضله، والقرآن الكريم فيه آيات نصت على فضل العلم وفضل أهله، وكذا في السنَّة المطهرة، على صاحبها أَفضل الصلاة وأتم التسليم.

فقد مر بك قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1].

والعلم ـ كما قال الحسن ـ هو الخشية، ومن كان بالله أعلم كان منه أخوف، وقد صنف السلف مصنفات كثيرة مستقلة عن فضل العلم، وعن أخلاق أهل العلم، وعن منزلة العلماء، لذا لا أُطيل الكلام على هذا الأمر، ويكفي أَن أذكر لك قول النبي ﷺ: «**مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً؛ سلك الله به طريقاً من طرق الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أَجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأَرض، والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأَنبياء، وإنَّ الأَنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنَّما ورَّثوا العلم فمن أخذه أَخذ بحظٍّ وافر**»[2].

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) رواه الإمام أَحمد وأَصحاب السنن، انظر: صحيح الجامع ٥/ ٣٠٢.

وما أجمل ما قال ابن القيم رحمه الله : (ولو لم يكن في العلم إلاَّ القرب من رب العالمين ، والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ الأعلىٰ ؛ لكفى به شرفاً وفضلاً ، فكيف وعِزّ الدنيا والآخرة منوط به ، مشروط بحصوله؟)[١] .

أيها القارىء الكريم، هناك أسئلة تترى يسمعها كل واحدٍ منا من بعض الأحبة :

فمنهم من يقول : كيف الطريق إلى حفظ المتون؟

ويقول آخر : كيف الطريق إلى حفظ القرآن الكريم؟

ويقول الآخر: بأي متن أبدأ؟ وعلى أي شيخ أقرأ؟ وماذا أحضر من الدروس؟

والآخر يقول : إنني أحضر وأُكثِّف الحضور لكني أخرج بلا نتيجة!

هذه الأسئلة تختلف لفظاً لكنها تتفق معنى ، وكلها تدل ـ إن شاء الله ـ على حرص أصحابها ، وعلى مقصد طيب في تحصيل هذا العلم ، وهذا الأمر ليس جديداً؛ لأنَّ رعيلنا الأول قد كتبوا فيه وأفاضوا ، ولو سرد الواحد منّا أسماء الرسائل والكتب التي صنفت في هذا لطال المقام ، ويكفي أن نعرف أنَّ هناك عشرات الكتب (ما بين مختصر ومبسوط) في الكلام عن هذه المسائل .

وقبل الكلام عن هذا الأمر ، وعن طريقة تحصيل العلم ـ وهي عسيرة ، لكنها يسيرة على من يسرها الله عليه ـ سأذكر ـ إن شاء الله ـ في الصفحات التالية عدة مباحث .

وأتكلم أولاً عن المعوِّقات التي تعيق طالب العلم عن طلب العلم ، والاستمرار في تحصيله والسعي فيه ، وهذه المعوقات كثيرة ، لكن يمكن أن تجمل في عشرة معوقات :

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٨ .

المعوقات عن طلب العلم

المعوقات عن طلب العلم

المعوق الأول: (فساد النية):

والنية هي ركن العمل وأساسه، وإذا تخلَّلها خلل أو دخَن؛ فإنَّ العمل يعتريه من الخلل والدخَن بقدر ما يعتري النيّة.

وقد قال النبي ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكل امرىء ما نوى**»(١).

فالنية ركن كما سبق:

والبيتُ لا يُبتنى إلاَّ بأعمدةٍ ولا عماد إذا لم تُبنَ أركانُ

فإذا كانت النية مصحوبة بشيء من اللوث على اختلاف أنواعه من: حب تصدُّر أو حب شهوة أو تسنُّم مجالس؛ فإنَّ هذا كفيل بأن يكون حاجزاً منيعاً في طريق صاحب تلك النية.

والنية يعتريها ما يعتريها، لكن ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٢).

وسفيان الثوري ـ رحمه الله ـ على ورعه وجلالة قدره ـ يقول: (ما عالجت شيئاً أشدَّ عليَّ من نيتي)(٣).

وإذا كان هذا الإمام الثوري فما بالك بنا نحن؟ فلذلك ينبغي أن يكون الواحد منا متجرِّداً في طلبه للعلم، لايريد بذلك إلاَّ وجه الله عز وجل، فإنْ

---

(١) متفق عليه.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٦٨.

صاحب النية ما صاحبها من تلبيس إبليس، فإنَّ هذا ليس بغريب، إنَّما الغريب والعجيب أَن يستمرىء صاحبها بقاء تلك اللوثات في نيته، فلزاماً عليه: أَن يجاهدها، وأَن يحارب ذلك اللوث والدَّخنَ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يفتُرَنَّ أَو ييأسنَّ، ولْيقرأ ما ذكر أَهل العلم عن أَنفسهم: فهذا الدارقطني أَبو الحسن علي بن عمر، أَمير المؤمنين في الحديث، يقول رحمه الله: (طلبنا العلم لغير الله فأَبى أَن يكون إلاَّ لله)(١).

يفسر بعضهم هذه المقالة: بأَنَّ الطالب قد يكون في نفسه حظ من حبِّ تَصدُّر، فإذا أَوغل في العلم، وقرأ النصوص والسير، وتمعن فيها، وكان ممن أَراد الله به خيراً، رده إلى رشده، ولم يزده ذلك التمعُّن إلاَّ رجوعاً إلى جادَّة الصواب والخير، أما إذا كان ممن غلَّب هواه واتبع شهوته، فلا يلوم إلاَّ نفسه.

المعوق الثاني: (حب الشهرة وحب التصدُّر):

وهو داخل تحت النية، ولكن يفرد لأَهميته، والشهرة والتصدر داء وبيل لا يسلم منه إلا من عصمه الله، كما قال الشاطبي رحمه الله: (آخر الأَشياء نزولاً من قلوب الصالحين: حب السلطة والتصدر)(٢).

فإذا كانت نية الطالب: أَن يشتهر اسمه، وأَن يرتفع ذِكرُه، وأَن يكون مبجَّلاً كلما حلّ أَو رحل، لا همَّ له إلاَّ ذلك، فقد أَدخل نفسه مداخل خطيرة، ويكفي أَن نعرف حديثاً واحداً وهو قول النبي ﷺ: «**إنَّ أَول الناس يقضى يوم القيامة عليه ثلاثة ـ**إلى أَن قال ـ: **ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نِعَمَهُ فعرفها، قال: فما فعلتَ فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته،**

(١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٤٧.
(٢) الاعتصام للشاطبي.

وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنَّك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت في القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل. ثم أَمر به فَسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. . .»[١].

والحديث الآخر: «**يا نعايا العرب، أَخوف ما أَخاف عليكم: الشرك والشهوة الخفية**»[٢].

قال ابن الأَثير: (إِنَّ الشهوة الخفية: حب اطلاع الناس على العمل)[٣].

وجاء عن الفاروق رضي الله عنه أَنَّه عاتب أُبيّاً عندما رأى الناس يمشون خلفه، فنهره وزجره قائلاً: (كُفَّ عن هذا، فإِنَّها فتنة للمتبوع مذلة للتابع)[٤].

وقد ذكر بعض من كتب في الرقائق والسلوك: أَنَّ العبد إِذا تمنىٰ أَو فرح أَن يُعظَّم إِذا دخل، وأَن يكون قصده مقصوراً على إِعجاب الناس به ومدحهم له فحسب، فإِنَّ ذلك باب عظيم من أَبواب الرياء والسمعة، ومَن رآءى رآءى الله به، ومن سمَّع سمَّعَ الله به.

فهذه الشهوة مصيبة إِلاَّ لمن ربط الله على قلبه.

وكان السلف رحمهم الله أبعد الناس عن حب الشهرة، ومن الأَمثلة على ذلك:

---

(١) رواه مسلم.
(٢) السلسلة الصحيحة للألباني ٢/ ٢٠، رقم ٥٠٨.
(٣) النهاية في غريب الحديث ٢/ ٥١٦.
(٤) الاعتصام للشاطبي.

ما جاء في ترجمة أَيوب السختياني رحمه الله تعالى، قال شعبة: قال أَيوب: (ذُكرت ولا أُحب أَن أُذكر)[١].

وقال شعبة أَيضاً: (ربما ذهبت مع أَيوب لحاجة فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ها هنا وها هنا؛ لكيلا يفطن له)[٢].

وقال حماد: (كنت أَمشي معه [يعني أَيوب] فيأَخذ في طرق إِني لأَعجب كيف يهتدي لها؛ فراراً من الناس أَن يُقال: هذا أَيوب)[٣].

وقال بشر بن الحارث: (ما اتقى الله مَن أَحبَّ الشهرة)[٤].

وقال الإمام أحمد: (أُريد أَن أَكون في شعب بمكة؛ حتى لا أُعرف، وقد بليت بالشهرة)[٥].

ولما بلغ الإمام أحمد أَنَّ الناس يدعون له قال: (ليته لايكون استدراجاً)[٦].

وقال مرة يخاطب تلميذه لما بلَّغه مدح الناس: (يا يا أَبا بكر، إِذا عرف الرجل نفسَه فما ينفعه كلام الناس)[٧].

وقال مرة لشخص آخر عندما بلَّغه دعاء الناس قال: (أَسأل الله أَن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢.
(٢) المرجع السابق ٦/ ٢٢.
(٣) المرجع السابق ١٠/ ٤٧٦.
(٤) المرجع السابق ١١/ ٢١٦.
(٥) المرجع السابق ١١/ ٢١٠.
(٦) المرجع السابق ١١/ ٢١١.
(٧) المرجع السابق ١١/ ٢١١.

لا يجعلنا مرآئين)[١].

المعوِّق الثالث: (التفريط في حلقات العلم):

كان سلفنا يقولون: (العلم يؤتى ولا يأتي) وحُقّ لنا أن نقول: إنَّ العلم الآن يأتي ولا يؤتى، إلاَّ من القليل، فحلقات العلم التي تعقد والدروس التي تقام، إن لمْ نستغلها فسوف نعض أصابع الندم فيما بعد، ولات حين مندم، فهذه الحلقات لو لم يكن فيها إلاَّ: أن السكينة تنزل على حاضريها، والرحمة تغشاهم، والملائكة تحفهم، وقبل ذلك يذكرهم الله فيمن عنده؛ لكان ذلك كافياً في حضورها، فكيف إذا كان صاحب الحلقة سيحظى ـ إن شاء الله ـ بفوزين: بالتحصيل العلمي وبالأَجر الأُخروي؟!

وسيأتي إن شاء الله مبحث مستقل عن أَدب حلقات العلم.

المعوِّق الرابع: (التذرع بكثرة الأَشغال):

هذا العذر جعله الشيطان حاجزاً منيعاً، وكم كُلِّم إِخوةٌ أَحبة وحُثوا على طلب العلم، لكن الشيطان سوّل لهم، ولبَّس عليهم، فالمفرِّط جعل الأَشغال ذريعة في التغيّب عن حلقات العلم، وجعل في هذه الأَشغال التماساً للمعاذير، حتى يجعل لنفسه تأويلاً مستساغاً في نظره، فيكون في تركه لطلب العلم حجة، وهذه الأَشغال هي سبب رئيس في منع الطالب من حلقات العلم، ومن تحصيل كثير من العلم، لكن من فتح الله على بصيرته، ورتب أوقاته، واستغلّ ما يستطيع، فإِنَّه سيحصِّل كثيراً، ولسان حال أُولئك الذين انتفعوا من ترتيب أَوقاتهم يقول:

---

(١) المرجع السابق ١١/ ٢١١.

ومن لم يُجرِّبْ ليس يعرِفُ قَدْرَهُ فَجرِّبْ تجدْ تصديقَ ما قد ذكرناهُ[١]

المعوق الخامس: (التفريط في طلب العلم في الصِّغر):

إنَّ الإنسان ليغبط أُناساً أَصغر منه سناً وأَكبر همةً، تجدهم من السبّاقين إلى حلقات العلم، نعم، يغبط أولئك... ويتحسَّر على أَوقات ذهبت من عمره، ولم يستغلها في الطلب والحفظ، فإذا ما كبر وكثرت أَشغاله وكثرت الطوارق عليه آناء الليل وأَطراف النهار، تعكَّرَ مزاجه، ولم يستطع أَن يتهيأ للتحصيل كما لو كان صغيراً خالياً من الأَشغال، ولهذا قال الحسن: (طلب الحديث في الصغر كالنقش في الحجر)[٢].

ورضي الله عن عمر عندما قال: (تفقَّهوا قبل أن تُسَوَّدُوا)[٣].

قال أَبو عبدالله [وهو الإمام البخاري]: (وبعد أَن تُسوَّدوا، وقد تعلم أَصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم).

فبادر أَخي، قبل أَن تبتلى بالناس، وقبل أَن تبتلى بكثرة المشاغل، وقبل أَن تندم كما ندم كثيرون، عليك باستغلال وقت الصغر في الطلب، ولا يعني هذا أَن الإنسان يقنط وييأس إذا لم يتدارك وقت الصغر بالطلب، بل إن العمر كله زمان لتحصيل العلم؛ لأَنه عبادة، والله تعالى يقول: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٤].

---

(١) منظومة الصنعاني في الحج ص٨٣.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٩٩.
(٣) ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به في كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، انظر: فتح الباري ١/ ٩٩١.
(٤) الحجر: ٩٩.

المعوق السادس: (العزوف عن طلب العلم):

ومن أَسباب ذلك: العزوف بزعم التفرغ لمتابعة أَحداث العصر، ولمعرفة الواقع.

هذا الباب يختلف الناس في ولوجهم فيه، بين إفراط وتفريط ووسط، والأَولان على خطأ.

إنَّ طلب العلم يحثك على أَن تعرف واقعك، ولن تستطيع أَن تعالج نازلة أَو حادثة نزلت في واقعك إلاَّ بأَن تعرضها على ميزان الشرع.

قال الشاعر:

والشـــرع ميـــزان الأُمـــور كلهـــا   وشـــاهـــد لفـــرعهـــا وأَصلهـــا[1]

أَما من عزف عن طلب العلم والحفظ، وتفرَّغ لمتابعة الجرائد والمجلات، وصبّ كل جهده ووقته في قراءتها، ثم أَخذ يعالج تلك القضايا من منظوره القاصر دون الرجوع إلى العلماء، فهذا الذي قد خسر، ولن يعرف قدر خسارته إلاَّ فيما بعد، كما قال القائل:

إذا أَنت لم تزرع وأَبصرت حاصداً   ندمت على التفريط في زمن البذرِ

إن مما يستنكر وينتقد أَن ترىٰ شاباً من شباب المسلمين، وممن يغار على حرمات الله ويذرف الدمع والدم على حرمات انتُهكت، إنَّ من العيب في حقه: أَن يتهاون ببعض المعاصي كالغيبة والنميمة وغيرها، وأَن تراه جاهلاً بأَيسر الأَحكام الشرعية، فلايصلي الصلاة النبوية، التي قال عنها النبي ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أُصلي**»[2].

---

(١) إصلاح المساجد ص١١٠.

(٢) رواه البخاري.

ولا يتوضأ الوضوء النبوي الذي قال عنه النبي ﷺ: «**من توضأ كما أمر وصلى كما أمر؛ غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

تراه جاهلاً بأذكار الصباح والمساء، تراه مفرِّطاً في أمور يحفظها صغار الطلبة قبل كبارهم، فهذا من مداخل الشيطان، ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) رحمه الله مِنْ أعرف الناس بواقعه، وكان مِنْ أدرى الناس بما يدور حوله من الدوائر، ولقد قامت في عهده فتن وحوادث ونوازل، لكنه طلب العلم وحصَّل جمّاً غفيراً من العلم، فبذلك أصبح يجد حل تلك الحوادث التي نزلت في مجتمعه ويدرك الجواب عنها في الكتاب والسنَّة، أو في أصول العلم وقواعده، ومهما دار الزمان واختلف الناس وتباعدت أقطارهم، فإنَّه ما أنزل الله من داء إلاَّ وله دواء، ولم تنزل مصيبة أو نازلة إلاَّ وفي الكتاب والسنة ما يُصلِحُها، وهذا أمرٌ لا يشك فيه اثنان.

المعوق السابع: (تزكية النفس):

وتزكية النفس: أن يحب الشخصُ مدحَ نفسه، وأن يضفي على نفسه ألقاباً، وأن يفرح بسماع ثناء الناس عليه، ولا شك أن ثناء الناس عليك من عاجل بُشْرَاك؛ كما سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ، عن الرجل يعمل عملاً فيراه الناس فيحمدونه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(٣).

لكن الحذر كلَّ الحذر أن تُمدح بأمر ليس فيك وتفرح بذلك، فحذارِ

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، انظر: صحيح الجامع.

(٢) ذكرته؛ لأنه من أبرز العلماء في التصدي والرد على الفرق الكثيرة الضالة، وإلا فهناك علماء كثيرون غيره، رحم الله الجميع.

(٣) رواه مسلم في كتاب البر.

حذار أن يكون هذا من شأني وشأنك، وتذكَّر قول الله تعالى في ذَمِّ قوم: ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾[١].

ثم تذكر أَنَّ تزكية النفس في الغالب مذمومة، إلاَّ في بعض المواطن بضوابط شرعية، يقول ربنا عز وجل: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[٢].

ويذم أهل الكتاب فيقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[٣].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم**»[٤].

نعم يحق للإنسان ـ كما سلف ـ أن يزكي نفسه في مواضع؛ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٥].

لكن الغالب أَنَّ حب التزكية وحب الثناء من مداخل الشيطان على العباد، فالحذر أن تكون ممن يفرح ويدخله العجب إذ زُكِّي، بل ويحرص على أن يسمع تلك التزكيات!

وإذا أردت أن تعرف خطر حب التزكية: فانظر إلى تقصيرك في الطاعة، ثم انظر إلى ذلك الذي زكاك، أيا تُرى لو كان يعلم عنك ما خفي عنه وما تعمل من الأعمال التي لا ترضي الله عز وجل، لو أنَّها خرجت لهذا الرجل، أتراه

---

(١) آل عمران: ١٨٨.
(٢) النجم: ٣٢.
(٣) النساء: ٤٩.
(٤) رواه مسلم.
(٥) يوسف: ٥٥.

يثني عليك؟

الشاهد من هذا: أَن يحذر الإنسان من تزكية نفسه، وأَن يحذر الإِنسان من أَن يضفي على نفسه أَلقاباً ليست له؛ لأَنَّ من تعجل شيئاً قبل أَوانه عوقب بحرمانه.

المعوق الثامن: (عدم العمل بالعلم):

عدم العمل بالعلم سبب من أَسباب محق بركة العلم، ومن أَسباب قيام الحجة على صاحب العلم، ولقد ذم الله من كان هذا شأنه فقال سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

فعدم العمل بالعلم سبب رئيس من أَسباب محق بركة العلم، ولذا كان السلف أَحرص الناس على العمل بما يعلمون:

فهذا الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (كان الرجل منا إِذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[2].

وهذا علي رضي الله عنه يقول: (يهتف العلم بالعمل، فإِنَّ أَجابه وإِلاَّ ارتحل)[3].

لأَنَّ العلم والعمل قرينان: إِما أَن يجتمعا أَو يرتفعا معاً، وإِن كان هناك علم بلا عمل فإِنَّه حجة على صاحبه.

يقول بشر الحافي رحمه الله: (أَدّوا زكاة الحديث: فاستعملوا من كل

---

(١) الصف: ٣.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٢.
(٣) رواه ابن عبدالبر في الجامع ٢/١١ ونحوه عن وكيع كما في الجامع ٢/١٣٢.

مائتي حديث خمسة أَحاديث)(١).

والعمل بالعلم يعين على تثبيت العلم، وإذا أَردت شاهداً على ذلك فانظر إلى أَذكار اليوم والليلة وأَذكار الصباح والمساء والنوم والدخول والخروج من الخلاء والمنزل. . . . إلى آخره.

لو أَنَّ الإنسان أَراد حفظها فإنَّه سوف يحفظها، لكن سوف ينساها بعد حين، لكن لو أَنَّه عمل بها حيناً من دهره فإنَّها تبقى راسخة، وبقدر العمل بها تزداد رسوخاً.

يقول الذهبي ـ رحمه الله ـ عن زمنه: (وأَما اليوم: فما بقي من العلوم القليلة إلاَّ القليل، في أُناس قليل، ماأَقل من يعمل منهم بذلك القليل. فحسبنا الله ونعم الوكيل)(٢).

فإذا كان هذا كلام الذهبي في القرن الثامن الهجري فما بالك بحالنا اليوم؟! فلزاماً على كل واحد أَن يحسن الظن بربه، وأَن يجاهد نفسه، والله تعالى لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز.

أَخي القارىء: إنَّ هذا العلم الذي أَعطانا الله إيّاه، يحتاج إلى زكاة: فزكاة المال ربع عُشْرِهِ، وزكاة العلم أَن تعمل به وأَن تُعلِّمه، كما قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ: (اعلم ـ رحمك الله ـ أَنَّه يجب على كل مسلم ومسلمة، تعلُّم أَربعِ مسائل: الأُولى: العلم، الثانية: العمل به، الثالثة: الدعوة إليه، الرابعة: الصبر على الأَذى فيه)(٣).

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء ص١١٠.
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ١٠٣١.
(٣) الأُصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبدالوهاب.

فبقدر ما تزكّي هذا العلم يؤتك الله عز وجل خيراً لا تتوقع مدخله عليك، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾(١).

المعوق التاسع: (اليأس واحتقار الذات):

يا طالب العلم، أنا وأنت، وشيخ الإسلام والبخاري وابن حجر والعلماء، نشترك في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

كلنا ذلك الرجل، هذه الآية قاسم مشترك للناس جميعاً، الأنبياء والرسل اصطفاهم الله عز وجل، والصحابة لهم فضل وقصب السبق في الخيرات، فهذه الآية تجمعنا جميعاً، ولذا لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولا تحقرنَّ نفسك، وفي الوقت نفسه ـ كما سبق ـ لا تزكِّ نفسك تزكية أَنت تعلم أَنَّك لست أَهلاً لها، ولا تلبس نفسَك ثوباً أَوسع منك.

إِنَّ اليأس وعدم الثقة بالنفس سبب عظيم من أَسباب عدم التحصيل، والإِنسان إِذا رأى ما أنعم الله عليه من سلامة الجوارح، ومن توفير الوسائل التي يحتاجها طالب العلم، يجد أَنَّ حجة الله عليه قائمة.

لا تحقرن نفسك إِن كنت ضعيفاً في الحفظ، أو ضعيف الفهم، أو بطيء القراءة، أَو سريع النسيان... كل هذه أَدواء وأَسقام تزول إِذا صدقت النية وبذلتَ السبب. يقول الإِمام العسكري عن نفسه: (كان الحفظ يتعذَّر عليّ حين ابتدأت أرومه(٣)، ثم عودت نفسي إِلى أَن حفظت قصيدة رؤبة:

---

(١) الطلاق: ٢.
(٢) النحل: ٧٨.
(٣) أرومه، رام الشيء: إذا طلبه.

«وقاتِمُ الأَعماق خاوي المخترقن» في ليلة، وهي قريب من مائتي بيت)(١)، ولاشك أنَّ هذا أتى من جهد متواصل.

إذن إياك ـ رعاك الله ـ أن تحقر نفسك، بل أَخلص النية لله وابذل السبب واستغل وقتك، وسترى أنَّك حصّلت خيراً يجعلك تندم كل الندم على ما ذهب من الأوقات التي لم تستغلَّها بطلب أو تحصيل، واقرأ ما قاله أبو هلال العسكري:

(حكي لي عن بعض المشايخ أنَّه قال: رأيت في بعض قرى النَّبْط فتى فصيح اللهجة حسن البيان، فسألته عن سبب فصاحته مع لُكنَةِ أَهل جِلْدته، فقال: كنت أَعمَد في كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ، فأَرفع بها صوتي في قراءتها، فما مرَّ بي إلاَّ زمان قصير حتى صرتُ إلى ما ترى)(٢).

إذن فلا تحقرن نفسك وعليك بالمجاهدة، ورحم الله البخاري حين سُئل: ما دواء النسيان؟ فقال: (مداومة النظر في الكتب).

ولا شك أنَّ ترك المعاصي من أَعظم الأَسباب التي تعين على الحفظ، والشافعي يقول كلاماً جميلاً:

شكوتُ إلى وكيع سوءَ حفظي فأَرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلمْ بأَن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصي(٣)

المعوق العاشر: (التسويف):

---

(١) الحث على طلب العلم والاجتهاد في تحصيله لأبي هلال العسكري ص٧١.
(٢) الحث على طلب العلم ص٧٢.
(٣) فائدة: شكك بعضهم في نسبة هذه الأبيات للشافعي؛ وعلل ذلك بأَنَّ الشافعي لم يكن من تلاميذ وكيع. ويرد ذلك: أَنَّ الشافعي حدّث عن وكيع، كما في كتاب الصدقات من كتاب «الأم» وأما الأبيات فهي مشهورة للشافعي.

التسويف كما يقول بعض السلف: (من جنود إبليس)[١]، والتسويف والأَماني وصفها ابن القيم رحمه الله بقوله: (إنَّ المنى رأس أَموال المفاليس)[٢].

والتسويف: أَن يأمل العبد أَن يقضي ذلك الأَمر بعد حينٍ من عمره.

ولم يعرف ذلك المسكين أَنَّ الأَجل قد يباغته، ولذلك ما أَجمل ما قال الشاعر:

ولا ترجِ عمل اليوم إلى غدٍ لعل غداً يأتي وأنت فقيد

عن أَبي إِسحاق قال: قيل لرجل من عبدالقيس: أوصنا، قال: (احذروا سوف)[٣].

وعن الحسن: (إِياك والتسويف؛ فإِنك بيومك ولست بغدك، فإِن يكن غداً لك فكن في غدٍ كما كنت في اليوم، وإِن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرّطت في اليوم).

وقال يوسف بن أَسباط: (كتب إِليَّ محمد بن سمرة السائح بهذه الرسالة: أَي أَخي، إِياك وتأمير التسويف على نفسك، وإِمكانه من قلبك، فإِنه محل الكلال وموئل التلف، وبه تُقطع وفيه تنقطع الآجال، فإِنك إِن فعلت ذلك أَدلته من عزمك وهواك عليه فعلاً، واسترجعا من

---

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص١١٤.
(٢) مدارج السالكين ١/٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٣) اقتضاء العلم العمل ص١١٤.

بدنك من السآمة ما قد ولّى عنك، فعند مراجعته إيّاك لا تنتفع نفسك من بدنك بنافعة. وبادر يا أخي فإنك مُبادَر بك، وأَسرع فإنك مسروع بك، وجدَّ فإن الأَمر جدٌّ. وتيقظ من رقدتك وانتبه من غفلتك، وتذكر ماأَسلفت وقصّرت وفرّطت وجنيت وعملت، فإنه مثبَت محصى، فكأنّك بالأَمر قد بغتك فاغتبطتَ بما قدمت، أَو ندمت على ما فرّطت)[١] وهذه وصية عظيمة نافعة.

بعض طلبة العلم يُسوِّفُ لنفسه آجالاً ويقول: سأبدأ في حفظ المتن الفلاني في يوم كذا، وسأبدأ في قراءة الكتاب الفلاني بعد كذا.

هذا القول فيه تفصيل:

فهو إن كان مشغولاً في وقته هذا بالطلب والقراءة والبحث، فهو على خير ومن خير وإلى خير.

وأما إن كان قصده أنّه سيبدأ في اليوم الفلاني، فهذا لاشك أنّه من تلبيس إبليس، ولذا فإنّه من الواجب على كل أَحدٍ يريد العلم ويريد أَن يتصف بصفات أَهل العلم، أَلاّ يضيع لحظة من وقته، وإنَّ الإنسان ليعجب إذا قرأ عن استغلال كثير من السلف لجُلِّ أَوقاتهم!

أَمثلة من حرص السلف على استغلال الوقت:

وأَسوق لك ـ أَخي القارىء ـ أَمثلةً من حرص السلف؛ حتى ترى مدى التفريط في كثير من الأَوقات التي أَضعناها؛ علّ هذه الأَمثلة ـ بعد فضل الله ـ أَن تكون سبباً في شحذ همتي وهمتك إلى الطلب، وإلى الشعور بأَننا قد فرطنا

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص١١٤.

في قراريط كثيرة من الأوقات الفضيلة، وهذه الآثار تدلُّ دلالةً واضحة على أنَّ السلف الصالح كانوا يشِحُون بكل لحظة من عمرهم، وأنَّ الوقت كما قال الوزير يحيى بن هبيرة(١):

والوقت أنفس ما عُنيتَ بحفظه
وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

فمن الأمثلة: ما ذكره السمعاني(٢) في كتابه: «أدب الإملاء والاستملاء» عن بعض المحدثين (وهذا المثال يدل على أنَّه لا يصرف شيئاً من وقته إلاَّ في الطلب أو الذكر من استغفار أو تسبيح أو تهليل، فقديماً كانت حلقات العلم يحضرها الجمع الغفير من الناس، فقد ورد أن مجلس محمد بن إسماعيل كان يحضره عشرون ألفاً(٣)) الشاهد من هذا الأثر: أنَّ السمعاني ذكر أنَّ المحدث كان إذا قال: حدثنا وكيع، ثم بدأ المستمعون ينقلون هذه الكلمة، كان المحدث في هذه اللحظة لا يضيع وقته، بل يستغفر الله ويسبح الله حتى ترجع عليه الكرَّة مرة أُخرى.

فانظر إلى هذه الثواني التي أبى أن يفرط فيها، ثم انظر كيف تذهب علينا أيام وساعات كثيرة لا نشعر بها!

ويقول بعضهم عن عبدالله بن الإمام أحمد: (والله ما رأيته إلاَّ مبتسماً أو قارئاً أو مطالعاً)، ويقول غيره عن الخطيب البغدادي: (ما رأيت الخطيب إلاَّ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٨٢.
(٢) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ص١/ ٧٤.
(٣) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ص١٧.
وذكر السمعاني أنَّ المعتصم (الخليفة العباسي المشهور) رأى حلقة من حلقات العلم، فهاله كثرة الجمع، فأمر بأن يُحصىٰ العدد فلم يستطع العاد أن يحصيهم عدداً، فأمر بحزرهم فحزروا المجلس عشرين ألفاً ومائة ألف.

وفي يده كتاب يطالعه).

فهؤلاء القوم لا تذهب أوقاتهم، وأما نحن فلسان حال الكثيرين كما قال الشاعر:

تمر بنا الأيام تترى وإنما
نُساق إلى الآجال والعين تنظرُ
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذي مضى
ولا زائل هذا المَشِيبُ المكدِّرُ

والحسن البصري رحمه الله يقول: (يا ابن آدم إنَّما أَنت أَيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضُك)(١).

ويقول أَيضاً: (ما من يوم ينشقُّ فجرُه إلاَّ وينادي: يا ابن آدم أَنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد مني فإني إذا مضيت لا أَعود إلى يوم القيامة)(٢).

واعلم: أَنَّ الأَوقات أَقسام، كما ذكر الخليل بن أَحمد: الوقت على ثلاثة أَقسام:

(وقت مضى عنك فلن يعود، ووقت أَنت فيه فانظر كيف يخرج عنك، ووقت أَنت منتظره وقد لا تبلغ إليه)(٣).

إنَّ هذه الأَوقات التي تمر علينا نعلم من سنة الله أَنها لا تعود، وبكل حال: فلو اجتمعت الإِنس والجن والملائكة ـ وكان بعضهم لبعض ظهيراً ـ

---

(١) حلية الأَولياء للأَصفهاني ٢/١٤٨.
(٢) حلية الأَولياء للأَصفهاني ٢/١٤٧.
(٣) طبقات الحنابلة ١/٢٨٨.

ما استطاعوا أن يردوا ثانية ذهبت من أعمارنا، إنَّ الأَوقات التي نضيعها إذا قارنَّاها بالأَوقات المستغلَّة رأينا في أنفسنا تفريطاً بليغاً.

وإذا قرأ الواحد منا حرص السلف ـ رحمة الله عليهم ـ ومدى استغلال أَوقاتهم، فإِنَّ الإنسان يعجز عن وصف حاله لتفريطه وتقصيره.

ذكر الذهبي عندما ترجم لعبد الوهاب بن الوهاب بن الأَمين: أَنَّ أوقاته كانت محفوظة، فلا تمضي له ساعة إلاَّ في قراءة أو ذكر أَو تهجد أَو تسميع[١].

ومحمد بن عبدالباقي يقول: (ما أعلمُ أني ضيّعت ساعةً من عمري في لهو أو لعب)[٢].

ومن الآثار العجيبة التي تبيِّن مدى حرصهم على استغلال أَوقاتهم ما ذكره الذهبي في كتابه «السير» عن داود بن أَبي هند رحمه الله: أَنَّه كان يقول: (كنت وأَنا غلام أَختلف إلى السوق، فإذا انقلبت إلى البيت جعلت على نفسي أَن أذكر الله إلى مكان كذا وكذا، فإذا بلغت إلى ذلك المكان جعلت على نفسي أَن أذكر الله كذا وكذا. . . حتى آتى المنزل)[٣].

وقصده أَن يستغل وقته في هذه اللحظات التي ستمرُّ من عمره.

وكلٌّ منا ـ إلا من رحم الله ـ إذا رأى أوقاته التي يهدرها ولا تعود إليه بالنفع، ثم رأى الأَوقات التي استغلها؛ فإنَّه يرى تطفيفاً في الكيل.

هذه الآثار أَخي القارىء، تبين أَنَّ الوقت ثمين، ولعلِّي أن أُشبِّه الوقت

---

(١) معرفة القراء الكبار ٢/ ٤٦٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٨.

بالبَكَرةِ، أَرأيت البكرة التي توضع على فم البئر؟ هذه البكرة لو وضع فيها خيط طويل ثم أَخذ شخص بطرف الخيط ثم بدأ يسحب هذا الخيط، والبكرة تدور تبعاً لهذا السحب، فهذا الذي يسحب من الخيط يقبل الزيادة والذي في البكرة يقبل النقصان، هذا هو العمر.

فأنت لا تعلم مدى الخيط الذي في البكرة، أَنت لا تعلم أَجلك، وهذا الخيط الذي يسحب هو العمر الذي تعيش فيه والأَيام التي تشرق وتغرب عليك شمسها، ولو اجتمعت الإِنس والجن ـ وكان بعضهم لبعض ظهيراً ـ ما استطاعوا أَن يردوا لحظة واحدة فضلاً عن ساعة كاملة.

إِذاً، فعلينا أَن نترك التسويف جانباً، ونشمر عن سواعد الجد، ولا يفتر أَحدنا في تحصيل الخير على اختلاف أَنواعه.

إننا نسمع كثيراً عن أُناس يشكون من قلة القراءة، وآخرين يشكون من قلة الحفظ، وآخرين يشكون من عدم ترتيب أَوقاتهم.

إننا نعيش في مجتمع واحد وإن تباعدت الأَقطار نسبياً، ويرى كلُّ واحد منا على نفسه وعلى بعض إخوانه تقصيراً بليغاً في أمورِه، ولعلي أَذكر بعض هذه الأُمور، وهي:

أَوقات مهدرة عند بعض طلبة العلم:

الأَمر الأَول: (الزيارات):

الناس فيها بين إِفراط وتفريط، فالزيارات والاجتماعات بيننا رابطة طيبة، وتقوي أَواصر المحبة والأُخوة، وتزيد العبد إِيماناً بربه كلما اقترب من إخوانه. لكن إِن كانت تلك المجالس عارية من الفائدة العلمية ومن التناصح، فإِنَّ تركها في غالب الأَحيان قد يكون هو الواجب علينا.

فمن الناس مَن لا تراه إن شئت صباحاً ومساءً إلاَّ عند فلان وفلان، بل ربما لو حُلِفَ أنَّه ما يمر عليه يوم إلاَّ ويتنقل بين اثنين أَو ثلاثة من الإخوة لما حنث الحالف في يمينه تلك، وأَحسب أَنَّ بعضنا يسمع عن أُناس يجتمعون في كل يوم مرة أَو مرتين، يتزاورون صباح مساء، وهذه الزيارات جزء من حياتهم.

يُقال لهؤلاء: لو أَننا أَخذنا بأَقل القليل وقلنا: هذه الزيارة ربما تكون مدتها ساعة واحدة، فإذا كنتم تجتمعون في كلٍّ يوم مرة أَو مرتين، فقل: في كل أُسبوع سبع ساعات على الأَقل، فلو أَنكم أَخذتم نصفها وجعلتموه في قراءة لحصَّلتم شيئاً كثيراً، ولشكرتم الله على ذلك كثيراً.

إنَّ بعض الأَحبة يناقض نفسه بنفسه، فتراه مدمناً على كثرة الخروج من منزله فإذا سمعت أَسئلته عجبت منه، فعنده من الكتب الشيء الكثير، فإذا سمعت سؤاله، علمت أَنَّه لم يُزكِّ تلك الكتب، بل ربما لا يعرف أَسماء مؤلفيها، ولاشك أَنَّ تلك الزيارات التي ذهبت أَدراج الرياح هي سبب مهم في هذا الجهل، إلاَّ من رحم الله.

ولابن القيم رحمه الله كلام قيّم عن مجالس الإخوان في كتابه القيم (الفوائد) قال رحمه الله تعالى: (الاجتماع بالإخوان قسمان:

أَحدهما: اجتماع مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أَرجح من منفعته، وأَقل ما فيه أَنَّه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم للتعاون على أَسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أَعظم الغنيمة وأَنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات:

١ ـ تزيّن بعضهم لبعض .

٢ ـ والكلام والخلطة أكثر من الحاجة .

٣ ـ وأن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود)[١] .

وأنت ترى مصداق هذا الكلام إذا لاحظت كثرة المجالس التي يجلسها بعض الأحبة مع إخوانهم ، ووالله إنَّ بعضنا إذا دخل في مجلس وخرج ثم قدَّر الوقتَ الذي جلس ، لوجده ما يقرب من ساعة إلى ساعتين وقد تزيد ، بل إنَّ بعض المجالس قد يطول فيجلسون إلى ساعة متأخرة من الليل ، فلو أنَّك في هذه الساعات الأربع تقرأ قراءة متأنية ، لخرجت منها بفائدة عظيمة ، وتعض أصابع الندم على أنَّك ضيعت ساعات وأيام مضت من عمرك .

الأمر الثاني : (الاشتغال بأمور مفضولة) :

أن يشغل أحدنا نفسه بأشغال مفضولة ، فبعض الناس إذا قرأ ساعة وشعر أنَّه استفاد ، أخذ يروِّح عن نفسه أضعاف وقت فائدته .

ولا يقول أحد : إنَّ الترويح لا ينبغي ، بل ينبغي ، ولكن بقَدَر .

فبعض الناس إذا قرأ ساعة اكتفى ، أو إذا حفظ آية أو آيتين أوحديثاً أو حديثين في يوم اكتفى ، وقال : أخشى أن أُثقل على نفسي !

صحيح أنَّ الناس يختلفون ، فإن كان عندك قدرة وطاقة فلا تحرم نفسك شيئاً واستغل وقتك ؛ فإنَّ العمر قصير والعلم كثير .

وإنَّ من تلبيس إبليس كما ذكر ابن الجوزي وغيره : أن يكتفي الإنسان بنتفٍ من الفوائد حصّلها من قراءة له ، ثم يدخل الشيطان عليه مدخلاً ويقول :

---

(١) الفوائد ص ٥١ .

أَنت خير من غيرك فروِّح عن نفسك، فيجعل مدة الترويح أَضعاف مدة الفائدة التي حصّلها.

ولقد مر بك آنفاً آثارٌ عن السلف الصالح تبين كيف كان حرصهم على عدم تضييع لحظة من لحظات عمرهم، وإِنَّ الناظر في مكتبات بعضنا يرى عجباً! يرى كثرة الكتب، ويرى إِعراض صاحبها عن قراءتها، ولشيخ الإِسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام سديد عندما سأله سائل عن أَهم ما يقرأ طالب العلم، وبماذا يبدأ في قراءة الكتب والتفاسير؟ وذكر من ضمن كلامه جملة ينبغي أَن نقف عندها، ولابد من ذكرها؛ لأَنَّ بعضنا يهتم بتحصيل الكتب وجمعها، بل وينفق كثيراً من ماله في سبيل تحصيل النسخ الجيدة المطبوعة والمحققة والمجلدة.

يقول شيخ الإِسلام: (وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إِيعاباً؛ من نوّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومَنْ أَعماه لم تزده كثرة الكتب إِلاَّ حيرةً وضلالاً)[1]. وهذا شأن مَنْ لم يوفّق إِلى طريق الهدى والرشاد.

وقد قال الإِمام الذهبي رحمه الله تعالى عندما ترجم لعثمان بن سعيد الدارمي قال: (إِنَّ العلم ليس بكثرة الرواية، ولكنّه نور يقذفه الله في القلب، وشرطه: الاتباع، والفرار من الهوى والابتداع)[2].

ذكرت هذين الأَثرين؛ لأَنَّ الواحد منا إِذا قلَّب النظر في هذه الكتب التي عنده رأى أَنَّ حجة الله عليه قائمة، وأَنّه أَورد نفسه الموارد إِذا فرّط، فهذه الكتب لو أَننا رتبنا أَوقاتنا وحفظناها من فضول الأَشغال، وحفظناها بما يعود إِلينا بالنفع، ثم رتبنا وقتاً للقراءة ـ وسيأتي إِن شاء الله بيانها ـ ووقتاً للحفظ؛

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٢٣٩.
(٢) السير ١٣/ ٣٢٣.

لرأينا لذَّة وحلاوة في الطلب، ولشعرنا بشغفٍ للمزيد ونهم للقراءة والبحث، قال ابن أبي حاتم: (سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أَسمع بالحرف مما لم أَسمعه فتودُّ أعضائي أَنَّ لها أَسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت الأُذنان به.

فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرصَ الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال.

فقيل له: كيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المُضِلّة ولدَها ليس لها غيره)[١].

الأمر الثالث: (الأَشرطة السمعية):

وهي والله نعمة، لكن كثيراً منّا فرّط فيها، وسبب التفريط في هذه النعمة يعود إلى عدم الاهتمام بترتيب الوقت، ولقد قرأتَ أَثراً في أَول الموضوع، أَنَّ السلف كانوا يقولون: (إنّ العلم يؤتى ولا يأتي)، والآن يؤتى ويأتي بواسطة هذه الأَشرطة التي تعين طالب العلم، ولقد ذكر المستمعون لها أَنَّ فيها خيراً كثيراً، ولقد انتفعت بها واستفدت خيراً، أَقول هذا من باب التحدث بالنعمة.

والصنعاني يقول في منظومته في الحج:

ومن لم يجربْ ليس يَعرِفُ قدْره   فجرِّب تجد تصديقَ ما قد ذكرناه[٢]

أَليس من نعمة الله عليك: أَن يكون العلم مصاحباً لك في سيرك، وفي

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه للرازي، انظر: حاشية رقم (٣)، ص٢٢.
(٢) منظومة الصنعاني في الحج ص٨٣.

اضطجاعك على فراشك، وفي جلوسك على مائدتك؟

وإنَّ الواحد منا إذا أَحسن انتقاء الأشرطة، ورتّب وقتاً لسماعها في سيارته أو منزله، لوجد في ذلك خيراً كثيراً.

وقد حُدِّثت أَنَّ أَحد الشباب الصالحين قد حفظ القرآن الكريم كله بفضل الله ثم بسبب هذه الأَشرطة، ويقول عن نفسه: إنَّه كان يستمع إلى قراءة الشيخ محمد صديق المنشاوي سنتين كاملتين، كلما انتهى من شريط أَعاده، حتى أَصبح القرآن سلساً على لسانه.

فلا تستبعد هذا على نفسك، ولكن رتب وقتك، ورتب هذه الأَشرطة في أَثناء سماعك لها، ولا تُدخل شريطاً على آخر حتى تفرغ من الأَول، فإن لم تستفد من الشريط الأَول فأَعده مرة ومرتين وكرات ومرات.

وإذا أَردت أَن تعرف قدر الساعات التي تُهدَر، فانظر في سيرك كم تسمع خلاله من شريط، فإذا كان الشريط الواحد مدته ساعة أَو ساعة ونصف، فهذه أَوقات تُهدر لا يفطن لها الواحد منّا إلاَّ إذا نُبِّه لها، فرتب لنفسك وقتاً تسمع فيه درساً في أَثناء سيرك، خاصة وقد تباعدت المنازل والدور، وكثر الذهاب والإياب؛ لأَجل العمل والزيارات، كزيارة رحم أَو زيارة أَخ في الله، وقضاء حاجة من متطلبات المنزل وغيرها، ثم حافظ على هذا الترتيب، وسترى أَنَّك لا تنزل من سيارتك إلاَّ وقد سمعت من الفوائد الشيء الكثير.

ذكرت هذا؛ لكثرتها، ولأَنَّ فيها من العلم الشيء الكثير، ولأَنَّ مشايخنا وكبار مشايخنا علمهم محفوظ فيها، وتباع بأَيسر الأَثمان، ويستطيع الواحد منا أَن يتناولها في كل وقت.

وأَعرف إخوة شُغلوا عن حضور الدروس؛ لكثرة الأَعمال والأَشغال، فعوّضوا هذا بالاستماع إلى الأَشرطة، فنفعهم الله بها.

الأمر الرابع : (بين الأذان والإقامة) :

من الأوقات التي فرّطنا فيها: الوقت الذي بين الأذانين (الأذان والإقامة) فلو أنّك قدّرتَ الوقت الذي بين الأذان والإقامة لصلاة الظهر والعصر والعشاء والفجر، لوجدت أنّ بين كل أذانين ثلث ساعة، هذا على أقل تقدير، إذاً تحصّل لنا ساعة وثلث، أما صلاة المغرب فإنّ الوقت قصير بين أذانها وإقامتها.

وإنّي لأجزم أنّ من استغلّ هذه الأوقات بين الأذان والإقامة لقراءة القرآن الكريم، سواءً مراجعة ما حفظ أو حفظ ما لم يحفظ، فإنّه سيحفظ شيئاً كثيراً من كتاب الله، وعليك أن تحسب هذا الوقت لمدة شهر، فستجد أنّه يكون لدينا أربعون ساعة في الشهر، يقضيها الإنسان في حفظ القرآن الكريم.

ولو أنّكَ الآن بحثت في أمرك، لوجدت أنّك لا تقرأ القرآن إلاّ نادراً، إذا استثني رمضان شرّفه الله.

فهذا الوقت الذي بين الأذانين لم يستغله الكثير منّا، والسبب في ذلك هو التأخُّر عن الذهاب إلى المسجد.

تَرى أنَّ الواحد منّا لا يذهب إلاّ مع الإقامة أو قُبيلها مصاحباً لألفاظها! فلا هو استغلَّ الوقت، ولا هو أدركَ الأجرَ من صلاة الملائكة عليه، ولا أجرَ التبكير للصلاة، ولا إدراكَ الصف الأول. وما أجمل وما أروع ما روى ابن حجر في التهذيب في ترجمة إبراهيم بن ميمون الصائغ حيث ذكر: أن يحيى بن معين قال عنه: (كان نجّاراً وكان إذا رفع المطرقة وسمع الأذان، لم يردّها مرة ثانية، وإنّما بادر للذهاب للمسجد)[1]!

---

(١) التهذيب ١/ ١٧٣.

وقال أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) ـ فيما نقل عنه الزركشي في (إعلام الساجد): (كان أول ما أحدث الناس: التأخُّر عن صلاة الجمعة، ولقد كان الأوائل يذهبون للجمعة بالسُّرج في أيديهم) أي مبالغة في التبكير لها[١].

فلو أننا استغللنا هذا الوقت لا لأجل الوقت فحسب، بل طمعاً في الأجر في التبكير للصلاة، لوجدنا خيراً كثيراً من الراحة النفسية والراحة البدنية، ومن تحصيل الفوائد العلمية.

الأمر الخامس: (القراءة الحرة):

نستطيع أن نشغل أوقاتنا الضائعة بالقراءة الحرة، فيجعل الإنسان من وقته شيئاً يسيراً في منزله يقرأ فيه، ويختلف الناس بين مستقِلٍّ ومستكثر، فبعضنا قد يكون غير متزوِّج، ولم يُشغَل بأولاد أو بقضاء حاجيات، وهذا لزاماً عليه أن يستغل ذلك الوقت، فقد ذُكر عن سفيان رحمه الله ـ فيما نقله ابن جماعة ـ أنَّه قال: (مَنْ تزوج فقد ركب البحر، فإنْ وُلِدَ له وَلَدٌ فقد كسر به)[٢].

ومراده ـ والله أعلم ـ أنَّ صاحب الزواج يُشغَل، وليس هذا على إطلاقه، لكن القصد: أن يستغل الواحد منَّا بقاءه في منزله.

وإنِّي أعجب من بعض الإخوة لا تأتيه إلاَّ وهو في المنزل، ولكن إذا سألته، وجدته يشتغل بفضول أعمال، بل من المصيبة والعقوبة: أنَّ الإنسان إذا قلَّب الجريدة أو المجلة أعادها مرتين أو ثلاثاً، فإذا أخذ الكتاب شعر بالتضايق، أو إذا كان في مجلس وكان المجلس معموراً بالقيل والقال

---

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد ص٣٥٨.
(٢) تذكرة السامع ص٧٢.

والكلام المباح ثم قال قائل: أَعطونا كتاباً، يشعر بالتضايق، فمَن علم أَنَّ هذا الأَمر في نفسه، فليعلم أَنَّ هذا ذنب، أَو أَنَّ هذا مرتبٌ على ذنب ارتكبه، وأَنَّ هذه مصيبة بُلي بها.

ولقد حدد أَهل العلم ـ كالخطيب وابن جماعة ـ أَوقاتاً للحفظ والقراءة ولكن لا تنضبط؛ لأَنَّ الناس يختلفون:

فمنّا من يرغب ويجد راحة تامَّة في القراءة بعد الفجر، ومنَّا مَن يتثاقل ذلك، بل إِنَّ البعض يترك الدروس والحلقات بعد الفجر لأَجل النوم، ومنّا يفضل القراءة في الليل في ساعة مبكرة أَو متأخرة.

ومنّا من هو بين بين، فيفضل في وسط النهار.

إِذن ليس لهذا ضابط، ولكنّها بحسب الشخص، فمتى وجدت في نفسك قدرة على أَن ترتب وقتاً تجعله للقراءة الحرة فافعل، وخصص لك كتاباً أَوكتابين تقرأهما، أَو ابحث مسأَلة واكتبها.

الشاهد:

أَن تحاول جاهداً ـ بعد إِخلاص النية لله ـ أَن تستثمر أَوقاتك بكل نفع: قراءةً أَو كتابةً أَومراجعةً، أَو ما شاكل ذلك.

من آداب طلب العلم

من آداب طلب العلم

إنَّ طالب العلم بحاجة إلى آداب يتخلّق بها، بحاجة إلى أن يقتفي أَثر السلف الصالح في تحصيلهم للعلم، وفي أَدبهم مع ذلك العلم المحصَّل، وهو بحاجة إلى معرفة كيف كانوا يسهرون الليالي، ويتركون لذة الفراش في سبيل التحصيل، الذي يسعى إليه طالب العلم في حلّه وترحاله، مع أَشياخه ومع أَقرانه ومع طلابه، وهذا المبحث متشعب؛ لأَنَّ العلم بحر واسع لا ساحل له.

وليس النقص في الكتب، فكثير مِنّا يملك عشرات بل مئات الكتب، وليس النقص في الأَوقات، فعند بعضنا أَو عند أَكثرنا أَوقات كثيرة.

ولكن العلم نور يقذفه الله في القلب، وليس بكثرة القراءة فحسب، ولا بكثرة اقتناء الكتب فحسب؛ فهذا إمام الحرمين يحكي عن بعض الشافعية: (ما من شافعي إلاَّ وللشافعي عليه منّة، إلاَّ أَبا بكر البيهقي فإنَّ له المنّة على الشافعي؛ لتصانيفه في نصرة مذهبه)[١].

هذا الإمام الفحل أَبو بكر البيهقي الذي أَلف أَكبر كتاب في الأَحكام بالأَسانيد «السنن الكبرى» كان يُعوِزه بعض المراجع التي تتوفر الآن غالباً عند أي طالب علم، فسنن ابن ماجه والنسائي وجامع الترمذي لم تكن متوفّرة لديه، ولم يكن ذلك مما يعوقه عن الطلب والتحصيل، إذن فطلب العلم يحتاج بادىءَ ذي بدء إلى إخلاص القصد، ويحتاج إلى بذل الجهد البدني والوقتي والنفسي، والمالي ـ أَحياناً ـ فإذا جمع الله للعبد بين إخلاص النية،

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٣٣.

وبين بذل الأَسباب؛ يسَّر له ما كان عسيراً.

وعلى الإنسان إن لم يكن عنده علم في مكانه: أَن يرحل لطلب العلم، ولهذا جاء في الحديث الذي حسنه بعضهم: «**يأتيكم شباب يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فاستوصوا بهم خيراً؛ فإنَّهم وصية محمد ﷺ**»(١).

فالذين يرحلون لطلب العلم قد أَحيوا مَعْلماً وأَثراً من آثار السلف التي هجرها الكثير وزهّد فيها كثير، ويقال لهم: إنّكم بفعلكم هذا قد شحذتم همة غيركم، ومَن دلَّ على خير كان له مثل أَجر فاعله، وربُّ أَجر يجري على صاحبه دون أَن يعرف السبب في جريان الأَجر عليه.

ومن أَثر السمت على طالب العلم أَن ترى رجلاً خامل الذكر غير معروف بين الناس، لكن الكلام الذي يقول والسمت الذي يكتسبه يُحدثُ في نفس السامع والناظر آثاراً قد لا تُحدثها قراءة أَلف كتاب.

ولقد ذكر الذهبي في السير أَنَّه كان يجتمع في مجلس الإمام أَحمد خمسة آلاف أَو يزيدون: نحو خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حُسن الأدب والسمت(٢).

وهذا أَبو بكر بن المطوعي يقول: (اختلفت إلى أَبي عبدالله ثنتي عشرة سنة وهو يقرأ «المسند» على أَولاده، فما كتبت عنه حديثاً واحداً، إنَّما كنت أَنظر إلى هديه وأَخلاقه)(٣).

---

(١) رواه ابن عبدالبر وغيره. ورواه ابن ماجه، باب الوصايا بطلبة العلم، حديث رقم ٢٤٧، وقال الألباني: حسن. الصحيحة ٢٨٠، كذلك رواه ابن ماجه في نفس الباب، الحديث رقم ٢٤٩، وقال الألباني: ضعيف. المشكاة ٢١٥.

(٢) السير ١١/٣١٦.

(٣) السير ١١/٣١٦.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الإمام الرباني هو الذي يعلِّم الناس صغار العلم قبل كباره).

يعلمهم بفعله وبقوله وتصرفاته، وطالب العلم ينبغي أن يكون قدوة في جميع شؤونه؛ فلا يتكلَّم ولا يتصرف إلاَّ على هدى وعلى نور.

ولذا فنحن ـ ولله الحمد والمنَّة ـ نعيش وقتاً قد تيسرت فيه وسائل كثيرة تعين طالبِ العلم على طلبه وتحصيله بيسر وسهولة، فالإنسان منّا يستطيع ـ مثلاً ـ أن يخرّج حديثاً من مائة كتاب في خلال دقائق معدودة وذلك فضل من الله عز وجل ثم بسبب الفهارس المتنوعة.

لكن يا ترىٰ أَقَدَّرْنا هذه النعمة وأدركنا هذا الفضل الذي أحاط بنا؟

فالعاقل يتدبّر وينظر في هذه النعم التي ربما تُسلب منّا، إذن فنحن لا تنقصنا مراجع ولا ينقصنا مشايخ، ولا تنقصنا أوقات، كل هذا متيسر ومتوفر بحمد الله، لكن نحتاج إلى تقوى، ونحتاج إلى بذل ما نستطيع من الجهد حتى نجني ثمار الغرس.

حلقـــات العلـــم :

هذه الحلقات التي تنتشر في بلادنا ـ ولله الحمد ـ يرعاها ثُلّة ممن نحسبهم ـ والله حسيبهم ـ من أهل العلم الصادقين، وعلى رأسهم مشايخنا الكرام.

هذه الحلقات وهؤلاء المشايخ، سيأتي يوم نندم على أَنْ فرّطنا في حضور دروسهم، أذكر هذا بعد أن سَطَّر أسلافنا عبارات تنبىء عن حسرة وندامة على تفريطهم في مشايخ عاصروهم لكن لم يرووا عنهم ولم يأخذوا عنهم.

ولقد ذيّل الخطيب البغدادي رحمه الله كتابه (الرحلة) بـ[ذكر مَن رحل إلى شيخ يبتغي علو إسناده، فمات قبل ظَفَر الطالب منه ببلوغ مراده][(١)].

ولقد كان السلف يتحسّرون على فوات شيخ عاصروه لكنَّهم لم يأخذوا عنه شيئاً، فهذا داود ـ ويسمى عبدالله بن داود الخريبي ـ يقول: (كان سبب دخولي البصرة لأن أَلقى ابن عون، فلما صرت إلى قناطر بني دارا، تلقّاني نعي ابن عون؛ فدخلني ما الله به عليم)[(٢)].

فانظر يا خي إلى تحسّره، إنَّه لم يخسر ثروة مالية، ولم يخسر بناءً، إنّما خسر أمراً لن يستطيع أَن يتعوض عنه إلاَّ بمثله أَو أَحسن منه.

وثُلَّة من السلف رحلوا: فمنهم مَن أَدرك جنازة الشيخ، ومنهم من أَدركه وهو في سكرات الموت، ومنهم من أَدركه وقد وضعوه في التراب بعد الموت، وكانوا يتحسرون ويعضون أَصابع الندم على تفويتهم.

ونحن إنْ طالت بنا حياة فقد ندرك أَجيالاً يلوموننا على تفريطنا في التحصيل من بعض مشايخنا الذين عُمّروا وحووا علماً كثيراً.

فعلى طالب العلم أَن يستغل حياة العلماء وينهل من معينهم قبل أَن يقع الأَمر ـ وهو سنة ماضية ـ كما قال ﷺ: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأَفتوا بغير علم، فضلّوا وأَضلوا**»[(٣)].

فهذا النص نفهم منه أَنَّ العلم سيقبض، وليس المراد رفع العلم، بل

(١) الرحلة في طلب الحديث ص١١٦.
(٢) الرحلة في طلب الحديث ص١٧٦ـ١٧٧.
(٣) رواه الشيخان.

المراد قبض العلماء، وذهاب العالم خسارة لا تعوضها ثروة من مال أو جاه، ولهذا ذكر الذهبي في السير عندما ترجم لإسحاق بن الفرات: أَنَّ ثلاثة من العلماء ماتوا في وقت واحد، فقال الذهبي رحمه الله: (فمثل هؤلاء الثلاثة إذا خلت منهم مدينة في عام واحد، فقد بان عليها النقص)[١].

فإِنَّ في وجود العالم حياة للقلوب قبل الأبدان، وحياة القلوب أَعظم من حياة الأَبدان، ورحم الله شيخ الإسلام عندما قال: (الرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها أَشد من حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالَم ونوره وحياته، فأَي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟! الدنيا مظلمة ملعونة إلاَّ ما طلعت عليه شمس الرسالة) اهـ.

فالرسالة حياة للقلوب كما أَنَّ الطعام والشراب حياة للأَبدان، وشتان ما بين موت القلوب وموت الأَبدان، إذن فهذه الحلقات وأُولئك المشايخ الذين حصَّلوا علماً وأَفنوا أَوقاتهم في التحصيل، ثم فتحوا صدورهم قبل بيوتهم لنشر هذا العلم، يجب علينا أَن نستغلَّ وجودهم، وأَن نشمِّر ونبادر إلى حضور حلقات دروسهم، قبل أَن نفقدهم كما فقدنا بعضهم، نقل السمعاني أَبياتاً طيبة عن عبدالله الشافعي المراغي يحكي حكاية مَن فرّط في حلقات العلم، وأَنَّ مَن استبدل هذه الحلقات بمجالس أُخرى فقد استبدل الذي هو أَدنى بالذي هو خير، يقول:

إذا رأيت شباب الحي قد نشأوا ... لا ينقلون قِلال الحبر والورقا
ولا تراهم لدى الأَشياخ في حِلَقٍ ... يعون من صالح الأَخبار ما اتسقا

(١) السير ٩/ ٥٠٤.

فدعهموا عنك واعلمْ أنّهم همجٌ   قد بدّلوا بعلوٍّ الهمّة الحُمْقا[١]

نعم، لاشك أنَّ الذي استبدل مجالس العلم والخير والذكر بمجالس السوء وفضول الكلام، قد تشبّه بالحمقىٰ إن لم يكن منهم.

فالعاقل هو الذي يستغل كل ساعة من عمره؛ لهذا كان بعض السلف يتحسّر ويقول: (إذا مرّ عليّ يوم لم أزد فيه علماً، فلا بورك لي في ذلك اليوم).

وكان بعضهم شحيحاً بوقته، فإذا كلّمه أحد بما لا ينفع قال: (انظر إلى الشمس أتراها؟ إنّها تجري بأمر الله ولا تفتر، أمسكها حتى أُكلمك؛ لأنَّ الكلام معك فضول وإضاعة وقت، فإن لم آثم فلن أُوجر).

فينبغي أن لا ندّخر وسعاً في التحصيل، وفي الجلوس عند العلماء، وفي النهل مما علّمهم الله قبل أن نفقدهم، وقبل أن نندم على التفريط في بقائنا وإيّاهم على الحياة سوّياً، ثم ذهابهم دون أن نحصّل من خُلُقِهم وعلمهم وفقههم.

وينبغي أن نراعي الأُمور التالية للاستفادة من حلقات العلم:

الأمر الأول: (الإخلاص):

أن يكون ذهابنا إلى حلقات العلم وجلوسنا فيها وإيابنا منها خالصاً لوجه الله تعالى، وأن لا يشوب ذلك شائبة من رياء أو سمعة، وقليل من يَسْلَم، ولكنَّ الله لطيف بعباده، فقد يعتري النية مايعتريها من شائبة حب السمعة أوحب الشهرة أو حب الرياء، لكن العبد إذا كان مجاهداً كارهاً لهذا، داعياً ربه متضرعاً مستكيناً، فإنَّ الله عند حسن ظن عبده به: إن خيراً فخير وإن

(١) أدب الإملاء والاستملاء ١٥٣/ ١٥٤.

شراً فشر .

وبكل حال: فيعتري النيات ما يعتريها، خاصة إذا فاق أقرانه في التحصيل، فعلينا أن نلازم الإخلاص لله، وأن نحاول جاهدين أن نبعد عن النيات ما يكدِّر صفوها، ويعكِّر نقاءها، فإذا علم الله ذلك منّا، وصدقنا النية في الطلب؛ فلن نرى من الله تعالى ـ إن شاء الله ـ إلاّ ما يسرّ؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(١)

ولقد ذكر بعض أهل العلم: أَنَّ طالب العلم قد يجد عنتاً ومشقة وصعوبة في مجاهدة نيته، لكن هو مأجور إذا بذل مايستطيع في تقويم هذه النية؛ لأَنَّ النية أمرها عظيم، وإذا كان سلفنا يتحاشون سوء نياتهم أَن يتطرق لها دخن أَو لوثة من حب رياء أَو شهرة، فأَين منزلتنا من منزلتهم؟!

فلزاماً علينا: أَن نضرع إلى الله أَن يرزقنا الإخلاص في جميع أُمورنا، وأَن نفعل الأَسباب المعينة على ذلك.

الأَمر الثاني: (الحرص على حضور حلقات العلم):

المداومة والحرص على حضور الدروس، وعدم الكسل والفتور والكلل والسآمة؛ فإِنَّ العبد كلما زاد حرصه وعلم الله صدق نيّته؛ فتح الله عليه بركته ويسر أَمره وأَعانه على شؤونه كلها، وعلينا أَن لا نستكثر ماحضرنا من حلقات العلم؛ فإِنَّ الجهل كثير والعلم لدينا قليل.

ولذا يقولون: إحاطة الإِنسان بما يعلمه أَكثر من إِحاطته بما يجهله، فهو يجهل كثيراً، وكلما ازداد الإِنسان فائدة ذهب جزء من جهله، وهلمَّ جرّاً.

وكلما واظبت على حضور الدروس فاحمد الله واسأله التوفيق والمزيد

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

من فضله .

واعلم أنَّ هذا الحرص ـ لولا فضل الله عز وجل وتيسيره وتوفيقه ـ لما نفعك اجتهادك .

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى   فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

إذا وكلك الله إلى نفسك فلست بخير ، فاحمد الله ، واحرص على أنْ لاتفرط في درس ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، فهذا ثعلب (أبو العباس ، واسمه أحمد ، وهو من علماء اللغة) يقول عن إبراهيم الحربي : (ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحوٍ أو لغةٍ خمسين سنة) .

لكن ما الثمرة التي حصل عليها إبراهيم الحربي ؟ أصبح من أئمة الدنيا ، وممن سار بعلمه الركبان ، فهو عَلَم في رأسه نار ، هذا العِلْمُ لم يأته ميراثاً بل جهداً ومثابرة .

وما أجمل مقالة الإمام أحمد! عندما قال أبو الحارث : سمعت أبا عبدالله يقول : (إنما العلم مواهب يؤتيه الله من أحب من خلقه ، وليس يناله أحد بالحسب ، ولو كان لعلة الحسب لكان أولى الناس به أهل بيت النبي ﷺ) .

ولما رأى الإمام مالك ابنه يحيى قد خرج من البيت وفي كمه جَوْز من الحمام! قال مالك : (الحمد لله الذي لم يجعل هذا العلم ميراثاً) .

فعلينا : أن نحرص على حضور ما نستطيع من الدروس ، وأن نواظب عليها ، فقد ذكر العسكري أنَّ أبا الحسن الكرخي قال : (كنت أحضر مجلس أبي خازم يوم الجمعة بالغداة من غير أن يكون درس ؛ لئلا أنقض عادتي عن

الحضور)(١).

فانظر إلى هذا الحرص وهذا الجهد، فهو يترك الراحة ويُؤثِّر على نفسه، بل ويعسف نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ من أَجل التحصيل وتعويدها النشاط، والنفس كما قال القائل:

والنفسُ كالطفل إنْ تهمله شبَّ على   حبِّ الرضاع وإنْ تفطمْه ينفطمِ

النفس كالطفل إذا عودتها الخير اعتادت، وإذا وعدتها الشر اعتادت، وخير من قول الشاعر قول النبي ﷺ: «**إنَّما العلم بالتعلم، وإنَّما الحلم بالتحلم، ومن يتحرّ الخير يعطَه، ومن يتقّ الشر يوقَّه**»(٢).

إذاً، فاحرص على المداومة على حضور حلقات العلم ومجالسه.

ورد عن وهب بن جرير عن أَبيه قال: (جلست إلى الحسن سبع سنين لم أخرم منه يوماً واحداً، أَصوم وأَذهب إليه)(٣).

وقتادة بن دعامة السدوسي من أَئمة التابعين، ولد أَكمه، وكان من طلاب أَنس، وكان طلاب العلم والتابعون يفدون على أَنس صباح مساء، فكان إذا حدّث أَهل الصباح فذهبوا، جاء أَهل المساء فحدّثهم بحديث أَهل الصباح، فتأَخّر أَنس ذات مرة عن أَهل المساء فحدّثهم قتادة بكل حديث الصباح وأَنس يسمعه، فلما رأى حفظه وتعجب من فطنته لكزه بيده وقال: (قم يا أَكمه! فلقد أَخذت علمي)(٤)، وهذا دليل على أَنَّ من ثابر وطوّع نفسه

---

(١) الحث على طلب العلم للعسكري ص٧٨.

(٢) رواه الدارقطني والخطيب، صحيح الجامع.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦٢.

(٤) سمعت معنى هذا من كلام شيخي عبدالله بن حميد رحمه الله تعالى، في أحد دروسه.

على التحصيل؛ جنى ثمرات ذلك الجهد.

إذا أَنتَ لم تزرعْ وأَبصرتَ حاصِداً ندِمتَ على التفريطِ في زمنِ البذرِ

وقد يقول قائل: إنّي أَنتظم في حلقة مع شيخ وأَلزمه ويعتريني الملل والضجر، وأَخرج أَحياناً من حلقة العلم ولا أَعي حرفاً واحداً، فيقال له: إنَّ العلم لا يكون إلاَّ بجهاد من طالبه، وقد يمر عليه حالة الفتور والكسل، لكن عليه أَن يوطِّن نفسَه ويستعين بالله أَولاً، ثم يجتهد بالتركيز والمذاكرة مع أَقرانه.

الأمر الثالث: (الحرص على التبكير إلى الحلقة):

وعدم التأَخُّر، بل وإيثارها على غيرها، بل وجعلها هي الأَساس وماسواها تابع لها، وأَن لا نفرط في حلقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وبخاصة الدرس الذي انتظمنا فيه، والشيخ الذي لازمنا القراءة عليه؛ فإنَّه بالمثابرة على الحضور والتبكير، تكون الفائدة أَشمل، ويكون النفع أَعم وأَكثر، ولهذا قيل للشعبي رحمه الله: من أَين لك هذا العلم كله؟ قال: (بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب)[١].

ذكر السمعاني عن الفرعاني قال: (كنّا نسمع الحديث من عبدالصمد ابن الفضل، وكان الباب مغلقاً دوننا، فجاء إنسان فقرع الباب وأَعنف في القرع والدق، فقال عبدالصمد لواحد منّا: قُم فانظر: إن كان هذا من أَصحاب الرأي فافتح له الباب، وإن كان من أَصحاب الحديث فلا تفتح له الباب، فقال له بعضهم: أَليس صاحب الحديث أَولى أَن يفتح له الباب؟! فقال: لا،

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص١٩٦.

أَصحاب الرأي أَولى؛ لأَنَّ هذا عمل أَصحاب الحديث، فَلِمَ لم يبكر؟! وليس هو عمل أَصحاب الرأي، فيعذرون)[١].

وإذا عوَّد الإنسان نفسه على التبكير في الحضور إلى الدرس، فقد فاز بالأَجر الأُخروي: بصلاة الملائكة عليه، وبنزول السكينة عليه. وفي الوقت نفسه كان أَقرب للمحدِّث، وكان أَكثر إنصاتاً وسماعاً، وأَيضاً أَكثر احتواءً للفائدة، بل قد ذكر العراقي في المرجحات أَنَّ من أَسباب الترجيح عند المحدِّثين: إذا اختلف القريب عن الشيخ والبعيد، فتقدّم رواية القريب على البعيد؛ لأَنَّ القريب أَبلغ في الإنصات وأَقرب لسماع الشيخ وسماع حديثه.

الأَمر الرابع: (استدراك ما يفوت من الدروس):

فلا تفرِّط فيما يفوت منها، فقد يعرض لنا عارض ويطرأ طارىء، فيتخلف أَحدنا عن الدرس أَو عن الحلقة، فإن كنت مواظباً على هذا الدرس فاحذر كل الحذر أَن تفرط فيه، واحرص على أَن تحصِّل ما فاتك من أَقرانك وأَترابك، وقد تيسرت ـ ولله الحمد ـ التسجيلات التي تعيد الدرس مرات وكرات، وهذا من فضل الله علينا، فإذا كنت مواظباً على درس من الدروس محافظاً عليه، فاحرص أَن تتفقد ما تغيب عنه؛ لأَنَّ الدرس كالسلسلة، إذا فقدت منها حلقة؛ أَثرت على ما بعدها وما قبلها.

الأَمر الخامس: (تعليق الفوائد على الكتاب):

التعليق: تقييد الفوائد التي تسمعها: على الكتاب، أَو في دفتر خارجي، وهذه الفوائد إذا حرص الإنسان على تقييدها، وعلى مراجعتها مرة بعد مرة، فإنّها بإذن الله تعالى تُكَوِّنُ عنده ملكة في الكلام، وفي التحضير،

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء ص١١٢.

وفي إزالة الإشكال، وقل مثل هذا في القراءة.

وأنصحك أخي القارئ: إذا اشتريت كتاباً فلا تدخله مكتبتك إلاَّ بفحص عام، ومن هذا الفحص العام تعرف اسم المؤلف، وتعرف المباحث التي احتوى عليها الكتاب بالرجوع إلى فهارس الكتاب، وأن تقطع ما تيسَّر لك من الوقت في تصفح بعض موضوعاته، هذا التصفح يعطينا ملكةً أن نحيط بكل كتاب نشتريه.

وإنَّ الواحد منّا ليعجب من نفسه، بل قد يتهمها بالذهول أحياناً: إذا اشترى كتاباً مرة ومرتين، أو سئل عن كتاب وهو في جنبات مكتبته من أشهر طويلة، وكم من كتاب ذكر لبعضنا فنفى أن يكون عنده، وقد اشتراه وهو بين عينيه صباح مساء! لكن بعدم تصفحه ولعدم تفقد بعض مواضيعه نسي أصل الكتاب كله.

والوصية بتعليق الفوائد على الكتاب التي أشرت إليها آنفاً جربتُها وسمعتُ أنَّ غيري جرَّبها، فجربْها أنت:

ومن لم يجرّب ليس يعرف قدره فجرّب تجد تصديق ما قد ذكرناه[1]

فإذا قرأت كتاباً (سواء على شيخ أو قراءة حرة) فاحرص كلَّ الحرص على أن تقيد ما تسمع أو تقرأ من الفوائد، أو ما يمر عليك من الشوارد والفرائد، فإذا أتممت قراءة الكتب ثم تصفّحت تلك الفوائد، ستشعر أنَّك جمعت كنزاً عظيماً، خاصة إذا جعلتها منظمة بحيث تُحْكِم تبويبَها.

فإذا قرأت كتابين أو ثلاثة، ثم علّقت على جنباتها ما قرأت من الفوائد،

---

(١) منظومة الصنعاني في الحج ص٨٣.

ثم لخصتها ونظمتها وجعلتها في دفتر فيكون لديك كثير من الفوائد المتنوعة: في المعتقد، وفي الأُصول، وفي الجرح والتعديل، وفي النحو، وفي السلوكيات، وفي المصطلح... وهلمَّ جرّاً.

واجعل لك دفتراً شاملاً مقسّماً، بحيث يكون فيه: قسم للفوائد الأصولية، وقسم للفوائد النحوية، وقسم للجرح والتعديل... وهلمَّ جرّاً، فسترى أَنك تستطيع أَن تحضّر دروساً ومحاضرات، وتكتب بحوثاً في كل فن على حدة، خاصة أن هذه الفوائد قَلَّ ما تكون موجودة في كتاب مجموع، وأنت قد وجدتها في كتب متفرقة.

وأزيدك أيضاً فائدة تجعل العلم لا يتفرق من ذهنك، ويبقى ميسراً إذا أردت تذكُّره: فمثلاً إذا قرأت كتاباً في الرؤى والأحلام، ثم قرأت كتباً أخرى متنوعة، ومن هذه الكتب استخرجت فوائد تتعلق بالرؤى والأحلام؛ فاحرص كلّ الحرص على أن تُفْرِغ هذه الفوائد من جميع هذه الكتب بأرقام الصفحات فقط، على الغلاف الداخلي لكتاب الرؤى والأحلام، فتقول: انظر الاعتصام (١/ ١٢١) انظر إعلام الموقعين (٢/ ...) إلخ.

ولن تعرف قيمة هذا الحصر إلا إذا أردت أن تقرأ قراءة مستقلة في هذا الموضوع، فترى أنك جمعت متفرقات، وألّفت بين مختلفات في موضوع واحد، وإذا رتّب الكلام في الموضوع فترى أنّك أحطت بأوّله وآخره. وهذا الكلام مجرّب ومقروء ومشاهد، كذلك إذا سمعت فائدة خارجية فاحرص على أن تضيفها للكتاب، ومع كثرة الفوائد الخارجية يخرج لك كتاب آخر.

الأمر السادس: (الإنصات وعدم الانشغال):

يُرى في حلق العلم أن بعض طلبة العلم يشغل بعضهم نفسه، ويشغل بعضهم غيره، وهذا يخالف السمت الذي نقل إلينا عن سلفنا، ذكر الذهبي في

السير والتذكرة عن أحمد بن سنان أنَّه قال: كان عبدالرحمن ـ بن مهدي ـ لايُتَحدث في مجلسه، ولا يُبرى قلم، ولا يقوم أحد، كأنما على رؤوسهم الطير، أوكأنهم في الصلاة)[١].

وبلفظ آخر قال أحمد بن سنان: (كان لايتحدث في مجلس عبدالرحمن، ولا يبرى قلم، ولا يبتسم أحدٌ، ولا يقوم أحدٌ قائماً، كأنَّ على رؤوسهم الطير، أو كأنَّهم في الصلاة، فإذا رأى أحداً منهم تبسم أو تحدث، لبس نعله وخرج)[٢].

لأن المجلس مجلس تحفّه السكينة، وتغشاه الرحمة، وهذا التشاغل يشغل طلاّب العلم والمعلم، وهذا ينافي هيبة حلقة العلم.

الأمر السابع: (حضور ما يستطيع من حلقات العلم):

يتعلل بعض الناس بكثرة المشاغل، وتباعد المسافات، وضعف الهمة، وكل هذا حاصل، ولكن هذا يزول إذا تَذوّق العبدُ لذّة العلم، وشعر بنعمة الفائدة والاستزادة من العلم، ولقد ذكر بعضهم أن الإمام النووي رحمه الله تعالى كان يحضر في اليوم اثني عشر درساً، ويقول عن نفسه: (كنت أعلِّق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله تعالى في وقتي)[٣].

فإذا بارك الله في الوقت، ورزقك الله الهمَّة والعزيمة؛ حصَّلت خيراً كثيراً، لكن شريطة أَنْ يعلم الله من قلبك الصدق، وأنّك لا تسترخص حِلَق

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٣١.
(٢) السير ٩/ ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٣) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٠.

العلم ولا تتهاون فيها ولا تفرط، ولربّما يأتي دهر ـ إن طالت بك حياة ـ تندم وتعض أصابع الندم، ولقد ذكر الشيخ ابن جبرين أثابه الله أنَّ ثلّة من طلبة العلم عندما كانوا في زمن الطلب كانوا يتأسفون ويندمون على مشايخ أدركوهم؛ لكونهم لم يحضروا حلقهم.

وقد سبق أنَّ الخطيب البغدادي رحمه الله بوَّب بقوله: [ذكر مَن رحل إلى شيخ يبتغي علو إسناده، فمات قبل ظفر الطالب منه ببلوغ مراده](١).

ولقد أنعم الله علينا بوسائل كثيرة للطلب من كتب وأشرطة، ولكنها لا تغني عن حضور الحلقة، إذ إنَّ الاشتراك في الحلقة له أجر، فإذا حضرت في الحلقة فأنت في عبادة وتصلي عليك الملائكة، إضافة إلى أنَّ التركيز الذهني يكون في حضور الحلقات أبلغ مما لوسمعت في الشريط، وأنت تعلم أنَّ الرؤية أبلغ وأوقع في النفس من السماع، قال الشاعر:

ياابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما ... قد حدثوك فما راءٍ كمَن سَمِعا(٢)

وخير من قول الشاعر قول رسول الله ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»(٣).

فحضور الحلقة، ومزاحمة العلماء وطلبة العلم بالركب، والقرب من أهل العلم، يختلف اختلافاً عظيماً عن سماع كلام في الأشرطة أو ما شاكلها.

الأمر الثامن: (الحذر من اليأس):

ربما يحضر بعضنا عند شيخ مدّة طويلة، فيقول: شرح الشيخ كتاب

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص١٦٦.

(٢) انظر: معجم شواهد النحو الشعرية ص١٠٩ بيت رقم ١٦٣٣.

(٣) رواه أحمد والحاكم وغيرهما.

الربا، وشرح كتاب الحدود، وشرح كتاب النكاح والطلاق، ولم أفهم إلاَّ اليسير، صحيح، هذا يشترك فيه جمعٌ منا كثير، ولكن مع هذا كلّه، العلم كلما كرره الإنسان، وكلّما استرجع قراءته ومذكراته، زال الإشكال عنه؛ فالإمام أحمد رحمه الله ـ على جلالة قدره وفضله ـ يقول عن نفسه: (مكثت في كتاب الحيض تسع سنين حتى فهمته)[1].

فلا نضجر ولا نيأس؛ فقد أعطى الله الإنسان عقلاً وذكاءً، وهذا الذكاء ينمو ويزيد بالتعويد، فكلّما عوّد الإنسان نفسه طبعاً، اعتادت النفس عليه، ومن العجائب في عدم الضجر وعدم اليأس: ما ذكره الشيخ الشنقيطي رحمه الله عن نفسه، فقد ذكر في مقدمة تفسيره: أنَّ شيخه شرح مسألة من المسائل، ولم تتضح له، قال: (فلم تتضح لي المسألة، فرجعت إلى منزلي، وبحثت وما زلت أبحث، والخادم قائم على رأسي بالمصباح أو بالشمعة، ولا أزل أبحث وأشرب الشاهي الأخضر، حتى مر ثلاثة أرباع اليوم، إلى أن طلع فجر ذلك اليوم، قال: فزال عني الإشكال. واكتفيت عن حضور درس الشيخ في اليوم الآخر في مقابل ما حصَّلت من العلم).

فانظر: كيف قضى يومه في مسألة واحدة؟!

وأخبرني بعض الإخوة الذين يدرسون في أصول الدين: أنَّ بعض رجال الحديث قد يبحثون عنه ستة أيام أو سبعة أيام في كتب التراجم والأعلام!

فلا تحقرن جهداً آتاك الله إيّاه، واستعن بالله، ثم بما آتاك الله من قوة الذهن، واستعداد الجوارح للطلب والتحصيل والتعب.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٢٦٨.

ولقد أنفق غير واحد من أهل العلم عشرات، بل مئات الدراهم، في سبيل تحصيل باب من أبواب العلم استعصى عليه. فإذا قام أحدنا من حلقة، لم يفهم كتاباً أو مسألة، فليس من العيب أن يراجع الشيخ مرّة ومرات، وأن يراجع مَن حضر من الطلبة؛ فربّما يكون بعض الطلبة أو بعض الحاضرين فيهم مَنْ منَّ الله عليه بذكاء وفهم، فلا تستح - كما هو حال بعض المقصِّرين والملبَّس عليهم - أن تسأل قريناً لك، أو حتى من هو أصغر منك؛ فربما يكون أوعى منك وأذكى منك في احتواء المسألة، فسله ودع عنك الكِبر، ودع عنك الحياء المتصنَّع، يقول الإمام مجاهد رحمه الله: (لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر)[1].

ولربما يأتي الشيطان إلى بعضنا، ويرى أحد الإخوة أصغر منه قد فهم المسألة وهو لم يفهمها، فيعتريه كبر أو عُجب، فيمتنع أن يسأله ويستفيد منه؛ خشية أن يقال: إنَّ فلاناً سأل فلاناً! وهذا - ولا شك - من تلبيس إبليس.

الأمر التاسع: (عدم المقاطعة):

وهذا يعود إلى الأدب في الحلقات، ففي بعض الأحايين تبتلى بشخص من الحاضرين في الحلقة، يقاطع الشيخ، بل إنَّ بعضهم يرد على الشيخ رداً مستهجناً! ولاشك أنَّ هذا من سوء الأدب، والنبي ﷺ أدّبنا وعلمنا فقال: «**ليس منّا مَن لم يُجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»[2].

وإن مما نص عليه أهل العلم: ألاَّ تقاطع الشيخ في حديث حتى يفرغ من مسألته تلك، ولقد قال الإمام البخاري: (باب من سُئِلَ علماً وهو مشتغل

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم ١/ ٢٦ الفتح.
(٢) رواه أحمد والحاكم، ورواه الترمذي بلفظ مقارب، صحيح الجامع.

في حديثه فأتم الحديث) ثم ساق الحديث وفيه: أَنَّ أعرابياً قال ـ والنبي ﷺ يخطب ـ: متى الساعة؟ فمضى الرسول ﷺ في حديثه وأعرض عنه، حتى إذا قضى حديثه قال: «**أين أُراه السائل عن الساعة؟** . . .»(١) فدلّت هذه الجملة على أنه سمعه، لكنَّه أعرض عنه تأديباً وزجراً له.

الأمر العاشر: (الأدب في طرح السؤال على الشيخ):

نرى في بعض حلقات العلم ونسمع، أنَّ بعض الطلبة يسأل سؤالاً فيه تكلّف وتنطع واضح، والأدهى والأمرّ أن يكون الجواب معلوماً لديه، لكنه يسأل الشيخ من باب التعجيز، ومن باب الإفحام، ومن باب إظهار أنَّه يعلم، ثم تشعر أنَّ ذلك السائل يظهر الجواب للشيخ من طرف خفي، إذن فقد أساء الأدب في طرح السؤال، وأساء الأدب في قصده إعجاز الشيخ، وأيضاً أساء الأدب مع الله عز وجل في سوء نيّته.

وبعض الناس لا يقصد من طرح السؤال تعجيز الشيخ، بل قد يكون قصده حسناً، لكن أخلّ بأدب من آداب العلم، ولذا كان السلف يقرّعون من كان هذا طبعه، فقد ذكر الذهبي في السير: أنّ الإمام مالكاً رحمه الله تعالى كان في حلقة من حلقات العلم، فكان يدرِّس في أحد دروسه، ثم سئل عن مسألة فرضية، فأجاب بقول زيد رضي الله عنه، فقال إسماعيل ابن بنت السدي: ما قال فيها عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما؟ فأومأ إلى الحجبة، فلمّا همّوا بي عدوت وأعجزتهم. فقالوا: ما نصنع بكتبه ومحبرته؟ فقال: اطلبوه برفق. فجاؤوا إليَّ فجئت معهم، فقال مالك: من أين أنت؟ قلت: من الكوفة، قال: فأين خلَّفتَ الأدب؟! فقلت: إنّما ذاكرتك لأستفيد، فقال: إنَّ علياً وعبدالله لا يُنكَر فضلهما، وأهل بلدنا على قول زيد بن ثابت، وإذا كنت

---

(١) رواه البخاري ١/ ١٧١ الفتح.

بين قوم تبدؤهم بما لا يعرفون فيبدأك منهم ماتكره[١] .

وقد يقول قائل: ألا ينبغي أن نناقِش؟! فيقال: نعم، ولكن بأدب، وبخاصّة مع الشيخ؛ إذ أنَّ النقاش معه له أدب، يليق به .

وإنَّ من الجرم بمكان: أن تسأل سؤالاً أنت تعلم جوابه، تريد به إظهار نفسك وانتقاص غيرك، فهذا من المراء المحرم في العلم، خاصَّة إذا كان المراء مع مَن هو أعلم منك، ومع التنطع في السؤال .

ومن ذلك أيضاً: ماذكره الذهبي في السير: أنَّ شبطون ـ وهو من علماء الأندلس ـ كان في مجلسه، فأتت إليه ورقة، يسأل فيها أحدُ السلاطين عن كفتي الميزان: أهما من ذهب أو من فضة؟ فقلب شبطون رقعته وكتب عليها: قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[٢][٣] .

وكان السلف يوبِّخون ويقرّعون مَن يسأل عن سؤال لم يقع، فيقولون: (دعنا عن هذا حتى يقع، وسل عما وقع)[٤]؛ لأَن الأدب في السؤال من لوازم طالب العلم .

الأمر الحادي عشر: (الاكتساب من خُلُق الشيخ):

قد يقول قائل: هل أحضر درساً لشيخ لا أفهم من درسه إلاّ النزر القليل؟ فيقال له: احضر، فليست الغاية من الحضور الفائدة العلمية فحسب

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١٧٧ .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) سير أعلام النبلاء ٩/٣١٢ .
(٤) للفائدة: انظر: السير ١/٣٩٨، ٤٢٣، ٢/٤٣٨، ٩/٩٧، ٣١٢، ٣٣٠، ١٠/٣٣٣، ١١/١٧٧، تهذيب التهذيب ٨/٢٧٤، ٢٧٥، ٩/٣٨٨. وهذا محمول على ما فيه تكلُّف . والله أعلم .

بل هناك : النظر في خُلق الشيخ والتأسي به ، فقد ذكر الإمام السمعاني وغيره : أنَّ مجلس الإمام أحمد كان يحضره خمسة آلاف، قال الناقل : فكان خمسمائة يكتبون ، والباقي يستمدون من سمته وخلقه وأدبه[١] .

وقال أبو بكر المطوعي : (حضرت مجلس أبي عبدالله ـ وهو يُقرىء أبناءه المسند ـ اثنتي عشر سنة، ولم أكن أكتب، إنما أنظر إلى أدبه وخلقه)[٢] .

وهكذا فإنَّ الحضور للدرس ليس فقط لأَجل أن يحصّل الإنسان ما يقال من العلم ، أَو يعي مايقال ، بل لزاماً عليه أَن يستفيد من كل شيء ، حتى من بعض الحاضرين من طلبة العلم ، فربما يؤثر فيك خلقه .

ووالله إنِّي أَعرف شباباً صغار السن ، لكن الإنسان إذا زارهم أَو تباحث معهم ، يرى من الخلق والأدب والسمت ، ما يغبطهم عليهم .

وينبغي لطالب العلم أَن لا ينقطع عن زيارة العلماء ، فإِنَّ النفع عائد له ، بل هذا من أَخلاق طالب العلم مع أَشياخه فلهم المنَّة عليه ـ بعد الله عز وجل ـ في تعليمه .

بل حتى لو لم يكونوا أَشياخاً له ، فمن معرفة حق العلماء : أَن يُزاروا في صحتهم ، ويعادوا في مرضهم ، وتشيع جنائزهم .

ومتى ما أحس طالب العلم أَنَّ أَحد المشايخ قد يعتب عليه لعدم زيارته له ، فليسارع بوصله ، وليعترف بفضله ، وليقدم عذره ، وليعلم أنه إن انقطع عن زيارته ، فإِنَّ زوّار ذلك الشيخ فيهم مَن هو أَجلُّ قدراً منه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٣١٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣١٦.

جاء في ترجمة الحسين بن الفضل ـ أَحد الأَئمة ـ أَنَّه لمَّا كبر، وشاخ في السن، كان يُحمَل في محفة[1] فمر به طالب علم كبير ومعه جماعة، فرفع الحسين بن الفضل حاجبه، وقال: مَن هؤلاء؟ فقالوا: فلان ومعه جماعة، فقال: يا سبحان الله! بعد أن كان يزورنا في هذه الدار إسحاق بن راهويه ومحمد بن رافع، يمر بنا فلان فلا يسلِّم![2].

(القراءة) وأَذكر فيها عدة مسائل:

المسألة الأولى: (قراءة كتب الحث على طلب العلم):

إذا بدأ الإنسان وشرع في طلب العلم، فلابد له من أشياء تشحذ همته وتقوي عزيمته، وليس هناك ـ بعد توفيق الله ثم قراءة النصوص الشرعية في هذا الباب ـ أَفضل مما روي عن السلف الصالح من الآثار المروية عن النقلة الثقات.

فالقراءة في هذه الكتب تجعل همة الإنسان عالية، وفي الوقت نفسه تزيل عُجْبَ الإنسان بنفسه، فربما يعتري أَحدَنا عجبٌ إذا قرأ أو حفظ شيئاً من العلم، لكن إذا قرأ سير العلماء وقرأ كتب الطلب ورأى فيها نماذج لا يبلغ معشارهم، ذهب عجبه، وزال ما في نفسه، وسلك طريقاً قويماً في الطلب والتحصيل.

وسأذكر لك بعض المراجع والبحوث المتعلقة بفضل العلم وأدبه وطرق طلبه.. إلخ:

---

(١) المحفة: هودج لاقبة له.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٥ مع تصرف واختصار يسير.

١ ـ آداب طالب الحديث من الجامع للخطيب ـ الشيخ بكر أبوزيد .
٢ ـ آداب طالب العلم ـ محمد بن سعيد بن رسلان .
٣ ـ أخلاق العلماء ـ الآجرّي .
٤ ـ الأخلاق والسير في مداواة النفوس ـ ابن حزم ـ ص٢١ إلى ٢٥، ومن ص٩٢ إلى ٩٥ .
٥ ـ أدب الإملاء والاستملاء ـ السمعاني .
٦ ـ أدب الدنيا والدين ـ الماوردي ـ ص٤١ إلى ص٩٣، تحقيق مصطفى السقا .
٧ ـ أدب المجالسة وحمد اللسان ـ ابن عبدالبر .
٨ ـ تذكرة السامع والمتكلم ـ ابن جماعة .
٩ ـ التعالم ـ الشيخ بكر أبوزيد .
١٠ ـ تقييد العلم ـ الخطيب البغدادي .
١١ ـ تلبيس إبليس ـ ابن الجوزي، تقديم وتحقيق: محمود مهدي الاستانبولي ـ من ص١١٤ إلى ١١٨، ص٢٧٤، من ص٣٢٠ إلى ص٣٣٠ .
١٢ ـ جامع بيان العلم ـ ابن عبدالبر .
١٣ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ـ الخطيب البغدادي .
١٤ ـ جزء فيه تشحيذ الهمم إلى العلم ـ محمد الشيباني .
١٥ ـ الحث على طلب العلم والاجتهاد في تحصيله ـ أبو هلال العسكري .
١٦ ـ حلية طالب العلم ـ الشيخ بكر أبو زيد .
١٧ ـ الرحلة في طلب الحديث ـ الخطيب البغدادي .
١٨ ـ زغل العلم ـ الذهبي .
١٩ ـ شرف أصحاب الحديث ـ الخطيب البغدادي .
٢٠ ـ صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ـ أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي .

٢١ ـ طلب العلم وطبقات المتعلمين ـ الشوكاني .
٢٢ ـ عوائق الطلب ـ عبدالسلام آل عبدالكريم .
٢٣ ـ قيمة الزمن ـ عبدالفتاح أبو غدة .
٢٤ ـ مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر :
الأول : في ذم من لا يعمل بعلمه .
الثاني : في ذم قرين السوء .
٢٥ ـ مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب ـ مرعي بن يوسف الحنبلي .
٢٦ ـ معيد النعم ومبيد النقم ـ تاج الدين السبكي ـ ص٥٦ ـ ٨٠ .
٢٧ ـ مفتاح دار السعادة ـ ابن القيم ـ ص٤٨ ـ ١٨١ .
٢٨ ـ من أسباب تحصيل العلم ـ شيخنا ابن جارالله رحمه الله تعالى ـ الثمار اليانعة ص٣٧٣ .
٢٩ ـ نبذة من آداب المعلِّمين والمتعلمين ـ الشيخ ابن سعدي ـ الفتاوى السعدية ـ ص٦٢٣ إلى ٦٣٥ .
٣٠ ـ نصائح لطالب العلم ـ ابن الجوزي .
٣١ ـ نصيحة لطلبة العلم ـ شيخنا ابن باز ، نقلها شيخنا ابن جارالله رحمه الله تعالى ـ الثمار اليانعة ص١٦ .
٣٢ ـ الوصية الصغرى ـ شيخ الإسلام [ضمن مجموعة الرسائل الكبرى] ١/ ٢٢٩ .

المسألة الثانية : (قراءة تراجم بعض العلماء) :

أوصي الأخوة جميعاً بأن نأخذ من أوقاتنا فسحة ـ ولو يسيرة ـ لقراءة كتب التراجم ؛ لأنَّ فيها ترويحاً وتنفيساً ، وفيها منفعة علمية .

المسألة الثالثة : (تسجيل الفوائد على غلاف الكتاب من الداخل) وهذا

شيء مجرب وقد تقدم[١].

المسألة الرابعة: (جمع الفوائد إذا فرغ من قراءة عدة كتب) وقد سبق ذكره.

المسألة الخامسة: قراءة المواضيع والمناسبات الموسمية قبل أوقاتها):

وعلى سبيل المثال: عند استقبال شهر رمضان: فرِّغ نفسك قبل هذا الشهر بأسابيع لقراءة كتب الصيام، وأكثر سماع الأشرطة المتعلقة بالصيام، وحضور الدروس والندوات، مع التقييد لما سمعت.

وقل مثل هذا في النوازل كالكسوف، فإذا استعددت للموسم قبل دخوله تجد أن النفس متهيئة؛ لأنك عالم بكثير من أحكامه.

المسألة السادسة: (الحرص على شراء الكتب المفردة في المسائل الفقهية الخاصة):

مثل كتاب متعلق بالوتر وآخر متعلق بالاعتكاف.. إلخ.

فمثل هذا الكتاب ـ ولو كان صغيراً ـ فإنه لو لم يكن من فوائده إلا أنه ذكر المراجع والمصادر بأجزائها وصفحاتها لكفى، وقد جمع لك أطراف المسألة.

المسألة السابعة: (محاولة فهم الكتاب ولو استدعى ذلك إعادة قراءته مرة أو مرتين):

فإذا قرأ أحدنا في كتاب فلا يكتفي بأن يفهم صفحة أو صفحتين، بل

---

(١) ص٥٩ ـ ٦١.

يحاول أن يفهم جميع ما قرأه ويستوعبه، ولا يضجر من إعادة الكتاب مرّة أخرى: فالمزني رحمه الله قرأ كتاب: «الرسالة» للشافعي خمسين مرة[١].

المسألة الثامنة: (اختيار أوقات القراءة):

والناس في هذا متفاوتون، وعلى كل حال: اجعل لنفسك وقتاً تكون متهيئاً فيه للقراءة.

المسألة التاسعة: (إذا اشترى أحدنا كتاباً ـ وخاصة من المجلدات ـ فعليه أن يتصفّحه):

ففي بعض الكتب بياض، وفي بعض الأحايين يكون ما على ظهر الكتاب مغايراً لما بداخله، فقد يكون رقم المجلَّد على غلاف الكتاب مخالفاً لرقمه في الداخل.

والآن أذكر لك قضيتين مهمتين في طلبك للعلم:

---

(١) انظر مقدمة محقق (الرسالة) للشافعي ص٤.

قضيتان مهمتان لطالب العلم

القضية الأولى: (الأولويات في الطلب):

لا شك أن همة طالب العلم مطلوبة، لكنَّها قد يعتريها خور ونقص، بل قد تموت إذا سار صاحبها في مسار غير صحيح، فإذا عرف الطريق لها وعرف كيف يقودها، فإنَّه سيحصد ثماراً كثيرة، وبعض الطلبة يخطىء فيحمِّل نفسه ما لا تطيق، فيحاول أن يصل إلى نتيجة كبيرة في مدة قصيرة، فإذا لم تتحقق تكون لديه آثار عكسية في مسار طلبه للعلم.

ولقد وضع سلفنا معالم في أول هذا الطريق، مَن سار في ضوئها أفلح، وأمّا من استعجل الشيء قبل أوانه فإنّه قد يعاقب بحرمانه، فكم من طالب علم كان يُرى في حلقات يزاحم طلّاب العلم، فما هي إلا مدة قصيرة حتى بدأ في التغير، ثم انقطع بالكلية؛ والسبب أنه سار في طريق لا يستطيع أن يقطعه إلاّ بأمور مازال يفتقدها. وإليك بعض الأمثلة التي تبين لك هذا:

قال أبو جعفر: (دخلت على أبي عبدالله فقلت: أتوضأ بماء النورة؟ فقال: ما أحبّ ذلك. قلت: أتوضأ بماء الباقلاء؟ قال: ما أحبّ ذلك. قلت: أتوضأ بماء الورد؟ قال: ما أحب ذلك. فقمتُ، فتعلق بثوبي ثم قال: إيش تقول إذا دخلت المسجد؟ فسكتُّ، فقال: وإيش تقول إذا خرجت من المسجد؟ فسكتُّ، فقال: اذهب فتعلم هذا)(١).

فهذا الرجل بدأ طريقه بالسؤال عن مسائل قد تكون نادرة، وترك ما هو

---

(١) الطبقات ١/ ٤١، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٤.

أهم وأولى.

وكذلك جاء رجل (وكان نبيلاً كبير اللحية) إلى مجلس الأَعمش فسأله عن مسألة خفيفة في الصلاة، قال الراوي: فالتفت إلينا الأعمش فقال: (انظروا إليه، لحيتُه تتحمل حفظ أربعة آلاف حديث ومسألته مسألته صبيان الكُتَّاب!)[١].

فهذا الرجل أَوغل في أمر وترك ما هو أهم من ذلك الأمر، وهذا مما يعاب به طلاب العلم.

دخل ابن جريج إلى مجلس عطاء بن السائب في أول طلبه للعلم، وكان في المجلس أبو عمير، أحد الأئمة، فقال: (قرأتَ القرآن؟ قلتُ: لا. قال: فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم، فذهبتُ فغبرت زماناً حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاء وعنده عبدالله، فقال: قرأتَ الفريضة؟ قلت: لا. قال: فتعلم الفريضة ثم اطلب العلم، فطلبت الفريضة، ثم جئت، فقال: الآن فاطلب العلم. فلزمت عطاء سبع عشرة سنة)[٢].

فدلَّه على هذه الأشياء الأولوية قبل الطلب.

وجاء الإمام ابن وهب إلى مالك بن أنس فقال: (ما تقول في طلب العلم؟ قال: حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه)[٣].

ولذا فإنَّ بعض طلاّب العلم إذا ذكّرته بأمور؛ يرى أنّك تستصغره وأنّك

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٧.

تحقِّر من شأنه، ولاشك أنَّ هذا مدخل للشيطان، أليس من العيب على بعض طلبة العلم أنَّهم يجهلون أموراً تمرّ عليهم في اليوم والليلة خمس مرات؟!

وهذه كتيبات أوصى بها من بدأ في طلب العلم:

١ ـ «زاد المسلم اليومي»: (للشيخ عبدالله بن جارالله) لما للذكر من فعل في النفس.

٢ ـ «الأربعون النووية»: وهذا الكتاب جمع فيه مؤلفه اثنين وأربعين حديثاً، وهي أحاديث تتعلق بالعقائد والعبادات، وهي أحاديث صحيحة وحسنة.

٣ ـ «كتاب التوحيد» بحاشية الشيخ ابن قاسم رحمه الله، وهذا الكتاب مخدوم ـ ولله الحمد ـ خدمات كثيرة، فالشروح والتعليقات عليه كثيرة، لكن هذه الحاشية للشيخ ابن قاسم رحمه الله لعلها من أحسن الحواشي على الكتاب، وخاصة أن الشيخ ابن قاسم سلك فيها مسلك الاختصار غير المخل، وضمّنها نقولات وفوائد نفيسة.

وعلى هذا الكتاب «كتاب التوحيد» كتاب لشيخي عبدالله بن جارالله رحمه الله اسمه: «الجامع الفريد» وهذا الكتاب مِيْزَتُهُ أنَّهُ بطريقة السؤال والجواب، وبعض طلاب العلم ـ بل ثُلّة كبيرة من طلاب العلم ـ يسهل عليهم قراءة السؤال والجواب بخلاف القراءة المنثورة؛ لأن بعض الناس قد لايستوعبها، وأما إذا قرأ سؤالاً ثم جوابه ثم أعاد الكَرّة مرتين أو ثلاثاً، فإنَّ ـ ذلك بإذن الله ـ كفيل بأن يرسِّخ تلك المعلومات في ذهنه.

٤ ـ كتاب «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، بشرح الشيخ صالح الفوزان حفظه الله، فشرح الشيخ، مع أنه مختصر، لكنه احتوى فوائد كثيرة، ويمتاز بسهولة الألفاظ التي ذكرها حفظه الله، والكتاب مطبوع

ومتداول، ولله الحمد والمنّة.

٥، ٦ ـ كتاب «صفة صلاة النبي ﷺ» للشيخين الإمامين سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله، وفضيلة الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله.

وكتاب «صفة وضوء النبي ﷺ»(١): جمع فيه مؤلفه صفة الوضوء النبوي من كتب السنّة المتفرقة، ثم ساقها بأسلوب مرتَّب، بحيث يسهل على طالب العلم إذا قرأها أن يطبقها عمليّاً، والكتاب في الجملة مفيد جداً، وذكرت هذا الكتاب؛ لأنه يُرى من بعض الناس وضوءٌ يتنافى مع السنَّة في أشياء كثيرة. ومن الطرائف: ما ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب أن ابن حجر ذكر: أنَّ أحد أهل العلم كان يسمى: شيخ المطاهر، وقد نذر نفسه أن يقف على أماكن الوضوء ويراقب الناس يتوضؤون ثم يصوّب هذا ويخطّىء هذا ويقوّم هذا، حتى سمّي: شيخ المطاهر(٢).

٧ ـ كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي، وهذا الكتاب لا يعرفه بعض الناس إلاَّ عقب صلاة العصر من قراءة بعض الأئمة، والحقيقة أنَّ هذا الكتاب قد جمع خيراً عظيماً خاصة إذا قرأ الإنسان شرحه، وللكتاب شروح، منها شرح مطوّل «دليل الفالحين» ومؤلفه ابن علان، وشرح آخر لبعض المعاصرين اسمه «نزهة المتقين» وهذا الشرح مختصر ومناسب للمبتدىء في الطلب. ثم خرج أخيراً شرح للشيخ ابن عثيمين أثابه الله على رياض الصالحين، وقد حوى خيراً كثيراً، بالإضافة إلى سهولة الأسلوب.

وعلى كل حال: فإنَّ كتاب «رياض الصالحين» لو قرأتَ فهرسه قبل النظر في المضمون وتتبعته باباً باباً، لرأيت العجب العجاب، وأنا أجزم أنَّ

(١) رسالة جمعها فهد الشويب جزاه الله تعالى خيراً.
(٢) وهو الشيخ محمد بن إبراهيم الصفدي، شذرات الذهب ٦/ ٣٥٧.

هذا الكتاب لا يخلو منه بيت أحد منّا ـ إلاّ ما شاء الله ـ لكن يا ترى هل قرأنا؟! هذا هو المقصود.

وبكل حال: فلو رتب الواحد منا لنفسه وقتاً كل يوم يقرأ فيه باباً من أبواب هذا الكتاب، فسيشعر أنَّه خرج بخير عظيم، لكن المصيبة أننا نزهد في كتب ثم نحرص على كتب قد تكون الفائدة فيها لا تبلغ عشر معشار ما في الكتب الجامعة، والتي منها هذا الكتاب «رياض الصالحين» الذي جمع كثيراً من أبواب الدين ثم صدَّر كل باب بما ورد ـ أو بكثير مما ورد ـ من الآيات، ثم بما جاء عن النبي ﷺ. والكتاب خرج أحاديثه الشيخ الألباني ـ وحققه جماعة من العلماء ـ وقد ذكر ما لا يثبت من الأحاديث حسب اجتهاده ـ حفظه الله ـ.

٨ ـ بعد ذلك كتاب في المصطلح دَرَسْتُه في المعهد العلمي وهو كتاب «مصطلح الحديث» كتبه الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين حفظه الله بأسلوب مختصر، وبعضنا يحقِّر مقررات الدراسة ويزهِّد الناس فيها. وهذا لا يخلو من أحد أمرين: إمّا كسل أو جهل؛ لأن هذه المقررات ليست من التوراة ولا من الإنجيل المحرّفين، بل قواعدهما في الجملة مأخوذة من القرآن والسنَّة، ومَن درس في الكليّات الشرعية يتذكّر أننا درسنا فيها مواد علمية ومواضيع علمية، يأسف الإنسان على عدم مراجعته لها.

وإذا تصفح الإنسان المذكرات التي كتبها رأى عجباً؛ نظراً لزُهدِنا في أيام الدراسة، ولذلك يقول بعض الناس: إنَّ حلقات العلم هي الدراسة الحقيقية. وهذا صحيح لا إشكال فيه، لكن كان الطلاب يذهبون صباح كل يوم إلاَّ الخميس والجمعة إلى المعاهد والمدارس والكليات، للطلب ولسماع العلم فيما يقرب من ست ساعات يومياً، فأين ذهب ذلك العلم؟ وأين بركته؟ لقد نزعت من الصدور إلاَّ من رحم الله.

عوداً على ماسبق، هذا الكتاب في مصطلح الحديث المقرر على طلاب الثاني الثانوي بالمعاهد العلمية، كتاب جامع يفهمه المبتدىء، نظراً لسهولة أسلوب الشيخ حيث تعمَّد أن ينزل إلى مستوىً يناسب طالب العلم المبتدىء.

وإذا أضفت إليه منظومة «البيقونية» فحسن؛ لأَن الشعر عند كثير من الناس أهون في الحفظ من النثر؛ لأنَّ الشعر مُقَفًّى وموزون وعلى بحر واحد، والرجز كذلك فإنَّه يسهل على طالب العلم أن يحفظه.

ومنظومة «البيقونية» مشروحة بعدة شروح، ولكن إذا حفظها طالب العلم ثم قرأ كتاب الشيخ ابن عثيمين؛ وضّح له مسائل كثيرة من مسائل المصطلح.

٩ ـ كتاب «الأصول من علم الأصول» وهو في أصول الفقه ومقرر في المعاهد العلمية على طلاب السنة الثالثة في المرحلة الثانوية، كتبه أَيضاً الشيخ ابن عثيمين، وهذا الكتاب أيضاً نزل فيه الشيخ إلى أسهل أسلوب، بحيث يسهل على كل مَن قرأ أن يعي ما ذكره الشيخ.

١٠ ـ كتب الفتاوى وأعني بها الفتاوى للمشايخ: سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ ابن جبرين، والشيخ ابن فوزان، حفظهم الله.

ولا أقول هذا من باب التخصيص، وإنّما ذكرت هؤلاء الأربعة دون غيرهم؛ لأنَّ فتاواهم من أحسن ما يبتدىء به طالب العلم، وإذا أردت ترسيخ هذه الفتاوى في ذهنك: فاقرأ السؤال، ثم انتظر ولا تقرأ الجواب حتى تستحضر ما علمك الله، واحرص على أن تأتي بالجواب مما عندك من العلم، ولو أخطأت فلا إثم عليك؛ لأنَّك لست في مقام الفتيا، فبهذه الطريقة تكون

متشوّقاً لمعرفة الجواب، وقد أوصيت بعض الأحبة لما أرادوا الطلب وتحصيل بعض العلم بقراءة الفتاوى بهذه الطريقة، فأخذوا كتاب الفتاوى لسماحة الشيخ ابن باز رحمه الله الذي طبعته مؤسسة الدعوة، فكان أحدهم يقرأ السؤال، ثم كل واحد منهم يجيب بحسب ما عنده من العلم، ولا يأثم أحد ـ إن شاء الله ـ لأنَّ المقام ليس مقام فتيا، لكنَّه من باب طرح المسألة لاستخراج ما عندهم، فإذا أجاب كلٌّ بما عنده، قرأ صاحب السؤال الجواب بعد أن تكون النفوس مستعدّة لاستقبال هذا الجواب، فإذا سمعه طالب العلم زاد رسوخ الجواب في ذهنه.

وهذه الفتاوى فهمها متيسّر؛ لأننا نعيش في مجتمع واحد، ونعيش بين أناس إشكالاتهم تكاد تكون متساوية، فالعجب أنّك تجد السؤال يتكرر علينا عشرات المرات؛ نظراً لكثرة سؤال الناس عنه ولعموم البلوى به، ومع ذلك يتخبط أكثرنا في الجواب عنه.

فاحرص على قراءة هذه الفتاوى خصوصاً إذا كانت مصحوبة بالدليل، حتى تزيل الجهل عن نفسك.

فهذه بعض الكتب المهمة فاحرص على اقتنائها وقراءتها، كما بيّنت لك سابقاً.

القضية الثانية: (أمثلة لشحذ الهمّة):

وأذكرها؛ لأنّها تعين على ترك اليأس والقنوط، وعلى عدم احتقار الذات؛ لأنَّ بعض الناس يقنِّط نفسه ويثبطها، ويجعل لليأس طريقاً ومسلكاً إلى نفسه، وقد سبق ذكر هذا، فعلى الإنسان أن يكثر من قراءة سيرة السلف؛ ففيها خير عظيم؛ لتعرف قدر نفسك واهتمامك وحرصك، ولا تحقرن شيئاً؟ فقد أعطاك الله عقلاً وجوارح تعينك على مقصدك.

فكنْ رجلاً رِجلُه في الثرى   وهـــامَةُ همّته في الثُريّـــا

فلا تحقرن من المعروف شيئاً؛ فإنَّ بعض الناس تشحذ همَّتهم كلمة واحدة وتفعل في نفوسهم الأَفاعيل، وأذكر لك أمثلة ثلاثة على تأثير الكلمة الواحدة:

١ ـ «كتاب البخاري: الصحيح» أصح كتاب في الإسلام بعد القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي إذاخَرَّجَ لأَحد من الرواة روايةً فيه فقد جاوز القنطرة، وإذا قيل: رواه البخاري؛ يقع في النفس هيبة له، ما سبب تأليفه؟ إنَّها كلمة واحدة في مجلس واحد، وقعت في آذان البخاري، فيسر الله له تأليف هذا الكتاب الذي رفع منزلة البخاري في طبقة عالية، فلقد ذُكر لتأليفه الصحيح ثلاثة أسباب، أَشهرها: أنَّه كان في حلقة إسحاق بن راهويه فقال: (لو أنَّ أحدكم يجمع كتاباً فيما صح من سنّة الرسول ﷺ) جملة واحدة!! قالها إسحاق، فوقع ذلك في نفس البخاري فصنف هذا الكتاب العظيم الذي أصبح أصح كتب السنة على الإطلاق[١].

٢ ـ «الإمام الذهبي»:

هذا الإمام الفحل، الذي يقول عنه السُّبكي: (أما أستاذنا أبو عبدالله فبصرٌ لا نظير له، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة، إمام الوجود حفظاً، وذهب العصر معنىً ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها)[٢].

---

(١) هدي الساري ص٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ١/١٦٩ من المقدمة.

سبب طلبه لعلم الحديث كلمة واحدة، يقول هو بنفسه عن الإمام البرزالي: إنَّه لمّا رأى خطّه، قال له: (إنّ خطك هذا يشبه خط المحدثين) قال: (فحبب الله إليّ علم الحديث)(١).

فانظر ماذا فعلَتْ هذه الجملة في الإمام الذهبي؟! فقد صار من أئمة الحديث وحفّاظه ونقّاده.

٣ ـ ما ذكره محمد بن نصر في «مختصر قيام الليل» قال: (وكان صلة بن أشيم يخرج إلى الجبان يتعبَّد، فكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم: أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فجاروا النهار عن الطريق وناموا الليل، متى يقطعون سفرهم؟! فكان كذلك... يمر بهم فيقول لهم، فمر بهم ذات يوم، فقال لهم هذه المقالة، فانتبه شابّ منهم فقال: يا قوم إنّه والله ما يعني غيرنا، نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام، ثم اتبع صلة فلم يزل يختلف معه إلى الجبان فيتعبد معه حتى مات)(٢).

إذن لا تحقرنّ من المعروف شيئاً؛ فربّما تقرأ كتاباً صغيراً، أو تحضر مجلس علم لطالب علم صغير، فتسمع كلمة تحدث في نفسك أَمراً لا تعلم مداه، فتحصِّل خيراً كثيراً من العلم.

ثم أذكر لك شيئاً من الأَمثلة على همّة بعض العلماء؛ علّها أن تشحذ هممنا وتزكّي نفوسنا:

١ ـ «شيخ الإسلام ابن تيمية»:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٣٦.
(٢) مختصر قيام الليل ص٣٧.

كلّنا يعرفه، فقد ذُكِر عنه رحمه الله من قوة همّته: أنّه كان إذا أعيته مسألة مّا، لم يقر له قرار حتى يجد بغيته، وذكر عن نفسه في آخر «تفسير سورة النور» قال: (إنَّ جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس من الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار، وأكثر من مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة، أنّه تأول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف)(١).

٢ ـ «الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري»: هذا الرجل عجيب أمره، لو قُسِّمَتْ الأوراق التي كتبها على عمره منذ أن خُلِقَ، لأصبح مقدار ما يكتبه كل يوم ستين ورقة أو أكثر! وهذا عجيب. ولقد أشار على تلاميذه أن يكتبوا تاريخ الإسلام أو تفسير القرآن، فأمر بإحضار ثلاثين ألف ورقة! فقالوا: (هذه مدة تنقطع دونها رقاب المطيّ) فقال لهم معاتباً: (الله أكبر! ماتت الهمم، أحضروا ثلاثة آلاف ورقة!!)(٢).

٣ ـ «الإمام النووي»: وأمره عجيب أيضاً، فقد كان عمره عند موته قرابة خمس وأربعين سنة، وله في المكتبات ما يقارب عشرين مجلداً وأكثر، ومع هذا، كان يحضر في اليوم اثني عشر درساً، وله شرح على صحيح

---

(١) تفسير سورة النور ص٢١٠.
(٢) تذكرة الحفاظ ٢/٧١٢.

مسلم، وله تهذيب الأسماء واللغات، وروضة الطالبين، والمجموع، ولعله يعد عند الشافعية كالمغني عند الحنابلة، فضلاً عن الرسائل الصغيرة ورياض الصالحين والأذكار والأربعين وغيرها.

وعلى ذكر كتاب «المجموع» فإنّه يكثر عزو بعض أهل العلم المعاصرين إليه؛ لأنّه كتاب فقه مقارن مشهور ومتداول، ويقولون: قال الإمام النووي كذا، ويظنون أنّ هذا الكتاب كلّه من تصنيف الإمام النووي! والصحيح: أنّه تعاقب عليه ثلاثة، النووي ثم خلفه السبكي ثم خلفه المطيعي، فالنووي شرح كتاب (المهذب) للشيرازي من أوله إلى أول باب الربا من كتاب البيوع، آخر المجلد التاسع، والسبكي من باب الربا إلى باب الرد بالعيب من كتاب البيوع، آخر المجلد الحادي عشر، وأتمه المطيعي من باب بيع المرابحة إلى آخر الكتاب من المجلد ١٢ ـ ٢٣.

فإذا أردنا أن نعزو كلاماً في هذا الكتاب فيجب أن نعرف هذه الأقسام الثلاثة، حتى نعزو كل كلام لصاحبه.

٤ ـ «الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني»: صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري، وقد كان شرح البخاري ديناً على الأمة حتى وفىٰ به الحافظ، قال ابن خلدون: (إنّ شرح البخاري إلى الآن دَين على هذه الأمة)، قال أبو الخير السخاوي: (لو أنَّ ابن خلدون رأى شرح البخاري لابن حجر لقرَّت عينه ولَعَلِمَ أنَّ الدَّين قد وُفِّي حق الوفاء)[1]. هذا الإمام كُتُبُهُ بالعشرات، ومع هذا كلّه كان متفرغاً للتدريس والفتاوى وللخطابة، وكانت همته عالية حتى إنه ذكر عن نفسه أنّه تتبع طرق حديث «إنّما الأعمال

---

(١) سيرة الإمام البخاري ص١٢٣.

بالنيات»[١] في أكثر من مائة جزء، كما ذُكر عنه: أنَّه قرأ «معجم الطبراني الصغير» في جلسة ما بين الظهر والعصر! إنها همّة شحذها وعود نفسه عليها فنفعته ـ بعد توفيق الله تعالى ـ بقية دهره.

٥ ـ «الإمام الجليل محمد بن شهاب الزهري» ـ نسبة إلى بني زُهْرة من قريش ـ: يقول الحافظ ابن حجر في التقريب: (متفق على جلالته وإتقانه) وقال الشيخ مقبل الوادعي: (أصاب ابن حجر وأحسن في اختيار هذه العبارة: متفق على جلالته وإتقانه؛ لأنَّ الحافظ بهذا طرح جميع الأقوال الشاذة والضعيفة التي تشير إلى قدح في الزهري رحمه الله).

هذا الإمام ـ الزهري ـ يقولون عنه: كان يأتي إلى العجائز والأشياخ، والصبيان وذوات الخدور، والصغير والكبير، فيسألهم ويباحثهم، حتى حوى علماً عظيماً[٢].

٦ ـ «أبو العلاء الحسن بن أحمد»:

قال أبو الفضل بن نبهان الأديب: (رأيت الحافظ أبا العلاء في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم على رجليه؛ لأنَّ السراج كانت عالية)[٣]. وهذه همَّة عجيبة جعلت صاحبها من مشاهير علماء الإسلام، وما أتى له هذا العلم بالتمني والتحلي، ولكن بشيء وقر في القلب وصدّقه اللسان والجوارح.

٧ ـ «الأنماطي» محدِّث بغداد: من همّته رحمه الله: أنَّه كان ينسخ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) بستان العارفين للنووي ١١٤ ـ ١١٥.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة ١/٣٢٦.

كتب العلم الكبار، فنسخ كتاب «الطبقات» لابن سعد، ونسخ كتاب «تاريخ بغداد»[١] ولو جمعنا أجزاء هذين الكتابين لتثاقل ـ أو لعجز ـ كثير منّا عن حملها، فكيف بمن كتبها ورتبها وهذّبها؟

٨ ـ «الإمام المزني» من همّته رحمه الله: أنّه قرأ كتاب الرسالة، في أصول الفقه للشافعي، خمسين مرة[٢].

٩ ـ «عبدالله بن محمد، فقيه العراق»: طالع كتاب «المغني» ثلاثاً وعشرين مرة[٣].

١٠ ـ «الحر بن عبدالرحمن» قال: طلبت إعراب القرآن خمساً وأربعين سنة، أو أربعين سنة[٤].

فهؤلاء رجال همتهم كالجبال، لا تثنيهم شهواتهم، ولا تثنيهم فُرش ولا طلب الدَّعَة والراحة، ولكن كما قيل: من المِحْبَرة إلى المقْبَرة.

١١ ـ «إبراهيم الحربي» قال أبو العباس ثعلب: ما فقدتُه في مجلس نحوٍ ولا لغة نحواً من خمسين سنة. خمسون سنة وإبراهيم الحربي يتردد على حلقات العلم، حتى بلغ في العلم والمنزلة أنْ شبهه بعض أصحابه بالإمام أحمد رحمه الله[٥].

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٨٣.
(٢) انظر مقدمة محقق (الرسالة) للشافعي ص٤.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤١١.
(٤) التاريخ الكبير ٣/ ٨٢.
(٥) طبقات الحنابلة ١/ ٨٩.

١٢ ـ «محمد بن أحمد بن قدامة»: كَتَبَ بخطه أشياء كثيرة: فكتب تفسير البغوي، والمغني، وحلية أبي نعيم، والإبانة لابن بطّة، والخرقي، وكتب مصاحف كثيرة[١].

١٣ ـ «إبراهيم الجوهري» يقول الجوهري: كل حديث لا يكون عندي من مائة وجه فأنا فيه يتيم[٢]. فهو يرحل لأجل الطلب والتتبع والاستقراء والسبر حتى يجمع أكبر قدر من الطرق.

١٤ ـ «أبو الحصين الأسدي»: كان يبذل نفسه للتعليم، فقد جلس خمسين سنة في مسجد واحد يُعلِّم الناس ويُفَقِّههم في دين الله[٣]، ولم تفتر له عزيمة، ولم تُكسر له قَناة. وليس هذا بغريب، فإذا اجتمع صدقُ النيّة وبَذْلُ السبب؛ يسّر الله ما كان عسيراً، وقرَّب ما كان بعيداً.

١٥ ـ «خلف بن هشام» قال حمدان بن هانيء المقرى: سمعته يقول: (أشكل عليَّ باب من النحو، فأنفقت فيه ثمانية آلاف درهم حتى حذَقته)[٤].

ولم يتهاون به؛ لأنّه عِلمٌ، فلهذا لا تتهاون بمسألة مرت عليك دون أن تحاول فهمها، ولو لم يكن من ذلك إلاّ أن تُعوِّد نفسك الحرص والبحث عمّا لم تفهمه لكفى، وقد يأتيك همّ وغمّ إذا مرت عليك مسألة أو مر عليك بحث لم تفهمه، فهذا الهمّ الذي فيك بحد ذاته نعمة؛ لأنّه يدلّ إن شاء الله على حُرْقةٍ

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٥٣.
(٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٥١٦.
(٣) تهذيب التهذيب ٧/ ١٢٧.
(٤) معرفة القراء الكبار ١/ ١٧٢، وفي سير أعلام النبلاء ١/ ٥٧٨: ثمانية ألف درهم.

من عدم تحصيل هذه المسألة.

١٦ ـ «أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي»: ذكر الذهبي في كتاب «معرفة القراء الكبار»: أنّه ألّف كتاب «الفنون» وقد بلغ أربعمائة وسبعين مجلداً[(١)]!

وهذا ليس مستحيلاً؛ لأنّه كان يكتب في هذا الكتاب ما يعلق بذهنه من الشوارد والفرائد والفوائد، مما يحضر أو مما يقرأ أو مما يسمع من الدروس والتعليقات.

١٧ ـ «زيد بن الحسن الكندي»: ذكر الذهبي أنّه قرأ بالقراءات العشر وعمره عشر سنين! قال الذهبي: (وما علمت هذا وقع لأحد أصلاً)[(٢)].

وأنا قد رأيت بعض الشبيبة يقرؤون بعض الآيات بأكثر من قراءة بعد أن قرأوا القرآن بقراءة حفص عن عاصم، القراءة التي نقرأ بها هنا، وهذا ليس بعجيب، وليس بعزيز، فلا تحقرن نفسك، واستعن بالله ولا تعجز.

والمصيبة: أنّ بعضنا هو الذي يثبط نفسه، وهذه الأمثلة أسوقها حتى تكون سبباً في شحذ الهمم، والإنسان إذا ما قرأ مثل هذه الأمثلة علمَ أنّه بشر يستطيع أن يحصِّل كما حصّلوا، بل ربّما أكثر ممّا حصّلوا.

١٨ ـ «قالون»: هذا الرجل بلغ حفظه للقرآن مبلغاً عظيماً (وكان له حَلقة فيُقرأ عليه) فمِن ذلك ما قال عليّ بن الحسن الهِسِنْجاني:

(كان شديد الصَّمَم فكان ينظر إلى شفتي القارىء ويرد!)[(٣)] وهكذا ذكر النقلة.

---

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ٣٨٠.
(٢) معرفة القراء الكبار ٢/ ٤٦٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٢٧، معرفة القراء الكبار ١/ ١٢٩.

١٩ ـ «عمرو بن ميمون» قال الذهبي: (وكان يقول: لو علمت أنّه بقي عليّ حرف من السنّة باليمن لأتيتها. قلت: [أي: الذهبي] هذه الدعوى تدل على سعة علمه)[١].

٢٠ ـ «سعيد بن عبدالعزيز» قال: (كنت أجلس بالغدوات إلى ابن أبي مالك، وأجالس بعد الظهر إسماعيل بن عبيدالله، وبعد العصر مكحولاً)[٢].

فكل وقته مشغول بالطلب والتحصيل.

وقد ترد شبهة وهي: أنّ أوقاتنا مشغولة بأمور لابد منها، ولكن سبق أنْ ذكرتُ لك ـ يا رعاك الله ـ أنّك لو فتشت الساعات التي لا تُشغَلُ فيها في يومك فسترى أنّ هناك وقتاً لو استغللته بالطلب والتحصيل ـ بل والله لو استغللت نصفه، والنصف كثير ـ لرأيت أنّك تحصِّل علماً كثيراً في وقت قليل، والموفَّق من وفقه الله.

٢١ ـ «نعيم المجمر»: جالس الصحابي الجليل أبا هريرة رضي الله عنه عشرين سنة متوالية، فأصبح من أخص تلاميذه[٣].

٢٢ ـ «عبدالله بن نافع»: جالس الإمام مالكاً خمساً وثلاثين سنة[٤]. وإذا أردت أن تعرف حصيلة هذه المجالسة فاقرأ ترجمته.

٢٣ ـ «الإمام إسماعيل الجرجاني»: كان يكتب كل ليلة تسعين ورقة

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٤٦، تهذيب التهذيب ٨/ ١٠٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٢٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٨.

بخط دقيق[١]. أي: أنّه كان متأنياً في الكتابة، قال الذهبي: (هذا يمكنه أن يكتب صحيح مسلم في أسبوع).

أخي طالب العلم: لقد تيسرت لنا وسائل وأمكنة وأزمنة وصحة وعافية قد حُرِمها قبلَنا كثير، وحرمها الآن أيضاً كثير من الناس، فلا تفرّط فربّما ترى بعد حين بعض أقرانك الذين أنت معهم، قد بلغوا منزلة رفيعة في العلم، وأنت لا تزال في أول الطلب، وهذا يعود ـ بعد الإخلاص لله ـ إلى الهمّة والعزيمة. ولقد أخبرني أحد الإخوة بشيء من هذا فقال ـ بما معناه ـ: كنت أعرف فلاناً وفلاناً، صِبْيَةً صغاراً يلعبون الكرة في الشوارع، فكنت أنهاهم عن اللعب وقت الصلاة، يقول: حتى رأيتهم بعدُ من طلبة العلم وممن حووا علماً كثيراً، حتى إنّ بعضهم إذا أظلنا سقف واحد فألقى كلمة، أكون عنده كالعاميّ وكالجاهل، مع أنّي أكبر منه سنّاً وأقدم منه التزاماً في هذا الطريق!

لا يقول هذا من باب الحسد، ولكن من باب الغبطة.

وبكل حال: ما أحسن ما روي عن الإمام مالك رحمه الله تعالى: بأنّ العلم لا يأتي بالوراثة ولا بالنسب ولا بالحسب، ولكنّه منح إلهية وعطايا ربانية، يتفضل الله بها على من شاء من عباده. أو كما ورد عنه رحمه الله تعالى.

فحذارِ حذارِ من احتقارالذات، وحذارِ حذارِ من دخول الضعف والخور إلى النفوس، اللهَ الله في الإخلاص والتشمير عن ساعد الجد لاستغلال ما نستطيع من الثواني والدقائق في التحصيل، سواءٌ سماعاً أو قراءةً أو حضوراً، وأنت تستطيع ـ ولله الحمد ـ أن تُسخِّر نفسك في طلب العلم،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٤.

فهذه الوسائل متوفِّرة: فالحلقات كثيرة، والكتب كثيرة، والأَشرطة السمعية كثيرة، والبلاد التي تضم لفيفاً من طلاب العلم والمشايخ فتحوا صدورهم قبل بيوتهم. فلا تفرط في هذه الأمور، واستغل ماتستطيع، وسترى أنّك تزداد علماً بفضل الله تعالى.

طالب العلم والحسد

الحسد في طلب العلم

هذه القضية هي في الحقيقة آفة من آفات العلم، بل إن شئت فقل: إنّها تمحق بركة العلم، ولقد أجاد السلف وأسهبوا وأطالوا الكلام عليها، وهذه القضية إذا تمكّنت من طالب العلم فإنّها تفسد عليه آخرته، وكلما كان متوغلاً فيها كان الضرر العائد عليه أعظم وأكبر، وهي تنغِّص على طالب العلم طلبه للعلم، وتعكِّر عليه حفظه وحضوره واستيعابه لما يسمع من العلم، وهذه القضية لا يسلم منها مجتمع لكن يختلف الناس فيها فمستقل ومستكثر.

فلابد أن يُطَالَ الكلام عنها لخطورتها، فالحسد في طلب العلم خاصّة بين الأقران يفسد على طالب العلم طريقه في الطلب، وجُرم الحاسد قد نص الله عليه في كتابه، وحذّر منه النبي ﷺ: فكلّنا يقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[١] ونقرأ قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[٢].

وتقرأ قول النبي ﷺ: «**لا تحاسدوا**»[٣]، وقول النبي ﷺ: «**لا حسد إلاّ في اثنتين. . .**»[٤].

وللحسد أسباب، وفي الوقت نفسه هو داء له دواء. واعلم أنّ هذا الأمر

---

(١) الفلق: ٥.
(٢) النساء: ٥٤.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

إذا كان لنفسك حظ منه فحذار أن تهمله أو أن تتهاون به؛ لأنّه كالزرع ينمو كلّما سُقي، ويزداد أمره كلّما غفَل عنه صاحبه ولم يحاول جاهداً أن يبتره أو يقطعه البتة عن نفسه.

وعداوة الحسد أشد تأصّلاً في النفس من عداوة غير الحسد:

قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى مودّتها
إلاّ عداوة من عاداك من حسدِ

والآخر يقول:

وقد ينبتُ المرعى على دمن الثرى
وتبقى حَزازاتُ النفوس كما هيا[1]

قال شيخ الإسلام: (ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه)[2].

والإنسان ضعيف الطبع تعتريه آفات كثيرة، ومن هذه الآفات: آفة الحسد، وبخاصّة بين الأقران، وبخاصّة في طلبة العلم. وأذكر أنّ الذهبي رحمه الله تعالى قال: (ما خلا مجتمع من التغاير والتحاسد، إلاّ ما كان في جانب الأنبياء والرسل عليهم السلام).

والحاسد لو فكر قليلاً في أمره، لرأى أنّه يعترض على قضاء الله وقدره، حينما أنعم على عبده بنعمة، فهذا الحاسد بلسان الحال ـ بل وقد يكون بلسان المقال ـ يعترض على إنعام الله على عبده فلان.

---

(١) كشف الخفاء ١/ ٢٧٢.
(٢) الفتاوى ١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

قال الشاعر:

ألا قل لمنْ كان لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدبْ
أسأت على الله في فعله لأنّك لم ترض لي ما وهبْ[(١)]

وهذه الآفة تزيد القلب قسوة، وتزيد العبد بعداً عن توخِّي الخير، ولو أننا فتحنا باب المناصحة على مصراعيه، وطلبنا النصيحة من أقراننا ومن إخواننا؛ لكُفِينا شرَّ تلك الآفة، ولهذا يقول الأحنف بن قيس: (العتاب خير من الحقد)[(٢)]. فلو أنّ كل واحد منّا رأى على أخيه تقصيراً ـ وبخاصّة من طلبة العلم ـ فسارع بنصحه والدعاء له، وعدم قبول التجريح به وهمزه ولمزه؛ لصلُحت كثير من أمورنا، لكن النفس تدفع صاحبَها إلى التعالي إن لم يأطرها صاحبُها ويزمها بزمام التقى والورع.

علامات الحاسد:

تمهيد: وهذه العلامات تقل وتكثر حسب قوة الحسد، وأذكر شيئاً من هذه العلامات، فلعلّ مَنْ كان مبتلىً بها أن يسارع إلى الإقلاع عنها، وأقصر هذه العلامات على ما يتعلق بطلبة العلم، ولقد أفاض العلماء في الكلام عن آفة الحسد، وكلامهم مفرّق في بعض الكتب، وأفرد بعضهم الكلام عنه في رسائل مستقلّة[(٣)].

فمن علامات الحاسد:

١ ـ أَنْ يفرح بخطأ قرينه:

---

(١) سبل السلام ٤/ ١٨١.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٩٤.
(٣) مثل ذم البغي لابن أبي الدنيا.

وخطأ القرين أعظم من خطأ غيره ؛ لأن القرين هو الذي يزاحمه على الصدارة، وهو الذي ينافسه بين مجتمع الناس، وهذا القرين هو الذي يكدِّر عليه صفو الشهرة، وكلما أخطأ القرين ازداد فرحه وازدادت بشارته ؛ لأنّه يظن أنّ في خطأ قرينه رِفعة له ـ أي رفعة للحاسد ـ.

وهذه العلامة لا يسلم منها إلاّ القليل، وهي أمر باطني لا يعلم به إلاّ الله ثم صاحبه. فإذا كانت هذه الخلَّة في أحد منّا، فليسارع إلى الإقلاع عنها، وإلى التوبة إلى الله منها.

٢ ـ أَنْ يفرح بغياب قرينه، أو بعدم حضوره في أمر ينازعه فيه، أو يقاسمه فيه:

فأنت ترى القرينين إذا اجتمعا يتقاسمان الكلام؛ لما لكل واحد منهما من الحظِّ في العلم، فإذا غاب أحدهما تفرد الآخَر بالمجلس، وتصدّر عن بقية أصحابه، فيفرح بغياب صاحبه؛ لأنَّ في غيابه ـ فيما يظن ـ رفعاً لدرجته عليه، وليمكَّن له أكثر من صاحبه.

٣ ـ أَنْ يُسرّ إذا لُمز قرينُه أو ثُلِبَ، ويجد في قلبه راحة نفسية:

بل ولا يحاول أن يمنع المغتاب أو اللامز، هذا إن لم يُعِنْه! ولا شك أنّ هذا محرم؛ إذ إنَّ غيبة المسلم العامي لا تجوز، فضلاً عن أن يكون طالب علم نفُعه متعدٍّ إلى غيره.

٤ ـ أَن يعرِّض بقرينه إذا سئل عنه:

فقد يأتي إلى طالبِ العلم الحاسدِ مبتدىءٌ في الطلب، أو سائل من سواد الناس يسأل عن فلان؛ لأمر تعلّق به، فيجد الحاسد في ذلك فرصة للنيل من فلان أو للتنقيص من قدره ولمزه، فهذا ـ ولا شك ـ يلحق بسابقه.

٥ ـ أَنْ يجد حرجاً في نفسه وتضايقاً إذا وجّه سؤال إلى غيره، أو طُلِبَ من قرينه الكلام بحضوره:

فقد يجتمع قرينان أو ثلاثة أقران في مجلس، فيُطلب من أحدهم أَن يتكلم، أو يوجه إليه سؤال، فتجد أنّ ذلك الحاسد يصيبه حرج شديد في نفسه، ويتصنَّع في إظهار عدم التأثر؛ لأنّ توجيه السؤال لذلك القرين بعينه من أعظم المصائب على ذلك الرجل.

ولو أنّه تذكر: أن ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء، وأنّ توجيه السؤال له لا يدل على فضله عليه مطلقاً؛ لهان الأمر على نفسه.

٦ ـ أَنْ يقلل من شأن الفوائد أو من شأن العلم الذي يأتي به القرين:

فقد يبحث مَنْ فيه حسدٌ عن مسألة أو عن جواب لإشكال، ويُقَلِّب الصفحات والمجلدات، ولا يعثر على جواب لتلك المسألة، ثم يعثر عليها قرينه، فإذا بلغه أنّ قرينه عثر عليها هوّن من أمرها! لكنْ لو كان الذي عثر عليها شخص آخر لدعا له، وأثنى عليه، وأطنب في ذكره.

أمّا أن تكون تلك الفائدة من ذلك القرين، فإنّه يعمد إلى كتم إعجابه، وإلى عدم إظهار تلك الفائدة التي حصّلها قرينه؛ لأنَّ ذلك الرجل يعدُّ إظهار سمعة القرين إضعافاً لحقه أو هضماً لشخصيته.

٧ ـ أَنْ يحاول تخطئة كلام قرينه إذا تكلَّم، ونَقْده إذا أجاب:

فأنت تلاحظ أنّ بعض الناس إذا ضمهم مجلس، وذُكرت فيه مسألة، ثم أجاب أحدٌ بجواب، فإنّ مَن كان في قلبه مرض وحسد، يحاول أن يتتبع العثرات المتكلَّفة، بل يختلق خطأً في جوابه، أو يحاول أن يصرف كلامه عن ظاهره، أو أن يؤوّل كلامه حتى يرجعه إلى حوض الخطأ، وهذا لاشك من

المرض.

٨ ـ عدم عزو الفضل إليه، وعدم عزو الفائدة إليه:

فقد يبحث أحد طلبة العلم عن مسألة ـ كما سبق آنفاً ـ ويتعب في البحث والتنقيب عنها، ثم يشعر صاحبه أو قرينه أنّه يبحث عنها، فيدلّه على موضعها في الكتاب، وبأنّها في الصفحة الفلانية. وإذا كان في قلبه حسد حاول عند ذكرها ألاّ ينسب فضلاً لصاحبه، وألاّ يرجع خيراً له، بل يزعم أنّ ذلك من جهده ومن فضله هو وحده! ولم يشاركه صاحبه في هذه الفائدة. وهذا دليل وعلامة على محق بركة العلم:

إذا أفـادك إنسـانٌ بفـائـدةٍ   مـن العلـوم فَـأَدْمِـنْ شكـرَه أبـدا
وقـل فـلانُ جـزاه اللهُ صـالحـةً   أفـادنيهـا وأَلْـقِ الكبـرَ والحسـدا[١]

فيا أخي: لا تتحرج من الدعاء لمن نفعك، بل ادع الله تعالى له، واعترف بفضله وقل: فلان دلّني على هذه الفائدة، وقد بحثت عنها طويلاً، ولكن لم أعثر عليها. وقد نبه العلماء كالنووي وغيره إلى أنّ من بركة العلم: أن يعزى الفضل إلى أهله[٢].

دواء الحسد بين الأقران والذي ينبغي أن يَفعل مَن كان مبتلى بهذا الأمر:

تمهيد: هذا الأمر خطير على طالب العلم، وكلّما تهاون فيه تمكن من نفسه وتأصّلَ عنده، والفقهاء يقولون: الدفع أسهل من الرفع. بمعنى: أنّه قبل أن يتأصّل الشيءُ ويتمكّن في نفسك ادفعه؛ لأنّه إذا تمكن وتأصّل فإنّ رفعه يصعب عليك. **وإليك بعض الأدوية لعلاج الحسد:**

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٨٧.
(٢) بستان العارفين ص٢٨.

الأول: الدعاء للقرين بظهر الغيب:

فإذا أصاب قلبك شيء من الحسد على فلان، فادع الله له بالتوفيق والسداد في أموره كلّها! فإنّ الدعاء يحدث في النفس عَجَباً من تغير الحال وتغيّر الشأن، ومِن نزع الشحناء والغل والحقد، وفي المقابل يلقي الله لك قَبولاً في قلبه.

الثاني: محاولة التحبب له والسؤال عن حاله وحال أهله:

فمن الملاحظ أنّ القرين كلّما تحبب إلى قرينه، فإنّه يزول عنه من الشحناء بقدر ما يكون من التحبب، فكلّما كان يقترب منه ويكثر من تحببه قلّت الشحناء حتى تتلاشى.

وقد يكون من العسير على الإنسان أن يقترب إلى قرينه وأن يتحبب إليه، ولكن نذكّره قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[1].

وجاهد نفسك، واطرح لباس الكبر والتعاظم من نفسك، وتواضع إلى أخيك، وسترى منه ما لا يخطر على بالك.

الثالث: زيارته وإظهار ما لَه من الفضل:

فقد كان العلماء يزورون طلابهم، ويجعلون ذلك قربة من القرب التي يتقرب بها العبد إلى ربه؛ لأنه كما قال ﷺ: «**مَن عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه منادٍ أَنْ طِبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً**»[2] فكيف إذا زار قرين قرينَه وكان قصده ـ بعد القربة ـ أن يزول مابينهما من الشحناء، وأن

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وانظر صحيح الجامع ٢/ ١٠٩١ برقم ٦٣٨٧.

يدفع عنه وعن أخيه شر الشيطان؟ لاشك أنّ هذه الزيارة تُحدث في نفس صاحبها أو في نفس المزور أثراً عجيباً، وينتج من ذلك إزالة الشحناء، ويشعر العبد براحة نفسية وبهدوء لا ينتابه كدرٌ أو قلق، إذا ظهر صِيتُ قرينه عليه أو ظفر قرينه بمسألة تعب هو في البحث عنها.

الرابع: عدم السماح أو الرضا بغيبته وهمزه ولمزه:

فإذا كنت في مجلس ولُمِزَ فيه صاحبك الذي في قلبك حسد عليه، فلا يكن منك التشفِّي والفرح بذلك، بل أمسك عن الكلام فيه ودافع عنه بما تعلم منه، وإن لم تفعل فإنّ الشيطان يوقد بينكما الشحناء التي كلّما تهاونت أنت وإياه بها زاد خطرها.

وإذا لم ترض بغيبته ولم ترض بلمزه ودافعت عنه بظهر الغيب، فإنّ هذا بحد ذاته يجعل لك قبولاً عند الله، وفي المقابل ربما يُنقَل صنيعك هذا إليه؛ فتزداد المحبة بينكما.

الخامس: إيثاره على نفسك بتقديمه:

فقد يجمعك وإيّاه مجلس واحد تحت سقف واحد، فيُوَجَّه لك سؤال وأنت تعلم أنّ توجيه السؤال لك قد يؤثِّر على صاحبك، فآثره بنصيبك له، فإن أخطأ فقوِّم خطأه ولا تقرّه على خطئه، وإذا كان في التنازل عن حقك إرضاء له ـ ولا يضرك هذا في دينك شيئاً ـ فأنت مأجور على فعلك هذا؛ لأنّك لم تعط الدنيّة في دينك، ولأنّك سعيت إلى إصلاح وتأليف بين النفوس.

السادس: استشارته وطلب نصيحته:

ذُكِرَ أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ثلاثة لا يجزيهم إلاّ الدعاء: رجل دخلتُ عليه في مجلس فقام إليَّ باشّاً مستبشراً، ورجل أفسح لي في

مجلس، ورجل نزلتْ به نازلة فاستشارني، فأُولئك الذين لا أَجزيهم إلاّ الدعاء).

ولأَنَّ استشارتك له وطلب النصيحة منه، يجعل في نفسه محبة لك وقبولاً، وسيعلم أَنّك ماأَتيت إِليه إلاّ لثقتك فيه ولمحبتك له، وهذا ـ بإذن الله تعالى ـ يطرد ما بينكما من الشحناء، والأمر هنا عسير ولكنّه يسير على من يسره الله عليه.

توقير السلف لبعضهم وتركهم الحسد:

وسأسوق هنا أَمثلة من واقع سلفنا الصالح، تبيِّن كيف كان بعضهم يوقِّر بعضاً، وكيف كانوا من أَبعد الناس عن الشحناء وعن التنافس غير المشروع، وكيف أَنَّ بعضهم يؤثِر بنصيبه أَخاه، ويذكر فضل أَخيه بحضوره وفي غيبته، وهذا يدلّ على أَنّهم كانوا على جانب من الورع والتقى وتطهير النفوس من الغلّ.

المثال الأَول:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جاء في «المدونة الكبرى» (قال ابن القاسم: سمعت مالكاً، وهو يذكر: أَنّ رجلاً رأى فيما يرى النائم في خلافة أَبي بكر، أَنّ القيامة قد قامت، وأَنّ الناس حشروا، قال: فكأنّه ينظر إلى عمر بن الخطاب قد فرع[1] الناس بسطة، قال: فقلت في منامي: بمَ فضل عمر بن الخطاب الناس؟ قال: فقيل لي: بالخلافة، والشهادة، وأنّه لا يخاف في الله لومة لائم. فأتى الرجل حين أصبح، فإذا أبو بكر وعمر قاعدان جميعاً، فقص عليهما الرؤيا، فلما فرغ منها انتهره عمر، ثم قال له: قم،

---

(١) فرع الناس: أي علاهم فضيلة وشرفاً.

أحلام نائم!

فقام الرجل، فلما توفي أبو بكر وولي عمر، أرسل إليه، ثم قال له: أعد عليّ الرؤيا التي رأيتها، قال: أو ما كنتَ رددتهاعليّ؟! فقال له عمر: أو ما كنتَ تستحي أن تذكر فضيلتي في مجلس أبي بكر وهو فيه قاعد؟!)[١].

فلم يرضَ عمر رضي الله عنه أن تذكر فضيلة له والصدّيق ـ وهو أفضل منه رضي الله عنه ـ حاضر يسمع، مع أنّه لا حرج ولا إثم في ذلك، ولكن هذا من تواضعه رضي الله تعالى عنه.

المثال الثاني:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان يسأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مع علو منزلة عمر، وعظيم أَمره في الإسلام، ومع هذا كلّه كان يستفتي أَبا الحسن، ويسأله عمّا أَشكل عليه، فقد ذكر ابن القيم في كتاب «الروح»: أَنّ عمر رضي الله عنه سأل علياً رضي الله عنه عن مسائل ثلاث[٢].

فالشاهد من هذا: عدم إعجابِ عمر رضي الله عنه بنفسه وبمنزلته، وما حباه الله من الرفعة السامية، وتواضُعه رضي الله عنه في التنازل والسؤال وطلب الحق ممن هو أقلّ منه فضلاً ومنزلة.

المثال الثالث:

عمر رضي الله عنه، كان يقرّب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، ويستفتيه عمّا أَشكل عليه، حتى قال العباس لولده عبدالله: (يابُنيّ، رأيتُ عمر يقرّبك ويدنيك، فاحفظ عني ثلاثاً: لا تَفْشِ له سّراً، ولا تكثر

---

(١) المدونة الكبرى ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) الروح ١/ ٢٣٥.

الضحك، . . . ولا تغتابنّ عنده أحداً).

فانظر إلى الفارق بين الرجلين، فعمر يتبوأ الخلافة في وقته، ثم يسأل عبدالله بن عباس وهو في عُمُرِ أحد أحفاده، رضي الله عنهم أجمعين.

المثال الرابع:

ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت»: أَنّ سعداً وخالداً رضي الله عنهما كان بينهما كلام، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد فقال: مه[١]! إنّ ما بيننا لم يبلغ ديننا[٢].

فهذا الرجل يريد أن يتشفى بالقدح في خالد عند سعد؛ لأنّه علم ما بينهما من الخلاف أَو المشادَّة، لكنَّ القوم أَتقى من ذلك، رضي الله تعالى عنهم، فقد زجره سعد ونهره، وبين له أَنّ هذا الخلاف لا يصل إلى أَن يقدح فيه، وأَنْ يتشفَّى من عِرض أَخيه.

المثال الخامس:

يونس الصدفي: عالمٌ معاصرٌ للشافعي رحمهما الله تعالى، قال: (اختلفت أنا والشافعي في مسألة، فافترقنا ثم تلاقينا بعد ذلك، فأَخذ الشافعي بيدي وقال: يا فلان، أَيمنعنا إن اختلفنا في مسألة أَن نكون إخواناً؟ قال: فما رأيت أَعقل منه)[٣].

وهكذا طالب العلم يطرح هذه الأُمور جانباً؛ لئلا تعكِّر على سلامة الصدر وعلى سلامة القلب.

---

(١) مه: أي كفّ عن هذا.
(٢) الصمت وحفظ اللسان لابن أبي الدنيا ص١٣٧ رقم ٢٤٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/١٦.

المثال السادس:

الإمام أَحمد رحمه الله تعالى، على جلالة قدره وعلوّ كعبه في العلم والفضل والدين، كان يبجّل الشافعي ولا يتحرَّج ـ بمفرده أَو أَمام الناس ـ أَن يسأله عمّا أَشكل عليه، ذُكر أَنّ الإمام أَحمد رحمه الله تعالى أَثنى على الشافعي خيراً ودعا له، وذكر فضله وشمائله، ثم بلغه عن بعض الحاضرين: أَنّه ينقل عن فلان وفلان من الأَئمة أَنهما يهوّنان من أَمر الشافعي، ففطن الإمام أَحمد لهذا المدخل، وقال لمن حوله: (اعلموا ـ رحمكم الله تعالى ـ أَنّ الرجل من أَهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم وحُرِمَه قرناؤه وأَشكاله؛ حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أَهل العلم)[1].

المثال السابع:

الإمام أحمد رحمه الله: زار أَحد الأَئمة الإمام أَحمد رحمه الله تعالى، وبينما هو عنده إذْ مرّ الإمام الشافعي رحمه الله تعالى على بغلة له، فقام الإمام أَحمد يطلبه، فلمّا أَدركه أَخذ يسأله عن بعض المسائل ويستفتيه، ثم رجع بعد ذلك إلى صاحبه الذي كان عنده، فقال: إلى متى ياأَبا عبدالله؟ دع عنك ياأَباعبدالله. يعني: لماذا هذا التبجيل للإمام الشافعي؟ كأَنّه ينقِّص من قدر الشافعي، لكن الإمام أَحمد رحمه الله أَجاب من قلب ورع فقال: (إذا أَردتَ الفقه فالزم ذَنَب البغلة)[2] يعني عليك بالشافعي.

المثال الثامن:

الفرّاء رحمه الله: يقول سلمة: (إنّي لا أَعجب من الفرّاء كيف يعظم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٥ ـ ٥٨ حاشية (١).

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٨٦ ـ ٨٧ بتصرف.

الكسائي وهو أعظم وأكبر منه علماً وسناً؟!) فالفرّاء يعظم الكسائي ويذكر فضائله وشمائله، مع أنّ الفرّاء أعلم وأرفع قدراً.

فأهل العلم صانوا العلم فصانهم، وعظموه في النفوس فعظمهم العلم ورفع الله قدرهم.

المثال التاسع:

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: كلّنا يعرف أنّه حصل بينه وبين علماء وقته مناظرات ومجادلات، وطال أمرها حتى صُنّفَ فيها مصنفات.
الشاهد: أن أحد أُولئك العلماء مات فبلغ شيخ الإسلام موتُه، فجاء رجل إلى شيخ الإسلام يبشّره بذلك، وهو يظن أنّ شيخ الإسلام سيفرح كما يفرح ضعيف النفس، ويستبشر بموت خصمه وعدوه، لكنّ شيخ الإسلام رحمه الله ـ بنظرة العالم التقي الورع ـ زجره ونهره وقال: (أتبشرني بموت مسلم؟! هذا لا يرضى به الله، ولا من كان فيه حب للإسلام والمسلمين)، ثم ذهب شيخ الإسلام إلى بيت ذلك الرجل، وسلّم على أهله وأولاده، وقال: (إنّما أنا لكم والد). بمعنى أنّ ما بيني وبين والدكم لا يعكّر صفو المودة، ودعا له.
رحمة الله على الجميع.

المثال العاشر:

محمد بن سلام وأبو حفص الفقيه رحمهما الله تعالى: قال الذهبي رحمه الله: (كان بينهما مودة وأخوّة وتآلف، مع اختلاف في مذهبهما)[١].

فهكذا الأقران يعظّم بعضهم بعضاً، ويوقّر بعضهم بعضاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٣٠.

المثال الحادي عشر :

سفيان بن عيينة : سئل عن مسألة وكان معه الإمام ابن وهب شيخ مصر، فسأل السائل ابن عيينة ، ففطن ابن عيينة أنّ معه عالماً آخر ، فوجّه السؤال إليه ، وقال : هذا شيخ أهل مصر يخبر عن مالك بكذا[١] .

فلم يستأثر بالجواب، بل آثر ذلك الآخر بالجواب؛ معرفةً لحقه، وتوقيراً لفضله، وإظهاراً لروح المحبة .

فعلى طالب العلم أن ينهج هذا المنهج : فلا يستأثر على غيره، ولا يُقدّم حبَّ الذات والأنانية، ولا يترفع ويتصدّر على حساب إخوانه، ولا يسخط ولا يغضب ويتكدّر عيشه إذا علم أنّ أحد أقرانه تفوّق عليه ، فلو أنّه ترك هذا كلّه ، لتسهلت له أبواب من الخير كثيرة .

المثال الثاني عشر :

الأخفش، عالم النحو، لزم سيبويه مدة طويلة[٢]، مع أنّ الأخفش أكبر سناً، ولكن هذا لم يمنعه من التواضع وبذل الجهد في تحصيل العلم، حتى مع مَن هو أصغر منه، ولم يتأثر بعيب الناس ولا بقدح الناس فيه .

المثال الثالث عشر :

وكيع رحمه الله : ما حصل لوكيع، وسماه بعض العلماء «محنة وكيع» والقصة معروفة في السير، في ترجمته رحمه الله، وخلاصتها: أنّ وكيعاً حدّث بحديث يتعلق بوفاة النبي ﷺ وأنّه حصل له تغيُّر بعد ما مات، فقام

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٣٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٦ .

أَشراف مكة وبنو هاشم على وكيع، وشكوه إلى أَمير مكة، حتى أَمر بقتله وصلبه، فأدخل السجن وحصل ما حصل من القيل والقال، وكان بين وكيع وبين سفيان مابينهما، لكنّ سفيان رحمه الله لم يستغل ذلك الموقف، مع أنّه قادر عليه، بل دفعته تقواه ـ بفضل الله تعالى ـ إلى أنْ يذكّر أمير مكة بفضل وكيع وعِظم أمره بين الناس، وأنّ قتله أمر لن يُسكت عليه، وفتنة لن تخمد نارها، فحذَّره وأَرعبه، فأُطلق وكيع بفضل الله ثم بشفاعة سفيان رحمه الله(١).

فانظر كيف طرح سفيان ما بينه وبين وكيع؛ لأنّ الحق أحق أن يتبع؟

المثال الرابع عشر:

طلحة رحمه الله: اجتمع القراء في دار الحكم بن عتيبة، فأَجمعوا أَمرهم على أنّ طلحة رحمة الله أَقرأُهم وأَكثرهم أَخذاً للقراءة، فتواضع طلحة لمّا بلغه هذا الأَمر وذهب إلى الأَعمش رحمه الله تعالى فقرأ عليه، حتى يَذهب عنه أثر ذلك الوصف(٢). وهذا أمر عسير؛ لأَنّ أكثر النفوس تحب أَن تُمدح وأَن يُثنى عليها، ولكن اعلم أَنّ الثناء إذا صاحبه إعجاب، فإنّه وبال على صاحبه، فالحذَر الحذَر من التهاون به.

المثال الخامس عشر:

إسماعيل بن عُليّة، وهو إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأَسدي.

هذا الإمام من مشايخ الإمام أَحمد بن حنبل رحمة الله عليهما، ذات مرة أُقيمت الصلاة، فقيل له: ياإسماعيل، إنّ ها هنا أحمد بن حنبل ـ وهو من

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/١٥٩.
(٢) التهذيب ٥/٢٦.

تلاميذه ـ فقال: قولوا له يتقدّم[١]. فعلم أنّه أفضل وأحق بالتقدم منه. وهذا الأمر قراءته سهلة، ولكن يعسر تطبيقه ويصعب، إلاّ من رحم الله.

المثال السادس عشر:

استشار سلمةُ إسحاق في رحيل ابنه أحمد بن سلمة إلى أبي رجاء قتيبة بن سعيد، من مشايخ أصحاب الصحيح، فلما شاوره ـ وكان إسحاق قريناً لقتيبة ـ قال إسحاق: (إنّ ابنك هذا قد أخذ عنّي وروى عنّي، وأرى أن تأذن له في الرحيل إلى قتيبة، ليأخذ عنه؛ فإنّ عند قتيبة ما ليس عندنا، عسى أن ينتفع)[٢] مع أنّه قادر على أن يشير عليه بعدم الذهاب، ولكن صاحب العلم الذي ينظر بعين التقى والورع لا يضيره هذا الأمر، بل ولا يلقي له بالاً ولا يُعيره اهتماماً.

المثال السابع عشر:

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، ذكر إسحاقَ بن راهويه وأثنى عليه خيراً، وقال: (لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإنّ الناس لم يزل يخالف بعضُهم بعضاً)[٣] فبينهما اختلاف في بعض المسائل، ومع هذا ذكر فضله وشمائله.

المثال الثامن عشر:

قيل لسفيان: إنّ مالكاً يخالف في هذا الحديث ـ والرجلان إمامان ـ فقال سفيان رحمه الله: ما أنا ومالك إلاّ كما قال جرير:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠ ـ ٢١ بتصرف.
(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٧١.

وابـــنُ اللبُـــونِ إذا مـــا لُـــزَّ فـــي قَـــرَنٍ
لـــم يستطـــعْ صَـــوْلَـــةَ البُـــزْلِ القَنَـــاعِيْـــسِ[(١)]

كأنّه يقول: من أنا حتى تقيسني بمالك؟! مالك إمام عظيم الشأن، وأنا بالنسبة إليه صغير. وهذا من تواضع سفيان رحمه الله، وإلاّ فسفيان له قدره ومنزلته العظيمة.

المثال التاسع عشر:

وهو من أَمثلة مشايخنا المعاصرين، وأَذكر هذا المثال مع أنني لم أحضره، وكان بيني وبينه خطوات، ولكن شاء الله أني لا أحضره، فلقد اختلف الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله مع الشيخ حمود التويجري رحمه الله في مسائل، وهذه المسائل مطروحة مبسوطة، كصلاة التراويح وغيرها، ورد كل منهما على صاحبه؛ وكل له وجهة نظر وكل له دليل، والردود مبسوطة منثورة في كتبهما.

وجاء الشيخ ناصر الدين الألباني إلى الرياض عام (١٤١٠هـ) فقابله الشيخ حمود التويجري في وليمة عشاء عند أحد المشايخ، فقام الشيخ حمود رحمه الله تعالى بتوجيه الدعوة إلى الشيخ الألباني لزيارته، فقبل دعوته، وزار الشيخُ ناصرُ الشيخَ حمودَ في منزله، فكان المجلس عجباً؛ إذ فيه احترام كل واحد منهما لصاحبه، وإيثاره عليه، فقد ذهبت الخلافات وبقي الود والإخاء والمحبة.

ولو ذكرتَ لأَحد الناس أَنّ الشيخ ناصر الدين زار الشيخ حمود؛ لاستبعد ذلك؛ لما بينهما من الخلاف.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٣ ـ ٧٤.

وأَخبرني من حضر ـ وهو أَحد أَولاد الشيخ حمود ـ أَن من الأُمور التي يعجب منها الحاضر في المجلس: ماحصل من تقدير الشيخ له، ومن إيثاره بالأَكل، وتقديمه الأَكل إليه، ومن تشييعه إلى آخر الدار، مع ما كان بينهما من الخلاف.

ذكرت هذه الأَمثلة؛ حتى نعلم أَن أَهل العلم مع ما بينهم من اختلاف في وجهات النظر، وفي استنباط الأَحكام من الأدلة، إلاّ أنهم إذا اجتمعوا طرحوا ما بينهم من الخلاف، وأَصبحت الأُخوّة تحكمهم، بمعنى: أَن الخلاف في المسائل والتباين في وجهات النظر، لا يمنع من احترام بعضهم بعضاً، فكل يخالف صاحبه لكن لا يلزم من اختلاف الآراء أن يتنافر الودّ، ولا يلزم من ذلك البغض.

إننا إخوة يحب بعضنا بعضاً، ولا يرضى بعضنا أن يُغتاب أَو يُقدح فيه بحضوره، ولكن قد يكون لك وجهة نظر في مسألة مّا، وله وجهة نظر أخرى.

وهذا الاختلاف في وجهات النظر لا يمنع من بقاء الود والمحبة، ونحن نعلم أَن أهل العلم من المتقدمين ومن المتأخرين لا يزالون يختلفون، وهذا أمر مستمر في أهل العلم؛ لأن الناس تتفاوت عقولهم واستنباطاتهم: فهذا يؤتى ذكاءً أكثر من صاحبه، وذلك يفطن إلى شيء خفي على صاحبه و«ربَّ مبلَّغ أَوعى من سامع»[1] كما قال رسول ﷺ، فلزاماً أن نحذر ونُحذّر ونحاذر مما يكون في النفوس.

فإذا رأيت أَخاً لك تفوق عليك وأَعطاه الله ما لم يعطك، فالحذرَ الحذرَ من أَن يكون في نفسك شيء، فإن ولج إلى نفسك شيء من ذلك، فاستغفر الله

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان، صحيح الجامع الصغير ٢/١١٤٥، رقم ٦٧٦٤.

تعالى وتب إليه سبحانه، وسل الله أن يحبب أخاك لك وأن يحببك إلى أخيك، وتذكر قول الله تعالى عن الأعداء: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾[١].

فكيف إذا كان ذلك بين الإخوة وبين طلبة العلم؟![٢].

* * *

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) تنبيه: الخلاف أنواع: فهناك ما يتسع الأخذ به، وهناك خلاف لابد من بيان خطأ صاحبه والرد عليه.. إلى غير ذلك، كل هذا بضوابط معلومة، كما هو مقرر في كتب السلف الصالح، وكما تعامل به السلف أنفسهم مع المخالفين. والله تعالى أعلم.

طالب العلم مع نفسه

طالب العلم مع نفسه

من أَنفع الأمور لمعرفة مكامن النقص والخطأ، ومن ثَمَّ معالجتها ـ بعد توفيق الله تعالى ـ: محاسبةُ العبد نفسه، وعدمُ التماس الأعذار الواهية في سبيل تبرير أخطائه؛ لأنّ التماس الأَعذار الواهية يزيد صاحبه رسوخاً في أَخطائه، بل قد تنقلب تلك الأَخطاء صواباً في نظره، وهنا تعظم المصيبة.

وعلى هذا: فينبغي أَن يجعل طالب العلم محاسبة نفسه ـ بصدق ـ نُصبَ عينيه دائماً، وسيرى من التوفيق والخير ما يسره، وكما قيل: (لايكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أَشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أَين ملبسه ومطعمه ومشربه)[١].

وإنّ مما يعين على محاسبة النفس بصدق: أَن يختار وقتاً مناسباً حتى يكون خالياً من الطوارق والشواغل؛ فإنّه كلما كان العبد بعيداً عن ما يشغل فكره، كان أكثر استجماعاً لمشاعره وأَحاسيسه، وكانت نفسه أَكثر تقبلاً لمعرفة مواضع النقص أو الخلل، أَياً كان نوعه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند كلامه عن الأَسباب المنجية من عذاب القبر: (أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة، يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه من يومه، ثم يجدِّد له توبة نصوحاً بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة)[٢] ثم قال رحمه الله تعالى: (ويُفعل هذا كلَّ ليلة).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٤.

(٢) الروح ١/ ٣٤٥.

وقال بعضهم: (الرجل ينبىء عمّا في نفسه في ثلاثة مواضع... وعدّ منها: عند اضطجاعه على فراشه)[١].

ولقد كان السلف رحمهم الله تعالى من أشد الناس محاسبة لأنفسهم وتفقدها صباح مساء؛ إدراكاً منهم لأَهمية هذا الجانب في استقامة أَمرهم وصلاح شأنهم. وأَسوق إليك هذا الأَثر؛ لتعرف مدى حرصهم على تفقد أنفسهم. قال يعلى بن عبيد: (دخلنا على ابن سوقة فقال: يا ابن أَخي، أُحدثكم بحديث لعله ينفعكم، فقد نفعني، قال لنا عطاء بن أبي رباح: إنّ مَنْ قبلكم كانوا يعدُّون فضولَ الكلام: ماعدا كتاب الله أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو أن تنطق في معيشتك التي لابد لك منها. أتنكرون أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد؟! أَمايستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدرَ نهاره وليس فيها شيء من أَمر آخرته؟!)[٢].

ومما ينبغي أن يُفطَنَ له في هذا المقام، أمرٌ لبَّس به الشيطان على كثيرين، وجعلهم من أَبعد الناس عن محاسبة أنفسهم، وهو: مدح الناس للشخص وثناؤهم عليه، حتى يرى نفسه كاملاً أو مقارباً للكمال، فلا يقبل في نصحه صرْفاً ولا عدلاً! وهذا باب عظيم إلى الخذلان والخسران.

فليفطن طالب العلم إلى هذا، وليكن على حذرٍ من هذا المزلق، كما قيل:

(العاقل من عرف نفسه، ولا يغره مدحُ مَنْ لا يَخْبُرُها)[٣].

---

(١) الفرج بعد الشدة ١/٣٠٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٨٦.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة١/١٤٨.

فعليه أن يحمد الله تعالى كلما رأى توفيقاً وسداداً في أموره.

وليعلم أنّ مدح الناس له وثناءهم عليه لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون دافعاً أو مانعاً، يكون دافعاً إلى الخير: إذا صدق في شكره لله تعالى على ما أنعم عليه، وزاد مضاعفة الجهد ابتغاء مرضاة الله، ثم نفع عباده، وليعلم أنّ مدح الناس له والحال هذه من عاجل بشرى المؤمن، فليطمئن قلباً ولينشرح صدراً.

ويكون مانعاً من الخير: إذا جعل مدح الناس مطيّة له إلى التصدّر في المجالس، ومن ثَمّ الترفُّع على الآخرين، وتصعير الخد لهم، بل هذا الشعور منه من أعظم الحواجز عن قبول النصح، فلا غرابة إذا أخذته العزة بالإثم عند مناصحته؛ لأنّه يرى نفسه في منزلةٍ تجاوزت مرحلةَ النصح والنقد.

فليحذر العبد من هذا المزلق؛ فإنّ مرتعه وخيم.

وقد رُوي في هذا المقام أثر عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عالج فيه تلك الآفة (الاغترار بمدح الناس) علاجاً موفّقاً يدل على إخلاصه وورعه رضي الله تعالى عنه.

جاء في الخبر: أنّ قوماً مدحوا أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقال: (اللهمَّ أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعلني اللهمَّ خيراً مما يحسبون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي برحمتك ما لا يعلمون)(١).

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى تلك الكلمات النفيسة، وكيف أنّ الممدوح

---

(١) وروي بمعناه عن ابن عمر رضي الله عنهما، انظر كتاب الزهد لابنّ المبارك رواية نعيم بن حماد ص١٤.

جعل فضل الله وستره نصب عينيه، خشية أن يظفر الشيطان بنصيب منه؟

وعوداً على بدء يقال ها هنا:

إنّ من الأمور التي تعين العبد على معرفة تقصيره وخطئه: طلب النصح من الآخَرين، وبخاصة ممن يعرفونه معرفةً خاصة، وهم على جانب من العلم والتقى؛ فإنّ نُصْحَ هؤلاء من أنفع النصح له ـ بإذن الله تعالى ـ؛ لعلمهم ومعرفتهم به.

وأداء النصح ممن طُلب منه مطلب شرعي، كما قال رسول الله ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ستٌّ**» وذكر منها: «**وإذا استنصحك فانصح له**» أخرجه مسلم.

ومن الأُمور التي تعين على محاسبة النفس وتفقدها: أخذ العبرة والاستفادة من أخطاء الآخرين، وذلك بمعرفة الأسباب الجالبة للخطأ الذي وقعوا فيه، فإن كان قريباً منه اتقاه، وإن كان بعيداً أخذ بجانب الحذر؛ حتى لا يقع كما وقعوا.

فيستفاد مما سبق: أنّ مما يعين على صدق المحاسبة عدة أمور:

أولاً: صدق دعاء الله تعالى.

ثانياً: الحرص على أن يكون خالياً من الشواغل والطوارق عند محاسبته لنفسه.

ثالثاً: قبول النصح إذا كان الناصح محقاً.

رابعاً: طلب النصح من أهل العلم والصلاح.

وهناك أسباب أخرى، ولعل ما سبق يكفي في إيضاح المقصود.

وللفائدة يوجد كتاب بعنوان «محاسبة النفس» للحافظ ابن أبي الدنيا، ذكر فيه آثاراً نافعة في هذا الباب.

طالب العلم في المسجد

طالب العلم في المسجد

إنّ مما يُحمد للمسلم عامّة ولطالب العلم خاصة: حرصه على أن يكون من السبّاقين إلى الجمعة والجماعة، والمحافظة على الصف الأول، ويتأكد هذا الحرص في طالب العلم؛ لكونه قدوة للآخرين، وحتى يطابق فعلُه قولَه.

فقبيح بطالب العلم أن يحث الناس على التبكير إلى المسجد ويحذرهم من التأخر، وقد عُرف عنه كثرة التأخر صباح مساء فهذا التصرف المشين يزهِّد الناس في نصحه وتعليمه، بل قد يُجرِّئ بعض الجماعة على مقاطعته وبيان تناقضه ـ وقد كان ـ فإلى الله المشتكى وهو المستعان.

فاحرص ـ رعاك الله ـ أن تكون مثل طالب العلم المتصف بصفات السلف الصالح، كالحرص على الجمعة والجماعة والمسارعة إلى المسجد عند سماع النداء: (كان يحيى القطان إذا ذكر الأعمش قال: كان من النُسّاك، وكان محافظاً على الصلاة في جماعة وعلى الصف الأول، وهو علاّمة الإسلام. وكان يحيى يلتمس الحائط حتى يقوم في الصف الأول)[١]. فالزم رعاك الله هدي السلف واقرأ سيرهم، لترى الحرص على فعل الخيرات وترك المنكرات، وإليك بعض آثارهم على سبيل المثال:

قال وكيع بن الجراح: (كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى)[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٨.

وقال القاضي تقي الدين سليمان:

(لَمْ أُصلِّ الفريضة قط منفرداً، إلاّ مرتين، وكأني لم أصلّها قط)[١].

وقال محمد بن سماعة:

(مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى؛ إلاّ يوماً واحداً، ماتت فيه أمي ففاتتني صلاةٌ واحدةٌ جماعةً . . .)[٢].

وفي ترجمة إبراهيم بن ميمون الصائغ قال عنه ابن معين:

(كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها)[٣].

وفي ترجمة سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى:

(. . . ما نودي بالصلاة من أَربعين سنة إلاّ وسعيد في المسجد)[٤].

(وكان الأسود إذا حضرت الصلاة أناخ بعيره ولو على حجر)[٥].

قال الشعبي: (مادخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها).

وقال أيضًا: (ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت، إلاّ وأنا على وضوء)[٦].

بل تعدى الأمر ذلك، فجعلوا محافظة الرجل على صلاة الجماعة وتطبيقه للسنة في صلاته من الأمور التي يوزن بها الرجل، ومن الشواهد على

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٦٥.
(٢) تهذيب التهذيب ٩/ ٢٠٤.
(٣) تهذيب التهذيب ١/ ١٧٣.
(٤) تهذيب التهذيب ٤/ ٨٧.
(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣.
(٦) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٦٤.

ذلك: قول إبراهيم بن يزيد رحمه الله تعالى: (إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدك منه)[١].

وقال شعبة بن الحجاج رحمه الله تعالى: (رأيته - يعني: يحيى بن عبيدالله التيمي - يصلي صلاة لا يقيمها، فتركت حديثه)[٢].

قال الذهبي - بعد أن ساق إسنادين لأحد الأحاديث ما نصه -: (في الإسنادين ضعفٌ من جهة زاهر وعمر؛ لإخلالهما بالصلاة، ثم قال الذهبي - من باب التواضع -: فلو كان مني ورع لما رويت لمن هذا نعته)[٣].

وبكل حال: فتبكير طالب العلم إلى المسجد، وحرصه على ذلك يتعدى أثره إلى المصلين؛ لأنّ تأثيرَ القدوةِ الفعليَّ قد يكون أبلغَ من تأثيره القولي.

ومما ينبغي لطالب العلم أيضاً: أن يقدم ما يستطيع من النفع العلمي والوعظي لجماعة مسجده: فتارة بقراءة فتاوى لعلماء موثوقين، وتارة بطرح بعض المسائل العلمية، وتارة بقراءة كلمات مختارة.
وليحرص على قراءة ما يتعلق بالنوازل عند وقتها، وكذا العبادات الحولية في وقتها.

فيقرأ مثلاً عن أحكام الخسوف والكسوف إذا جاء الخبر بهما، ويقرأ عن صلاة الاستسقاء إذا جاء الأمر بها.

أما العبادات الحولية، فيقرأ مثلاً عن الصيام وفضله وحِكَمِهِ وأَحكامه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٢.
(٢) تهذيب التهذيب ١١/ ٢٥٣، ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣١٧.

قُرب وقت الصيام، ويقرأ عن أحكام المناسك قبيل الحج وهكذا.

وعلى إمام المسجد أن يجتهد في إنشاء حلقة لتدريس القرآن الكريم[١]، ودعمها مادياً ومعنوياً وبجهود جماعة المسجد.

ولابد من التنبيه أيضاً على محاولة دعوة بعض المشايخ وطلبة العلم للمشاركة في بث العلم وتعليم الناس، فبهذه الأسباب وغيرها تظهر ثمار بركة الإمام على جماعة مسجده، بل ويتعدّى نفعه إلى المساجد المجاورة، ومن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ومما يؤخذ على بعض الأئمة:

سوء الخلق مع جماعة مسجده، مثال ذلك: عدم المبالاة بحالهم، والترفع عن الانبساط إليهم، وكثرة التمنّع من إجابة دعوتهم، والغلظة في تعليم جاهلهم. وواحد من هذه الأُمور كفيل بأن يورِّث في قلوبهم بغضه وعدم تقبّل ما يقول، فكيف إذا اجتمعت تلك الأُمور كلها فيه؟!

وفي مقابل ذلك: ما يحصل من بعض الأئمة من التوسع في التبذّل مع الناس، فإن اجتمع معهم في مجلس، تصدّر المجلس بسياق المضحكات، بل وقد يتوسع أكثر من ذلك، فيذكر ما يخل بالمروءة ويخدش الحياء، وقد يصل الأمر إلى الغيبة والنميمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كان حاله كذلك، فسيكون موضع السخرية إذا وعظ جماعته أو علّمهم، ويُستبعد ممن كان شأنه هكذا أن يكون مصدر وعظ وتعليم.

شاهد القول: أنّه لا إفراط ولا تفريط، والمطلب الشرعي هو الاعتدال

---

(١) كان عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه يعلّم أهل الصفة القرآن. التراتيب الإدارية ١/ ٤٠.

بضوابط شرعية.

نادرة: من عجيب ما رَوى التاريخ في محبّة الجماعة لإمام مسجدهم، وشدة تمسّكهم به: ما ورد عن أَبي الحسن بن داود، كان إمام داريّا[(١)]، فمات إمام الجامع جامع دمشق، فخرج أَهل دمشق إلى داريّا، ليأتوا بأبي الحسن بن داود، فلبس أَهل داريّا السلاح، وقالوا: لا نُمكنكم من أَخذ إمامنا، فقال أَبو محمد عبدالرحمن بن أَبي نصر: (ياأهل داريّا، ألا ترضون أَن يُسمَع في البلد أَنّ أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام؟ فقالوا: قد رضينا)[(٢)].



---

(١) داريّا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق. معجم البلدان ٢/ ٤٣١.
(٢) معرفة القراء الكبار للإمام الذهبي ١/ ٢٩٥.

طالب العلم في منزله

طالب العلم في منزله

طالب العلم كالغيث؛ أينما حلّ نفع، وأطول مكثه في منزله؛ لذا لزاماً أن يكون نفعه واضحاً جليّاً في منزله (وينبغي له أن يتفقد أهله بمسائل العلم فيما يحتاجون إليه؛ لأنّه جاء من تعليم غيرهم طلباً لثواب إرشادهم، فخاصته ومن تحت نظره آكد؛ لأنّهم رعيته ومن الخاصة به، كما سبق في الحديث: «**كلكم راع . . .**» الحديث، فيعطيهم نصيبهم، فيبادر بتعليمهم آكد الأشياء في الدين أولاً، وأنفعها وأَعظمها، فيعلمهم الإيمان والإسلام، ويجدد عليهم علم ذلك وإن كانوا قد علموه، ويعلمهم الإحسان، ويعلمهم الوضوء والاغتسال وصفتهما والتيمم والصلاة، وما في ذلك كله من الفرائض والسنن والفضائل، وكل ما يحتاجون إليه من أمر دينهم؛ الأهم فالأهم)[(١)].

فليحرص على تعليم الصغار قولاً وفعلاً، وليحرص على تطبيق السنّة أَمَامهم؛ ليرسخ ذلك في أذهانهم، ولعل هذا من أَنفع أَساليب التعليم لهم، فكم قد حفظ الصغار أَقوالاً وأَفعالاً يرونها متمثلة في آبائهم وأمهاتهم صباح مساء.

وليحذر كل الحذر من سوء الخلق وعدم إظهار المودة والتحبب؛ فإنّ ذلك من أعظم المنفّرات عن ذاته وعلمه.

روى يعقوب بن عبدالرحمن عن أبي حازم قال: (السيءُ الخُلقِ: أشقى الناس به نفسُه التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنّه ليدخل بيته وإنّهم لفي سرور فيسمعون صوته فيفرون عنه فَرَقاً منه،

---

(١) المدخل لابن الحاج ١/ ٢٠٩.

وحتى إنّ دابته تحيد مما يرميها بالحجارة، وإنّ كلبه ليراه فينزوَ على الجدار، حتى إنّ قطه ليفرّ منه)[١].

فليحذر المسلم من سوء الخلق، وليكثر من الدعاء المأثور: «**اللهم اهدني لأحسن الأَخلاق لا يهدي لأَحسنها إلاّ أَنت، واصرف عني سيئها لايصرف عني سيئها إلاّ أنت**»[٢] وغير ذلك مما ورد في هذا الباب.

وأَسوق لك شيئاً من الأَحاديث والآثار في حرص السلف على أَهلهم وأولادهم: قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: (باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأَهله) ثم ساق إسناده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أَجران: رجلٌ من أَهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أَدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أَعتقها فتزوجها، فله أَجران**»[٣].

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**ورجل كانت عنده أمة فأدّبها...**» إلخ.

فإذا كان الرجل يؤجر في تعليم أمته، فكيف بتعليم أولاده وأَهل بيته؟!

ومما يدخل في تعليم الصغار: تعليم النبي ﷺ لابن عباس في موقف المأموم من الإمام، وذلك عندما وقف ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن يسار النبي ﷺ، فأخذ ﷺ بأذن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وجعله عن يمينه. والحديث مخرّج في الصحيحين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٩.
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٢٢٩ فتح الباري.

وعن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهلنا قال: «**ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم، وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم**» أخرجه البخاري.

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**فكونوا فيهم وعلموهم**» ففيه الحث على تعليم الأهل[1].

وقال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى:

(باب ما على الآباء والأمهات من تعليم الصبيان أَمْرَ الطهارة والصلاة).

ثم ساق إسناده وذكر حديث النبي ﷺ: «**علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين، واضربوه عليها ابن عشر**»[2].

وقال الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: (ماجاء في تعليم الرجال أَولادهم ونساءهم، والسادات عبيدهم وإماءهم)[3] وساق آثاراً منها: أَنّ ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال لرجل: (أَدّب ابنك؛ فإنّك مسؤول عن ولدك ما علمته، وهو مسؤول عن بِرّك وطاعته لك).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال ﷺ: «كِخْ كِخْ» ليطرحها، ثم قال: «**أما شعرت أنّا لا نأكل الصدقة؟!**».

---

(١) فتح الباري ١/ ١٣٠ ـ ١٣١ ـ ٢٠١.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٨٣ ـ ٨٤.
(٣) كتاب الفقيه والمتفقه ١/ ٤٩.

ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في فوائد هذا الحديث: (جواز إدخال الأطفال المساجد وتأديبهم بما ينفعهم، ومنعهم مما يضرهم من تناول المحرمات، وإن كانوا غير مكلفين؛ لتيدربوا بذلك)(١).

وفي سنن الإمام ابن ماجه بعد أن ساق حديثاً طويلاً في أخبار الدجال، قال الإمام ابن ماجه: (سمعت أبا الحسن الطنافسي يقول: سمعت عبدالرحمن المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب، حتى يعلمه الصبيان في الكُتّاب)(٢).

وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل: (لقنني أبي أحمد بن حنبل القرآن كله باختياره)(٣).

وقال أبوبكر المروزي: (دخلت على أبي عبدالله، فرأيت امرأة تمشط صبيةً له، فقلت للماشطة بعدُ: وصلتِ رأسها بقرامل؟ فقالت: لم تتركني الصبيةُ، قالت: إنّ أبي نهاني، وقالت: يغضب)(٤).

فانظر ـ رعاك الله ـ كيف أثّر تعليم الأب في هذه الصغيرة! ولا غرابة في تأثرها بتعليم أبيها لها، فأبوها هو الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

قال الماوردي: (وقال بعض الحكماء: بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال، وتفرّق البال).

---

(١) فتح الباري ٢/ ٤١٤ ـ ٤١٦.
(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٦٣.
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٤٩٦.
(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٤٠٧، والمراد بالقرمل: ضفائر من شعر أو صوف أو إبريسم، تصل به المرأة شعرها. انظر النهاية لابن الأثير ٤/ ٥١.

وقال بعض الشعراء:

إنّ الغصـــون إذا قـــوَّمتهـــا اعتـــدلـــتْ
ولا يليـــن إذا قـــومتـــه الخشـــبُ
قـــد ينفـــع الأدبُ الأَحـــداثَ فـــي صِغَـــرٍ
وليـــس ينفـــع عنـــد الشَّيبـــة الأدبُ

وقال آخر:

ينشـــا الصغيـــر علـــى مـــا كـــان والـــده
إنّ الأصـــول عليهـــا ينبـــت الشجـــر[١]

وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً، يصلي هذا ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا[٢].

قال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار).

قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى:

(وفي هذا: الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[٣].

وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ قال رضي الله تعالى عنه: (علموا أهليكم الخير)[٤].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٣٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٦٠٩.
(٣) تيسير العزيز الحميد ص٧١٦.
(٤) الترغيب والترهيب ١/٧٦، وفيه: رواه الحاكم موقوفاً، وقال: صحيح على شرطهما.

وقال سعيد بن العاص: (إذا علمتُ ولدي القرآن وحجَّجته وزوجته، فقد قضيت حقه، وبقي حقي عليه)[١].

وبوّب الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى بقوله: (باب مَنْ قال: ينبغي للرجل أن يكرِه ولده على سماع الحديث) ثم ساق بأسانيده إلى عبدالله بن داود أنّه قال: (ينبغي للرجل أن يكره ولده على سماع الحديث). وكان يقول: (ليس الدين بالكلام، إنّما الدين بالآثار)[٢].

وقال الخطيب أيضاً: (من تألّف ولده على سماع الحديث) ثم ساق إسناده إلى النضر بن الحارث قال: (سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لي أبي: يابني، اطلب الحديث، فكلما سمعت حديثاً وحفظته فلك درهم، فطلبت الحديث على هذا)[٣].

ومر رجل بالأعمش وهو يحدث فقال له: (تحدث هؤلاء الصبيان؟ فقال الأعمش: هؤلاء الصبيان يحفظون عليك دينك)[٤].

وبعث عبدالعزيز بن مروان ابنه عمر بن عبدالعزيز إلى المدينة يتأدّب بها، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده وكان يُلزمه الصلوات، فأبطأ يوماً عن الصلاة فقال: ماحبسك؟ قال: مُرَجّلتي تُسكِّن شعري، فقال: بَلَغ من تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة! وكتب بذلك إلى والده، فبعث عبدالعزيز رسولاً إليه، فما كلّمه حتى حلق شعره[٥].

---

(١) العيال لابن أبي الدنيا ١/ ٣٣١.
(٢) شرف أصحاب الحديث ص٦٥.
(٣) شرف أصحاب الحديث ص٦٦.
(٤) شرف أصحاب الحديث ص٦٤.
(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٦.

وكانوا يفرحون بسماع أبنائهم للعلم من العلماء والقرب منهم: فقد جاء في ترجمة عبدالله بن سليمان بن الأشعث[(١)]: أنّ أول شيخ سمع منه هو محمد بن أسلم، وسرَّ أبوه بذلك؛ لجلالة محمد بن أسلم[(٢)].

ومن الطرائف في هذا: ما جاء في ترجمة عبدالله بن سليمان بن الأشعث أيضاً: أنّ أحمد بن صالح أحد الأئمة ـ كان يمنع المُرد من حضور مجلسه، فأحب أبو داود أن يسمع ابنه منه، فشدّ على وجهه لحية وحضر! فعرف الشيخ فقال: أمثلي يُعمل معه هذا؟ فقال أبو داود: لايُنكر عليّ سوى جمع ابني مع الكبار، فإن لم يقاومهم في المعرفة فاحرمه السماع[(٣)].

ومن السنن النبوية التي يستحب تطبيقها في المنزل: صلاة النوافل، ومما يشهد لذلك قوله ﷺ: «**أفضل صلاتكم في بيوتكم إلاّ المكتوبة**»[(٤)].

وفي لفظ آخر: «**أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلاّ المكتوبة**»[(٥)].

وكان أكثر تطوعه ﷺ في منزله[(٦)].

وكان كثير من العلماء لا يتطوعون في المسجد[(٧)].

وكان الإمام ابن قدامة رحمه الله تعالى لا يصلي ركعتي السنة ـ في

---

(١) سليمان بن الأشعث هو: الإمام أبو داود، صاحب السنن.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٢٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٤) رواه الترمذي عن أنس.
(٥) رواه البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت.
(٦) مختصر قيام الليل للمروزي ص٦٣، والروضة الندية لصدِّيق حسن خان ١/ ١١٢.
(٧) مختصر قيام الليل للمروزي ص٦٣.

الغالب ـ إلاّ في بيته ؛ اتباعاً للسنة[١] .

وبكل حال : فأداء التطوع في البيوت فيه مصالح كثيرة ، منها :

إحياء السنة النبوية في ذلك .

وأيضاً : فإنّ صلاة المرء بعيداً عن أعين الناس قد تكون أكثر إخلاصاً وأجراً ؛ قال ﷺ : «**صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس ، تعدل صلاته على أعين الناس خمساً وعشرين**»[٢] .

وفيه من المصالح التربوية :

تأثر أهل البيت ـ وبخاصة الصغار ـ برؤية والدهم يصلي على مرأى منهم ، وانطباع تلك الصورة في نفوسهم ، خاصة إذا كان الوالد محافظاً على إحياء هذه السنة .

ولذا يلاحظ على بعض الصغار أنّهم يحاكون والدهم في صلاته : فتارة يصفّون بجانبه ، وتارة يأتون ببعض هيئات الصلاة وحدهم .

ويقال أيضاً في مقام تربية الصِّغار : إنّ مما ينفع الصغار كذلك ، تعويدهم على بعض الآداب والسنن المستحبة ، مثل : الأكل باليمين ، والشرب باليمين ، والتسمية عند الأكل والشرب ، والحمد بعدهما .

وكذا دخول الخلاء مقدِّماً رجله اليسرى ، ومقدِّماً اليمنى عند الخروج .

قل مثل هذا أيضاً في تلقينهم بعض الآيات والأحاديث ، وبخاصة التي يتكرر قولها ؛ لترسخ في أذهانهم ، كبعض أذكار النوم والاستيقاظ من النوم ،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١٣٤ .

(٢) رواه أبو يعلى عن صهيب ، انظر صحيح الجامع الصغير .

وقبل ذلك ومعه وبعده: تعويدهم على نطق الشهادتين، قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعد كلام له:

(فإذا كان وقت نطقهم، فليُلَقَّنوا: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وليكن أول ما يقرع مسامَعهم: معرفةُ الله سبحانه وتوحيده، وأنّه سبحانه فوق عرشه، ينظر إليهم ويسمع كلامهم، وهو معهم أينما كانوا.

وكان بنو إسرائيل كثيراً ما يسمون أولادهم بـ (عمانويل) ومعنى هذه الكلمة: آلهنا معنا، ولهذا كان أحب الأسماء إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن، بحيث إذا وعى الطفل وعقل، عَلِمَ أنّه عبدالله وأنّ الله هو سيده ومولاه)[1].

وقبل ختام هذا المبحث لابد من التنبيه والتحذير من خطأ تربوي شنيع: وذلك أنّ بعض الآباء يكذب على مرأى ومسمع من أولاده، بل قد يأمرهم بالكذب، ومثال ذلك: أن يطرق طارق يريده لحاجة، فيأمر أحد أولاده بالرد عليه نافياً وجود أبيه في الدار!

فكم من المفاسد التربوية في مثل هذه التربية؟!

وقل مثل ذلك في إخافة الأولاد عند تأديبهم بأمور وهمية أو حسية لا فائدة للطفل فيها، كأنْ يخيف الأب ابنه بذكر مخلوقات وهمية، أويخيفه ببعض الحيوانات. ولو أخافه بذكر النار وعقوبة الله بالمرض لمن عصى والديه؛ وفي المقابل رغّبه بالخير والتوفيق من الله لمن أطاع والديه، لكان خيراً لهم وأقوم وأهدى سبيلاً.

والكلام في هذا يطول، وكتب تربية الأطفال كثيرة متوافرة، فليحرص على انتقاء الأنفع منها. والله ولي التوفيق.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

طالب العلم والسهر

طالب العلم والسهر

قال ﷺ: «**لاسمر إلاّ لمُصلّ أو مسافر**» أخرجه أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يختلف الناس في ترتيب أوقاتهم بحسب اختلاف شؤونهم، وبما أنّ الكلام مقصور على مسألة السهر، فيحسن هنا إيراد ما ورد عن سلمان رضي الله تعالى عنه في أحوال الناس بعد صلاة العشاء:

قال رضي الله تعالى عنه بعد كلام له: (.. فإذا صلى الناس العشاء كانوا على ثلاث منازل: منهم من له ولا عليه، ومنهم من عليه ولا له، ومنهم من لا عليه ولا له).

فقلت ـ القائل طارق بن شهاب ـ: مَن عليه ولا له؟ قال: (رجل صلى العشاء، فاغتنم غفلة الناس وظلمة الليل، فركب رأسه في المعاصي.

ورجل اغتنم غفلة الناس وظلمة الليل، فركب رأسه وقام يصلي، فذاك له ولا عليه.

ورجل نام، فذاك لا عليه ولا له)[١].

وهذا التقسيم من سلمان رضي الله تعالى عنه يدخل تحته جميع أصناف الناس في الجملة، وهم في تحصيل الخير ودفع الشر ما بين مستقل ومستكثر. ومسألة السهر حقيقة بأنْ يُطرَق موضوعها؛ لأهميتها، ويتبين ذلك بأمور كثيرة، منها:

---

(١) مختصر قيام الليل للمروزي ص١٢.

أولاً: أنَّ السهر مما تعم به البلوى.

ثانياً: ترتُّب الإثم إذا كان السهر على ما لا ينفع صاحبه.

ثالثاً: ما يفوت بسبب السهر من تضييع الفرائض أو تأخيرها.

رابعاً: التثاقل عن صلاة الوتر بسبب التعب.

خامساً: أنّ السهر جزء من الوقت الذي سيسأل عنه يوم القيامة.

وعلى ضوء هذا يقال: بأنّ السهر يكون منهياً عنه، بل محرّماً إذا علم صاحبه أنّه سيترتب عليه تضييع صلاة الفجر، ويزداد الإثم جرماً إذا كان السهر على محرّم.

ويحسن هنا إيراد ما رواه الإمام في الموطأ: «أنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح، فغدا عمر ابن الخطاب إلى السوق ـ ومسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي ـ فمرّ على الشفاء أمّ سليمان، فقال لها: لم أر سليمان في الصبح! فقالت: إنّه بات يصلي فغلبته عيناه، فقال عمرُ: لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة أحب إليّ من أن أقوم ليلة»[1]. فانظر كيف عاب عمر سهرَ سليمان بن أبي حثمة مع أنّ سهره كان في صلاة ودعاء؛ وذلك لأنّه قد ترتب عليه تضييع ما هو أهمّ منه.

قال الإمام الشاطبي: (كره مالك إحياء الليل كله، وقال: لعله يصبح مغلوباً، وفي رسول الله ﷺ أسوة، ثم قال: لابأس به ما لم يضر بصلاة الصبح)[2].

---

(١) الموطأ ص١٠١ (كتاب الصلاة).
(٢) الاعتصام ص٢٥ ـ ٢٦.

فكيف بمن كان سهره على غير طاعة وخير؟

قال الإمام ابن حبان رحمه الله تعالى في صحيحه: (ذكر الخبر الدال على الزجر عن السمر بعد العشاء الآخِرة الذي يكون في غير أسباب الآخرة).

ثم ساق إسناده إلى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: (أنّ أسيد بن حضير ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ ليلة، حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند النبي ﷺ ينقلبان وبيد كل واحد منهما عصاه، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق، أضاءت بالآخَر عصاه فمشي كل واحد منهما في ضوئها حتى بلغ أهله»[١].

وقال ابن حبان أيضاً: (ذكر خبر ثان يدل على أنّ الزجر عن السمر بعد عشاء الآخرة، لم يُرَد به السمر الذي يكون في العلم).

ثم ساق بإسناده حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: (انتظرنا النبي ﷺ ذات ليلة حتى كان شطر الليل، فجاء فصلى لنا ثم خطبنا فقال: «**إنّ الناس قد صلوا ورقدوا، وإنّكم لن تزالوا في صلاة منذ انتظرتم الصلاة**» قال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: إنّ القوم لا يزالون بخير ما انتظروا الخير)[٢].

وقال أيضاً: (ذكر الخبر المصرّح بإباحة السمر بعد عشاء الآخرة، إذا كان ذلك مما يجدي نفعه على المسلمين).

ثم ساق بإسناده إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: (كان

---

(١) صحيح ابن حبان ٣/ ٣٦٧. وانظر ما قبله.

(٢) صحيح ابن حبان ٣/ ٣٦٩.

رسول الله ﷺ لا يزال يسمر عند أبي بكر الليلة في الأمر من أمور المسلمين، وإنّه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه)[١].

فتحصَّل من مجموع هذه الأحاديث: أن السمر لا حرج فيه إذا كان على أمر خير، كمذاكرة علم وانتظار صلاة أو في مصالح المسلمين، وهذا النوع من السهر محمود لصاحبه، إذا لم يترتب عليه ضياع ما هو أهم.

وسمى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى هذاالنوع من السهر: «سهراً شرعياً» في كلام نفيس له أذكره بحروفه؛ لعظيم فائدته:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: (... فالسهر الشرعي... من صلاة أو ذكر أو قراءة أو كتابة... يتنوع بتنوع الناس: فبعض العلماء يقول: كتابة الحديث أفضل من صلاة النافلة.

وبعض الشيوخ يقول: ركعتان أصليهما بالليل حيث لا يراني أحد أفضل من كتابة مائة حديث.

وآخر من الأئمة يقول: بل الأفضل فعل هذا وهذا.

والأفضل يتنوع بتنوع أحوال الناس، فمن الأعمال ما يكون جنسه أفضل، ثم يكون تارة مرجوحاً أو منهياً عنه كالصلاة، فإنّها أفضل من قراءة القرآن، وقراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، ثم الصلاة في أوقات النهي ـ كما بعد الفجر والعصر ووقت الخطبة ـ منهي عنها، والاشتغال حينئذ إما بقراءة أو ذكر أو دعاء أو استماع أفضل من ذلك)[٢].

---

(١) صحيح ابن حبان ٣/٣٦٩ ـ ٣٧٠. وهذه الأحاديث كلها صحاح، والغرض من عزوها لابن حبان من أجل التبويب.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/٣٠٨.

فاحرص ـ رعاك الله ـ على تدبر هذا، فإنه ينفعك كثيراً ـ بإذن الله ـ.

ومما ينبغي ذكره في هذا الموضع: (الاستيقاظ لصلاة الفجر)، وأمّا أحسن الطرق لذلك فيقال: إنّ مما يعين على الاستيقاظ لصلاة الفجر مع الجماعة:

ـ صدق الهمة في ذلك.

ـ أن يحرص المسلم على ترك السهر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليتسنى له النوم مبكراً.

فإن بلي بالسهر حيناً من الدهر فليستعن ـ بعد عون الله ـ بالأسباب مثل:
أ ـ وضع ساعة منبهة.
ب ـ تكليف أحد من المعارف أو الأصحاب بالاتصال به هاتفياً.
ج ـ تكليف أحد الجيران بطرق منزله عند الفجر.
د ـ إذا علم من نفسه أنّه إذا نام استغرق في نومه شديداً، ولم يكن عنده من الأسباب ما يعينه، فليحرص على عدم الاسترخاء التام لبدنه؛ لئلا يثقل عن القيام. ومن عجيب أمر النبي ﷺ وحرصه على صلاة الجماعة: (أنّه كان إذا عرّسَ[١] وعليه ليل، توسد يمينه، وإذا عرّسَ قبل الصبح وضع رأسه على كفه وأقام ساعده)[٢].

قال المناوي في شرحه للحديث: «توسد يمينه» أي يده اليمنى، أي: جعلها وسادة لرأسه ونام نوم التمكن؛ لاعتماده على الانتباه وعدم فوت

(١) عرّسَ بالتشديد، أي: نزل وهو مسافر آخر الليل للاستراحة، والتعريس: نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة.
(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وابن خزيمة.

الصبح لبُعْده «وإذا عرّس قبل الصبح» أي: قبيله «وضع رأسه على كفه» اليمنى «وأقام ساعده»؛ لئلا يتمكن من النوم فتفوته الصبح، كما وقع في قصة الوادي[١]، فكان يفعل ذلك؛ لأنّه أعون على الانتباه. وذلك تشريع وتعليم منه لأمته؛ لئلا يثقل بهم النوم فيفوتهم أول الوقت)[٢].

فياطالب العلم، اعلم ـ رعاك الله ـ أنّ الناس جعلوك مثالاً وقدوة، فكن قدوة بقولك وفعلك، واحرص ـ رعاك الله ـ على أن يكون نفعك متعدياً إلى غيرك.

واعلم بأنّ ضررك يتعدى، كما أنّ نفعك يتعدى، فمُجَالِسُك يقتدي بك في الغالب، فاحرص أن تكون ممن سنّ سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ممن سنّ سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فإن استطعت ألاّ تُرى وتُسمَع إلاّ بحالة تنفع من رآك وسمعك فافعل، شريطة أنْ يكون ذلك ابتغاء مرضات الله على هدي رسول الله ﷺ.

واحذر أيضاً: أن تكون مثل بعض الموسومين بالخير والصلاح، ممن جعلوا عادتهم السهر طوال الليل، فلا يعرِفون أولادهم ليلاً إلاّ وهم نيام، ناهيك عن إضاعتهم وتركهم لصلاة الوتر؛ لأنّ الواحد منهم عند وصوله إلى منزله يكون مرهقاً جداً يبحث عن الفراش! وإن تحامل على نفسه وأوتر صلّى صلاة خفيفة ينقرها نقراً مكتفياً بركعة واحدة، وإن أحسن فثلاث ركعات سريعات!

وأما المصيبة الكبرى فهي التأخر عن صلاة الفجر أو فواتها بالكلية!

---

(١) عندما ناموا عن الصلاة ولم يستيقظوا إلاّ بعد طلوع الشمس.

(٢) فيض القدير ٥/١٤٩.

فأمثال هؤلاء يرثى لهم ولحالهم، فكم أهدروا من أوقاتهم بلا ثمرة، وكم أضاعوا من حق أهلهم وأولادهم، ومع هذا أثّروا على جلسائهم ومعارفهم؛ لكونهم قدوة في نظرهم.

اللهَ أسأل أن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ هو، وأنّ يصرف عنّا سيئها لا يصرف عنّا سيئها إلاّ هو.

وعليك يا طالب العلم أن تقلّب صفحات تراجم سلفنا الصالح؛ لترى أنّ القوم رحمهم الله تعالى من أحرص الناس على شُغل أوقاتهم بما ينفع، وبما أنّ الحديث عن السهر، فأورد لك مثالاً على اشتغالهم بما ينفع:

قال فضيل بن غزوان: (كنّا نجلس أنا وابن شُبْرمة والحارث بن يزيد العلكي والمغيرة والقعقاع بن يزيد بالليل نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء للفجر)[1].

وروى ابن فضيل عن أبيه قال: (كان ابن شبرمة ومغيرة والحارث العلكي ليسهرون في الفقه، فربما لم يقوموا إلى الفجر).

وأخيراً: إن كنت ـ رعاك الله ـ ممن ابتلي بالسهر العقيم، فحاول جاهداً التخلّص من تلك الآفة، وذلك بطلب العون من الله تعالى، ومحاولة تعويد النفس على النوم مبكراً؛ فإنّ النفس إذا عودت اعتادت وتأقلمت على الطبع.

قال سليمان التيمي: (إنّ العين إذا عوّدتها النوم اعتادت، وإذا عوّدتها السهر اعتادت)[2].

ويجمع ما سبق قولُ النبي ﷺ: «إنّما العلم بالتعلُّم، وإنّما الحِلْم بالتحلم، ومن يتحرّ الخير يُعطهْ ومن يتقّ الشر يوقهْ»[3].

---

(١) السير ٦/٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) مختصر قيام الليل للمروزي ص٥٥.

(٣) أخرجه الخطيب والدارقطني. انظر: صحيح الجامع.

طالب العلم مع طلابه

طالب العلم مع طلابه

لا شك أنّ لطالب العلم منزلة عند مَن يتردد عليه من الراغبين في العلم، فهو شيخهم والحال هذه، وبقدر مايكون عليه من الصفات الحسنة بقدر ما ترتفع منزلته عندهم، ولذا ترى بعض المصاحبين لطلبة العلم يتخلّقون بأخلاقهم، وهذا أمر طبعي؛ فالعشرة الوقتية يظهر أثرها، فكيف بالملازمة الطويلة في الحضر والسفر؟

وعلى هذا، فليحرص طالب العلم أن يكون قدوة بقوله وفعله؛ لأنّه كما سبق يُرى مثالُه في أخلاق طلاّبه.

ومن أنفع الأمور لهم:

- أن يتعاهدهم بالنصح والتوجيه.

- أن يقوّم اعوجاجهم كُلاًّ بحسب تقصيره.

- أن يتفقد أحوالهم وشؤونهم إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولو بسؤاله لبعضهم عن بعض.

- زيارته لهم في بيوتهم؛ فهذا له أثره العظيم في ترسيخ أواصر الترابط والمحبة.

- أن يحذر من الأمور التي تقلّل هيبته أو تزيلها، ككثرة المزاح والإفراط فيه.

- إجابة دعوتهم حسب قدرته.

- الحرص على زيارة مريضهم؛ ففي ذلك من الأثر الحسي والمعنوي

الشيء العظيم.

ـ الأهم من هذا كلّه أن يرغبهم في طلب العلم والمداومة على ذلك، قراءة وكتابة وسماعاً وحضوراً.

وليسلك في ذلك ما يراه خيراً لهم وأقوم، كاختيار الكتاب أو الدرس الذي يرى لهم فيه عظيم فائدة، والمتابعة المستمرة لهم في حضور الدرس وكتابة الفوائد، ومن ثَمَّ تكليفهم بإعداد بعض البحوث العلمية، وإبداء الملحوظات الإيجابية والسلبية في ذلك؛ ليعرف مواضع الصواب والخطأ.

وعليه: أن يتمثّل أخلاق أهل العلم من حيث: التواضع وعدم الإصرار على الخطأ، بل المبادرة إلى الرجوع عند تبيّن الصواب، وأن يتسع صدره لسماع ملاحظات طلابه، فهذا ـ بإذن الله ـ من أعظم الأسباب النافعة، لا له وحده، بل يتعدى إلى من يراه ويسمعه.

وهنا أمر لا يُغفل عنه وهو: أنّ بعض طلبته، قد يكون نبيهاً، ويَلمس فيه النجابة والحرص على العلم وتحصيله، فمثل هذا ينبغي العناية به والحذر من إهمال أمره؛ لأنّ في ذلك قتلاً لهمته أو إخماداً لها.

وبعد هذا، أسوق إليك شيئاً من الآثار من سير سلفنا الصالح؛ لترى مدى عنايتهم واهتمامهم بطلبتهم من الناحية العلمية، فمن ذلك:

قال ابن جريج: (أتيت عطاء، وأنا أريد هذا الشأن، وعنده عبدالله بن عبيد بن عمير، فقال لي ابن عمير: قرأتَ القرآن؟ قلتُ: لا، قال: فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم، فذهبتُ فغبرتُ زماناً حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاء وعنده عبدالله، فقال: قرأتَ الفريضة؟ قلت: لا، قال: فتعلم الفريضة ثم اطلب العلم، قال: فطلبت الفريضة ثم جئتُ، فقال: الآن فاطلب العلم،

فلزمتُ عطاء سبع عشرة سنة)[١].

قال سويد بن عبدالعزيز: (كان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه إذا صلى الغداة في جامع دمشق، اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب، يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك)[٢].

قال عكرمة: (كان ابن عباس رضي الله عنهما يضع في رجلي الكَبْلَ على تعليم القرآن والسنن)[٣] والكَبْلَ: القيد.

وعليه: أنْ يحذر كل الحذر من إظهار الضيق والتبرم لأحد من طلبته، فقد يحدث أن يبدر من بعض الطلبة أو من أحد منهم سوء أدب في حق الشيخ أوتخطئة له في مسألة ما، فيجد الشيخ عليه في نفسه ولا يغفرها لها، وتكون معاملته لذلك الطالب فيها نوع جفاء.

وهذا فيه محاذير شرعية كثيرة.

منها: عدم العدل والإنصاف في حق ذلك الطالب.

ومنها: أنّ جفاء الشيخ قد يخرج إلى حظ النفس والانتصار لها.

ومنها أنّه قد لا يجيبه عن سؤاله إجابة كافية، فيكون في ذلك كتم للعلم.

ومنها: أنّ ذلك الجفاء قد ينعكس أثره على الطالب، فيحدث له ما لا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٧.
(٢) معرفة القراء الكبار ١/ ٣٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٤.

تحمد عقباه، من هجر للعلم وحلقاته، بل قد يتعدى الأمر إلى هجر الخير وأهله.

وعلى هذا: فليجتهد في إصلاح خلل تلميذه بما يراه مناسباً من الطرق والأساليب، قاصداً الإصلاح ما استطاع، وسيجعل الله بعد عسر يسراً.

* * *

طالب العلم في مجتمعه

طالب العلم في مجتمعه

سبق القول بأنّ طالب العلم يُعَدّ قدوةً في جميع تصرفاته، ولذا كان لزاماً عليه أن يجعل ذلك دائماً نصب عينيه، وأن يسأل الله التوفيق في الأمور كلها، وأن يجعل له القبول؛ لأنّ نعمة قبول الناس للعبد من عاجل بشرى المؤمن، وفيها من المصالح: قبول الناس لعلمه ووعظه، وأهم من ذلك كلّه أنّ قبول الناس له مُتَرَتِّبٌ على قبول الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال ﷺ: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريلَ: إنّ الله يحب فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**» أخرجه البخاري ومسلم.

والشاهد: أنّ القدوة قد يؤثر بفعله قبل قوله.

جاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي أنّه كان كثير العبادة والتألُّه، رآه علي بن عبدالله بن عباس فأعجبه نسكه وهديه، فاقتدى به في الخير(١).

وهناك أمور لابدّ من الإشارة لها، حتى تكون نصب عينَي طالب العلم، فمن ذلك:

سلامة القلب:

قال زيد بن أسلم: (دُخِلَ على أبي دجانة وهو مريض وكان وجهه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٠ ـ ١١.

يتهلّل، فقيل له: ما لوجهك يتهلّل؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، أما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليماً)[١].

و(قال الحسن بن عُليل: حدثنا يحيى بن معين قال: أخطأ عفان في نيّف وعشرين حديثاً، ما أعلمت بها أحداً وأعلمته سراً، ولقد طلب إليّ خلف بن سالم أن أخبره بها فماعرّفته، وكان يحب أن يجد عليه.

قال يحيى: ما رأيت على رجل خطأ إلاّ سترته وأحببت أن أزيّن أمره، وما استقبلت رجلاً في وجهه بأمر يكرهه، لكن أبيّن له خطأه فيما بيني وبينه، فإن قَبِل ذلك وإلاّ تركته)[٢].

قضاء حوائج الناس:

قال ﷺ: **«اشفعوا تؤجروا»**[٣].

(**«اشفعوا»**: أمر بالشفاعة وهي: الطلب والسؤال بوسيلة أو ذِمام. **«تؤجروا»**: أي: يُثبْكم الله على الشفاعة وإن لم تُقبل، والكلام: فيما لا حد فيه من حدود الله؛ لورود النهي عن الشفاعة في الحدود.

قال القرطبي: وقوله: تؤجروا ـ بالجزم ـ جواب الأمر المتضمن لمعنى الشرط. وفيه: الحث على الخير بالفعل وبالتسبب.

قال في الأذكار: يستحب الشفاعة إلى ولاة الأمر وغيرهم من ذي الحقوق، ما لم تكن في حد، أو في أمر لايجوز تركه، كالشفاعة إلى ناظر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٤٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٣.
(٣) أخرجه البخاري.

طفل أو مجنون أو وقف في ترك بعض حق من في ولايته، فهذه شفاعة محرمة. . .

ففيه: حث على الشفاعة، ودلالة على عظم ثوابها. والأمر للندب، وربما يعرض له ما يصيِّر الشفاعةَ واجبةً)[١].

ـ جاء في ترجمة الإمام محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة: أنه كان كثيراً ما يكتب إلى أرباب الولايات شفاعات لمن يقصده، فقال له المتولي يوماً: إنك تكتب إلينا في قوم لا نريد أن نقبل فيهم شفاعة، ونشتهي أن لا نرد رقعتك، فقال: أما أنا فقد قضيت حاجةَ من قصدني، وأنتم إن أردتم أن تقبلوا ورقتي وإلاّ فلا.

فقال له: لا نردها أبداً[٢].

وكان أبو المظفّر الخزاعي يلزم نفسه بقضاء حوائج الناس، ويرفعها إلى المتولي فيوقع عليها بقضائها، فقيل له مرة: أيها الشيخ ربما وقع ضجر من إنهائك ما تنهيه، فقال: أنا لا أزال أكتب، فإن قُضيتْ حاجة من كتبتُ فذلك الغرض، وإن لم تُقض فقد أعذرتُ ولا أتأثر بذلك[٣].

ومشى الإمام بقي بن مخلد مع رجل إلى أشبيليا لقضاء حاجة له، ومشى مع آخر إلى البيرة، ومشى في حاجة امرأة أخرى إلى جيّان[٤].

وما أجمل قول القائل:

---

(١) فيض القدير ١/ ٥٢٥.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٥٥.
(٣) تاريخ إربل ص٤٢ بتصرف يسير.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٥، وأشبيليا والبيرة وجيّان: من مدن الأندلس.

اشفعْ إذا كنت مسؤولاً فرُبَّتَما ... سألتَ ما كنت مسؤولاً فلم تُجَبِ[١]

وقول الآخر:

إنّ الحوائجَ ربما أزرى بها ... عند الذي قضيتْ له تأجيلُها

فإذا قضيتَ لصاحبٍ لك حاجةً ... فاعلمْ بأنّ تمامَها تعجيلُها[٢]

وقول الآخر:

لا تَمنعنّ يدَ المعروفِ عن أحدٍ ... ما دمتَ مقتدِراً والعيشُ جناتُ

قد ماتَ قوم وما ماتت مكارمُهم ... وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتُ

وقول الحسن بن سهل ـ من أصحاب الإمام أحمد ـ:

فُرضت عليَّ زكاة ماملكت يدي ... وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا

فإذا ملكت فجُدْ فإن لم تستطع ... فاجهد بوسعك كله أن تنفعا[٣]

وخير من قول الشاعر، قول رسول الله ﷺ؛ مرغِّباً في معاونة الناس وقضاء حوائجهم، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من نفَّس عن مؤمن كربةً من كُرب الدنيا؛ نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر؛ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. . . .»** الحديث[٤].

---

(١) تاريخ إربل ص٤٠٤.

(٢) تاريخ إربل ص١٨٨.

(٣) هداية الأريب الأمجد لأصحاب الرواية عن الإمام أحمد ص١٦٣.

(٤) رواه مسلم برقم ٦٧٩٣.

إخــلاف الوعـــد:

مدح الله الموفين بعهدهم، بل مدح بذلك أنبياءه ورسله، كما قال تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾[١].

وعدّ النبي ﷺ إخلاف الوعد صفة من صفات النفاق، كما قال ﷺ: **«ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»**[٢].

وعلى هذا، فينبغي أن يكون المسلم عامة وطالب العلم خاصة، من أبعد الناس عن تلك الخصلة السيئة، وأن يكون مثالاً يُحتذى في الوفاء بالوعد، والعجيب أنّ الجاهليين كانوا يعدّون إخلاف الوعد من عظائم الأمور!

قال عوف بن النعمان: (في الجاهلية الجهلاء: أن يموت الرجل عطشاً خير له من أن يكون مخلافاً لموعد)[٣].

وأما الآثار في ذم إخلاف الوعد فكثيرة، منها:

ما روي عن سليمان بن داود عليهما السلام أنّه قال لابن له: (يا بني، إذا وعدت فلا تخلف، فتستبدل بالمودة بغضاً)[٤].

---

(١) سورة مريم آية: ٥٤.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) أدب الإملاء والاستملاء ص٤١، تجريد أسماء الصحابة للذهبي ص٤٢٩.
(٤) أدب الإملاء ص٤١.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: حدثني هارون بن سفيان المستملي قال: قلت لأبيك أحمد بن حنبل: كيف تعرف الكذابين؟ قال: بمواعيدهم.

وكانوا يتحاشون الموعد خشية الإخلاف، قال محمد بن إدريس الحنظلي: قلت لقبيصة: تعدني؟ فقال: إذا جئتني فرأيتني لقيتني[١].

ومن جميل ما قيل في الموعد من الشعر:

إذا قلتَ في شيء نَعمْ فأتِمَّه ... فإنّ نَعَمْ دَين على الحر واجبُ
وإلا فقلْ لا واسترحْ وأرحْ بها ... لئلا يقول الناسُ إنّك كاذبُ

وقول الآخر:

إذا اجتمع الآفاتُ فالبخل شرها ... وشرٌّ من البخل المواعدُ والمطلُ
فلا خيرَ في قولٍ إذا كان كاذباً ... ولا خيرَ في قولٍ إذا لم يكن فعلُ

الحِلْم ولين الجانب:

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢].

حكى الإمام ابن كثيرعن الإمام ابن جرير الطبري رحمهما الله تعالى قال: (وقد أمر الله نبيّه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ـ ويدخل في ذلك جميع الطاعات ـ وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنّه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب).

---

(١) أدب الإملاء ص٤٢.
(٢) الأعراف: ١٩٩.

وقال ابن كثير أيضاً:

(قال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإمّا مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله، فأعرض عنه؛ فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾)[2].

كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهما: (سلامٌ عليك، أما بعد: فإنّ الله رزقني بعدك مالاً وولداً، ونزلت الأرض المقدسة. فكتب إليه سلمان: اعلم أنّ الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكن الخير أن يعظم حِلْمُك، وأن ينفعك علمك، وإنّ الأرض لا تعمل لأحد، اعمل كأنّك تُرى، واعدد نفسك من الموتى)[3].

وخاصم رجل الأحنف فقال الرجل: (لئن قلتَ واحدة لتسمعَنّ عشراً، فقال الأحنف: لكنّك إن قلتَ عشراً لم تسمع واحدة)[4].

الحذر من خوارم المروءة:

وذلك؛ لأنّها من أسباب ذهاب الهيبة، ومن ثمّ جرأة العوام عليه

---

(١) المؤمنون: ٩٧.
(٢) فصلت: ٣٤. وانظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٩٣.

وتنقصهم له واستخفافهم به، فليحذر طالب العلم من هذا المزلق، وليُرى عليه سمت العلم وأهله.

ولذا كان بعض أهل العلم يُعرِّض نفسه للنقد، وتصرفه للمقت؛ بسبب إخلاله بأمر المروءة، فقد ذكر عن أحدهم: أنه كان قليل المبالاة بحفظ قاموس العلم والمشيخة، بحيث إنه كان يمازح السفهاء، ويقف في الشوارع على حلق المشعبذين وأصحاب اللهو[١].

فعلى هذا ينبغي لطالب العلم أن يحفظ مروءته، لتبقى هيبته، فإنّ ذلك مما يزيد مقامه رفعة، ومما يكسبه احترام الجميع؛ ولذا كان سلفنا من أحرص الناس على حفظ المروءة والابتعاد عن خوارمها.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (والله لو علمت أنّ الماء البارد يثلم من مروءتي شيئاً ما شربت إلاّ حاراً!)[٢].

التواضع:

قال ﷺ: «**ما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله**»[٣].

فالتواضع من أخلاق الأنبياء، وهو من أسباب الرفعة والعزة، وفي ترك التواضع وقوع التشاحن والبغي؛ قال ﷺ: «**إنّ الله أوحي إليّ أنْ تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد**»[٤].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (التواضع: انكسار القلب لله،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣١٩ ـ ٣٢٠.
(٢) مناقب الشافعي للرازي ص٨٥.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، حتى لا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقاً بل والحق له).

قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: (مَن امتُحن بالعجب، فليفكر في عيوبه، فإن أُعجب بفضائله، فليفتش ما فيه من الأَخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنَّه لا عيب فيه، فليعلم أنَّ مصيبته إلى الأَبد، وأنّه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً، وأول ذلك: أنّه ضعيف العقل جاهل، ولا عيب أشد من هذين؛ لأنّ العاقل هو من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه: إمّا لقلّة علمه وتمييزه وضعف فكرته، وإمّا لأنّه يقدّر أنّ عيوبه خصال) انتهى كلامه رحمه الله تعالى[١].

وقال أَيضاً: (واعلم أنّ من قدّر في نفسه عجباً أو ظنّ لها على سائر الناس فضلاً، فلينظر إلى صبره عند ما يدهمه من همٍّ أو نكبة أو وجع أو دمّل أو مصيبة، فإن رأى نفسه قليلة الصبر، فليعلم أنّ جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه، على تأخر طبقتهم في التمييز، وإن رأى نفسه صابرة، فليعلم أنّه لم يأت بشيء يسبق فيه على ما ذكرنا، بل هو إمّا متأخرعنهم في ذلك، أو مساوٍ لهم ولا مزيد)[٢] إلى آخر ما قال في كلام سديد.

عن محمد بن القاسم قال: (زعم عبدالله بن حنظلة أن عبدالله بن سلام مَرّ في السوق وعليه حزمة من حطب، فقيل له: أليس الله أغناك؟ قال: بلى، ولكن أردت أن أقمع الكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لايدخل الجنة من**

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص٦٦.
(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص٧٣ ـ ٧٤.

كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»)[١].

ولقد كان السلف الصالح رحمهم الله تعالى أكثر الناس تواضعاً وأعلاهم منزلة.

ومما روي عن بعضهم في ذلك: أنّ رجلاً قال لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، فقال ميمون: (أقبِل على شأنك، ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم)[٢].

وجاء رجل إلى الإمام أحمد فسأله عن شيء أو كلّمه في شيء فقال الرجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فغضب الإمام أحمد رحمه الله تعالى وقال له: (من أنا حتى يجزيني الله عن الإسلام خيراً؟ بل جزى الله الإسلام عني خيراً)[٣].

قال معاذ بن معاذ: سمعت ابن عون يقول: (ما بقي أحدٌ أبطن بالحسن منّا، والله لقد أتيتُ منزله في يوم حار وليس هو في منزله، فنمت على سريره، فلقد انتبهت وإنّه ليُروّحني)[٤].

ومما يوصل إلى ذلك بإذن الله: إخلاص العبد لربه وصدقه في عبادته، قال قتادة: كان هرم بن حيّان يقول: (ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله، إلاّ أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه ودّهم)[٥].

قال سعيد الزبيدي: (لا يعجبني من القرّاء كل مضحاك ألقاه بالبشر

---

(١) سير أعلام النبلاء ص٤١٩. والحديث خرجه مسلم دون القصة.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٥.
(٣) طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦٦.
(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩.

ويلقاني بالعبوس، يمنّ عليّ بعبادته، لا أكثر الله في القرّاء مثل هذا)[١].

وهذه الخصلة (العُبوس) من أعظم أسباب التنفير، وفي المقابل نجد البشاشة من أعظم أسباب التأليف، ولذا فمن المغالطات أن يُعدّ عبوس فلان وعدم تبسمه البتة في وجه من يقابله منقبةً من المناقب أو من أسباب الهيبة!

وفي المقابل أيضاً: الإفراط في التبسم مع كل أحد، لا يحمد لصاحبه، بل لابد من ضوابط شرعية في الحالين، وما أجمل وأحسن ما قاله الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في وصيته ليونس بن عبدالأعلى، قال رحمه الله تعالى: (يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة، والانبساط إليهم مجلبةٌ لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط)[٢].

وأَنقل إليك في هذا المقام كلاماً ذهبياً للإمام الذهبي في كتابه الذهبي: (سير أعلام النبلاء) لعله ـ على حسب علمي ـ من أجود ما كُتِبَ في هذا الشأن، قال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر عن أحد العباد أنّه لم يضحك ما نصه: (الضحك اليسير والتبسم أفضل. وعدم ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدباً وخوفاً من الله وحزناً على نفسه المسكينة.

والثاني: مذموم لمن فعله حمقاً وكبراً وتصنعاً، كما أنّ من أكثر من الضحك استُخف به، ولا ريب أنّ الضحك في الشباب أخفُ منه وأعذر منه في الشيوخ، وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كلّه، قال النبي ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»[٣].

---

(١) مختصر قيام الليل للمروزي ص٥٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٨٩.
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد وغيرهما.

قال جرير: «**ما رآني رسول الله ﷺ إلاّ تبسّم**»(١).

فهذا هو خُلق الإسلام، فأعلى المقامات: مَنْ كان بكّاءً بالليل بسّاماً بالنهار.

وقال عليه السلام: «**لن تسعوا الناس بأموالكم؛ فليسعهم منكم بسطة الوجه**»(٢).

بقي هنا شيء: ينبغي لمن كان ضحوكاً بسّاماً أن يُقصّر من ذلك ويلوم نفسه حتى لا تمجّهُ الأنفس، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يتبسّم ويحسّن خلقه ويمقت نفسه على رداءة خُلُقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولابد للنفس من مجاهدة وتأديب)(٣). انتهى كلامه بحروفه رحمه الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا.

كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت؛ لما في إبقائه من تأليف القلوب.

وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً، وقال: الخلاف شرٌّ)(٤).

وقال أيضاً: (. . . وقد استحب أحمد أيضاً لمن صلّى بقوم لا يقنتون

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه البزار بسند حسن، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح ١٠/ ٤٥٩ وفي آخره «وحسن الخلق».
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٤٠ ـ ١٤١.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٤٥.

بالوتر ـ وأرادوا من الإمام ـ أن لا يقنت؛ لتأليفهم، فقد استحب ترك الأفضل لتأليفهم)[١].

ومن هنا، ظهر عذر السلف الصالح في تركهم سنناً قصداً؛ لئلا يعتقد الجاهل أنّها من الفرائض...[٢].

وضوح الكلام قدر الإمكان ـ خاصّة مع العوام ـ وعدم استعمال العبارات الغامضة والمصطلحات الغريبة:

لأنّ ذلك مما يستعصي على أفهامهم، فالأولى أن ينزل في أسلوبه قدر الإمكان، مما يعينهم على فهم مراده ومقصوده.

قال الأصمعي (كنت إذا سمعت أبا عمرو بن العلاء يتكلم، ظننته لايعرف شيئاً، كان يتكلم كلاماً سهلاً)[٣].

والعجب أنّ أبا عمرو بن العلاء هو شيخ القرّاء والعربية![٤]

ومن أمثلة التنطع والتقعّر في الكلام: ما جاء في ترجمة هشام بن عمرو المفوطي: أنّ رجلاً أراد أن يسأله عن عمره فقال: كم تعدّ من السنين؟ قال: من واحد إلى أكثر من ألف، قال: لم أرد هذا، كم لك من السّن؟ قال: اثنان وثلاثون سناً، قال: كم لك من السنين؟ قال: ما هي لي، كلها لله، قال ما سنك؟ قال: عظم، قال: فابن من أنت؟ قال: ابن أمّ وأب، قال: فكم أتى عليك؟ قال: لوأتى عليّ شيء لقتلني، قال: ويحك! فكيف أقول؟ قال: قل: كم مضى من عمرك؟

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ١١٩.
(٢) الاعتصام ٢/ ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٤١٠.
(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠٧.

قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى متعقباً هذا التكلف: (هذا غاية ما عند هؤلاء المتقعرين من العلم، عبارات وشقاشق لا يعبأ الله بها، يحرفون الكلم عن مواضعه قديماً وحديثاً. فنعوذ بالله من الكلام وأهله)[١].

وهشام هذا من أئمة المعتزلة.

الانبساط للناس ورحابة الصدر، وتحمّل سماع مسائلهم ومشاكلهم بطيب نفس وسعة بال:

لأنّ ذلك مما يحببه لهم، ويأنسون بسؤاله، وثمرة ذلك قبول نصحه وتعليمه، فطالب العلم كالمورد يرد عليه الناس وعنه يصدرون، فلابدّ أن يوطِّن نفسه على حسن مقابلتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وليحذر من تنفيرهم وإظهار التضجر والملل؛ فإنّ ذلك قد يحملهم على البعد عن أهل العلم، بل وإلى تعميم الحكم عليهم جميعاً.

ولذا كان سلفنا الصالح أرحَبَ الناس صدراً لعوام المسلمين، فنفع الله بهم القاصي والداني. والأمر يسير على من يسّره الله عليه.

فعلى طالب العلم أن يحتسب وأن يحاول أطر نفسه على التَّحَمّل، فإن كان ذلك كذلك فلن يرى ولن يسمع ـ بإذن الله ـ إلاّ خيراً، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[٢].

وأسوق إليك بعض الأمثلة عن السلف الصالح في هذا الشأن:

كان عمرو بن الحارث المصري كان يخرج من داره فيرى الناس صفوفاً يسألونه عن القرآن والحديث والفقه، والشعر والعربية والحساب[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٥٤٧.
(٢) فصلت: ٣٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥٣.

وكان الإمام مالك رحمه الله تعالى يأتي المسجد فيشهد الصلوات والجمعة، والجنائز، ويعود المرضى، ويجلس في المسجد فيجتمع إليه أصحابه[١].

وقال حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه: (ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة إلاّ علمت أنّها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها)[٢].

نشر العلم والفائدة بينهم، في وقت يراه مناسباً لذلك:

وبذل الجهد في ذلك، والحذر من الفتور أو التخلي عن ذلك بحجة قلّة المستفيدين والراغبين، فعليه أن يحرص على نشر العلم، فإن كثر الراغبون أو قلّوا فلا ضير، وهو مأجور في الحالين، وربما ينفع الله بذلك القليل نفعاً عظيماً، وإذا أثّر عليه قلّة المنتفعين فليجعل نصب عينيه حديث: «**يأتي النبي ومعه النفر، ويأتي النبي ومعه العشرة، ويأتي النبي ومعه الخمسة، ويأتي النبي وليس معه أحد**» وفي لفظ: «**يمر النبي..**» إلخ[٣].

وروى أيوب بن سويد عن الأوزاعي قال: (مات عطاء بن أبي رباح يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس، وما كان يشهد مجلسه إلاّ تسعة أو ثمانية)[٤].

وليحذر كل الحذر من مداخلة الشيطان والعُجب عند كثرة الحضور، قال عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى: (كنت أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت وإذا قلوا حزنت، فسألت بشر بن منصور فقال: هذا مجلس

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥١.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٤.

سوء فلا تعد إليه. فما عدت إليه)[١].

وانظر ـ رعاك الله ـ أثر العالم إذا صدق في تعليمه:

جاء في ترجمة الإمام بقي بن مخلد القرطبي رحمه الله تعالى: أنّه عني بالحديث عناية لا مزيد عليها، وأدخل جزيرة الأندلس علماً جمّاً، وبه وبمحمد بن وضّاح صارت تلك الناحية دار حديث[٢].

وفي ترجمة هاشم بن القاسم: (كان أهل بغداد يفخرون به)[٣].

ومن العجائب: أنّ يزيد بن عبدالملك نفى عراك بن مالك إلى دهلك (جزيرة بين برِّ اليمن وبرِّ الحبشة) فكان أهل دهلك يقولون: جزى الله عنّا يزيدَ خيراً، أخرج إلينا رجلاً علمنا الله الخير على يديه[٤].

قال يونس بن عبيد: (ما رأيت أحداً أنصح للعامة من أيوب والحسن)[٥].

وقد تقدّم أنّ عمرو بن الحارث المصري كان يخرج من داره فيرى الناس صفوفاً، يسألونه عن القرآن والحديث والفقه، والشعر والعربية والحساب[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٦.
(٣) تهذيب التهذيب ١١/ ١٩.
(٤) تهذيب التهذيب ٧/ ١٧٣.
(٥) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠.
(٦) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥٣.

طالب العلم عند شراء الكتاب واقتنائه

طالب العلم عند شراء الكتاب واقتنائه

من المعلوم أنّ شغف طالب العلم باقتناء الكتب أمر مسلّم، وطلبة العلم في هذا الشغف وحب الاقتناء للكتب والمراجع مابين مستقلّ ومستكثر، خاصة في هذا الزمن، الذي تيسرت وكثرت فيه وسائل الطبع والنشر، وأصبحت دور النشر والتوزيع تتنافس في المسابقة على محاولة التصدر في باب التحقيق وإخراج الجديد، وهذا ـ ولله الحمد والمنّة ـ من فضل الله على العلم وأهله وطلابه، ولابد من الإشارة إلى أنّ بعض ما ينشر لا يخلو من خلل فيه بحسب الكاتب أوالمحقق، ويكون الخلل معروفاً عند مشايخ العلم وطلابه المتمكنين في الطلب.

وعوداً على بدء يقال: إنّ هناك بعض الأمور التي تعين طالب العلم عند عزيمته على شراء الكتاب أو الكتب، رأيت بيانها؛ لعلها تكون معينة له في اختياره للكتب التي يريد اقتناءها، **فمن ذلك**:

١ ـ استشارة بعض المشايخ أو طلبة العلم المشهود لهم قبل اقتناء الكتاب المراد شراؤه.

٢ ـ إذا كان الكتاب المراد شراؤه شرحاً لكتاب معين، فينبغي التأكد: هل هناك شروح أخرى للكتاب؟ فإن كان هناك شروح أخرى فعليه أن يتأكد أيضاً: أيّ تلك الشروح أجمعها وأكثرها علماً؟[1].

---

(١) مثال ذلك رياض الصالحين له شروح منها: «دليل الفالحين» و«نزهة المتقين» ومما صدر أخيراً: شرح للشيخ ابن عثيمين، وكتاب صحيح البخاري له شروح كثيرة، منها: فتح الباري لابن حجر، وعمدة القارىء للعيني، وشرح القسطلاني، =

٣ ـ إذا وقع الاختيار على شرح معين لكتاب معين، فالأولى التأكد من طبعات الشرح المقصود، فإن كان له أكثر من طبعة حرص على السؤال عن أجود الطبعات(١).

٤ ـ إذا كان الكتاب المراد شراؤه محققاً، فليحرص على أجود النسخ تحقيقاً(٢).

٥ ـ إذا كان الكتاب يتكون من عدد من الأجزاء، فليطابق رقم الجزء المكتوب على الغلاف الخارجي على الرقم الداخلي، للتأكد من مطابقة الترقيم.

٦ ـ محاولة التصفح السريع لصفحات الكتاب أو الكتب؛ خشية وجود بياض في بعض الصفحات.

٧ ـ الحرص على النسخة المجلدة وذات الخط الواضح، قال الذهبي: (من الأمور التي يشغف بها المحدث: تحصيل النسخ المليحة)(٣).

= وغيرها.
ومثال آخر: سنن الترمذي له شروح، منها: تحفة الأحوذي للمباركفوري، وعارضة الأحوذي لابن العربي، والنفح الشذي لابن سيد الناس، ولم يتم.

(١) مثال ذلك: فتح الباري له أكثر من طبعة: السلفية التي عليها تعليق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وهناك طبعة أخرى تُعرف بطبعة بولاق.

(٢) مثال ذلك: تقريب التهذيب له عدة طبعات، منها الطبعة الباكستانية، وطبعة بتحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، وطبعة بتحقيق عوّامة، وأخيراً طبعة بتحقيق صغير أحمد شاغف الباكستاني، قدّم لها الشيخ بكر أبو زيد.
مثال آخر: كتاب الكلم الطيب لشيخ الإسلام، حققه الشيخ الألباني، وحققه الشيخ الأرناؤوط.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٥.

٨ ـ إذا كان الكتاب كبيراً فإن استطاع أن يتصفح فهارسه ففي ذلك خير كثير ؛ لأنّه بذلك يعرف محتوى الكتاب إجمالاً .

٩ ـ عدم إهمال الكتاب، برمي أو اتكاء عليه أو ما شاكل ذلك، قال نعيم بن ناعم: (لما سئل الإمام أحمد: أيضع الرجل الكتب تحت رأسه؟ قال: أي كتب؟ قال: كتب الحديث، قال: إذا خاف أن تسرق فلا بأس، وأمّا أن يتخذها وسادة فلا)[1] .

١٠ ـ الاتصال الهاتفي بالمكتبات ودور النشر؛ للسؤال عن وجود الكتاب، ومعرفة تفاوت الثمن، ليتوفّر بذلك لك أمران: حفظ بعض وقتك، وحفظ بعض مالك .

١١ ـ ومما ينبغي أن يحذر منه طالب العلم: أن يكون همّه ومقصده الوحيد في شراء الكتب هو التكثُّر بها وملء الأدراج في منزله ليراها الناظرون ليس إلاّ، فهذا مزلق خطير ومرتع وخيم .

(ومن منكرات المكتبات: أنّ بعضها تصبح غاية لا وسيلة للعلم، فيكثر بعض الجهلاء من جمع الكتب وتجليدها وزخرفتها بماء الذهب! دون أن يتدارسوا ما فيها، وهم يقصدون من جمعها التفاخر والرياء، حتى يقال عنهم: إنّهم علماء أو طلبة علم. وقد زار أحد العلماء مكتبة من هذا النوع فأعجب بها، ولمّا اختبر صاحبها وجده جاهلاً لم يقرأ ولم يطالع شيئاً من كتبه، فقال له ساخراً: كتبك كثيرة وماؤك قليل. فلم يفهم هذا الأمي معنى ما ذهب إليه العالم)[2] .

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ٣٩١.
(٢) منكرات الأفراح، تقديم وتعليق محمود مهدي الاستانبولي ص١١٤ .

بعد هذا، أسوق هنا شيئاً من نوادر وطرائف بعض أهل العلم فيما يتعلق بشراء الكتب:

عبدالله بن أحمد الخشاب:

ذكر عنه أنّه اشترى يوماً كتباً بخمس مئة دينار ولم يكن عنده شيء، فاستمهلهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره فبلغت خمس مئة دينار، فنقد صاحبها وباعه بخمس مئة دينار ووفى ثمن الكتب، وبقيت له الدار[(١)].

الحسن بن أحمد الهمداني:

قال ابن الجوزي: (وبلغني أنّه رئي في المنام في مدينة جمع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تحد وهو مشتغل بمطالعتها، فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال: سألت الله تعالى أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا فأعطاني)[(٢)].

ابن قمير الموصلي، مجلِّد الكتب بالموصل، قال:

(أعطاني أبو عبدالله بن أبي العلاء بن حمدان دفتراً أجلِّده، وأكّد عليّ الوصية في حفظه، فأخذته منه ومضيت إلى دكاني، وكان طريقي على دجلة، فنزلت إلى مشرعة أتوضأ فسقط الدفتر من كمّي في الماء، فتناولته عجلاً قبل أن يغرق وقد ابتل، فقامت قيامتي، ولم أشك أنّه سيجري عليَّ مكروه شديد من أبي عبدالله من ضرب وحبس وأخذ مال، فعملت على الهرب من الموصل، ثم قلت: أجففه وأجلده وأجتهد في أن أسلمه إلى غلام له وهو لا يعلم وأستتر، فإن ظهر الحديث هربت، وإن كفى الله تعالى ذلك وتمت عليه

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٣١٩.
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٣٢٨.

الحيلة ظهرت، فحللته وجففته وثقلته حتى رجع واستوى أكثر مايمكن من مثله، وجلّدته وتأنقت في التجليد، فلّما فرغت منه، جئت إلى الحاجب لأسلمه إليه من باب الدار وأمضي، فصادفت الحاجب جالساً في الدهليز فسلمت إليه الدفتر، فقال: ادخُل وادفعه من يدك إلى يده، فلعله يتوقعك، ولعله يأمر لك بشيء، فقلت: لا أريد فإني مستعجل، فقال: لا يجوز، ولم يدعني حتى دخلت إليه، فلم أشك أنّ ذلك من سوء الاتفاق عليّ المؤدي إلي المكروه، ومشيت في الصحن وأنا في صورة عظيمة من الهمّ، فوجدت أبا عبدالله جالساً على بركة ماء في صحن داره والغلمان على رأسه، فأخرجت الدفتر من كمّي، فقال لأحد غلمانه: خذه من يده وهاته، فجاء الغلام من جانب البركة وأنا من الجانب الآخر، ومدّ يده ليأخذه فأعطيته إياه فلم يتمكن في يده حتى سقط الدفتر في البركة وغاص إلى قعرها، فجنّ أبو عبدالله وشتم الغلام وقال: مقارع مقارع[1]، فحمدت الله عز وجل على استتار أمري من حيث لا أحتسب، وكفايتي ما كنت أخافه! وخرجت والغلام يضرب)[2].



(١) جمع مقرعة وهي: خشبة يضرب بها. المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٩.
(٢) الفرج بعد الشدة ٣/ ٦٧ ـ ٦٨.

طالب العلم واستعارة الكتب

طالب العلم واستعارة الكتب

إعارة الكتاب لمحتاجه والمستفيد منه تعدّ نوعاً من سبل نشر العلم، بل إن الكتاب المعار أشبه بالسهم، فكما أن السهم يجري أجره على صانعه المحتسب في صنعته والرامي به والممد به، فكذلك الكتاب يجري أجره على كاتبه ومعيره ومستعيره، وطابعه وناشره كذلك، إذا أرادوا بذلك مرضاة الله تعالى.

قال محمد بن مزاحم: (أول بركة العلم: إعارة الكتب)[1].

لكن إعارة الكتب ليست مطلقة على عواهنها، بل لها ضوابط، منها:

١ - أن يكون الكتاب المعار نافعاً غير ضار، إلا إذا كان المستعير ممن يعرف ضرر الكتاب، وإنّما استعاره لتبيين ضرره أو للرد عليه.

٢ - أن يكون مالك الكتاب غير محتاج له وقت الإعارة.

٣ - أن يكون المستعير أهلاً للإعارة، كمعرفته بقيمة الكتاب، وشعوره بأداء الأمانة إلى مالكها، أما إن كان مريد الاستعارة جاهلاً بقيمة الكتب، وإنما أراده لقطع الوقت، أو لبعض أصحابه ممن كان على شاكلته، أو لأهل بيته ممن لا يعرف قدر الكتاب كصغير أو جاهل، فالأولى عدم الإعارة، وإن بليت بمثل هذاالنوع - ولا مفرّ لك - فأوصه وبالغ في وصيته بحفظ الكتاب وإرجاعه في أقرب وقت.

٤ - إذا كان للكتاب نسختان، وكان المستعير ممن يجهل قيمة الكتاب، فأعطه النسخة الرديئة.

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٥.

٥ ـ إذا كان لك بعض الكتابات على غلاف الكتاب الداخلي وخشيت تأخر الكتاب، فحاول كتابة رؤوس أقلام تلك التعليقات في أوراق تحفظه عندك؛ ليكون سهلاً العثور عليها عند الحاجة لها.

٦ ـ إن رأيت من المستعير إهمالاً للكتاب أو تأخراً في إرجاعه، فالحذر من إعارته مرة أخرى، ولا تُلدغ من جحر مرتين.

٧ ـ مما يعين على معرفة الكتب المستعارة من مكتبتك: أن تجعل لك دفتراً خاصاً بالاستعارة، يكتب فيه اسم المستعير، والكتاب المستعار، وتاريخ الاستعارة، ولزيادة التوثيق: لو يُكتب هاتف المستعير؛ للاتصال به في حالة تأخر إرجاع الكتاب.

٨ ـ على المستعير أن يحرص على حفظ الكتاب مدة بقائه عنده، وأن يبادر برده إذا قضى حاجته منه، وعليه أن يحذر من الكتابة على صفحاته إلاّ بإذن صاحبه.

إذا استعرتَ كتابي وانتفعتَ به
فاحذر وقيت شرّاً أنْ تغيرهُ
واردده لي سالماً إني شُغِفتُ به
لولا مخافة كتم العلم لم تَرَهُ

لطيفة: كان بعض أهل العلم لا يعير كتاباً إلاّ بِرَهْنٍ على الكتاب المعار، قال السّكن: (طلبت من إبراهيم بن ميمون الصائغ كتاباً، فقال: هات رهناً، فدفعت إليه مصفحاً رهناً)(١).

وأنشد علي بن أبي بكر الطّرازي:

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٨.

يـــا مستعيـــر كتـــابـــي ... لا تكثـــرنَّ عتـــابـــي
إلاّ بـــرهـــنٍ وثيـــق ... مـــن فضـــةٍ أو ثيـــابِ

وأنشد أبو حفص عمر بن عثمان الجنزي:

إذا مـا أعـرتَ كتـابـاً فخـذْ ... علـى ذاك رهنـاً وخـلّ الحيـاء
فـإنّـك لـم تَتهـم مستعيـراً ... ولكـنْ لتَـذكُـرَ منـه الأداء

وبعد هذا أنقل كلاماً عن الاستعارة ذكره شيخي الكريم (عبدالله بن جارالله) أسكنه الله فردوسه الأعلى:

ذكر رحمه الله تعالى في كتابه «الثمار اليانعة» مقالاً جاء فيه:

(قرأت في إحدى المجلات عن أشخاص كوّنوا لهم مكتبات من كتب الناس! فكانوا يستعيرونها ثم لا يرجعونها، وانتشرت سرقة الكتب هذه تحت ستار الاستعارة، حتى اشتهر بها أناس من المعروفين بالمكانة الاجتماعية، وإن كان هذا طريقاً غير شرعي ولصوصية، فقد ذمّه السلف ووضعوا آداباً لاستعارة الكتب، من خالفها يمتنعون عن إعارته مرة أخرى.

فمن آداب الاستعارة:

توقير الكتاب والاهتمام بنظافته، وحدث هذا مع أبي حامد أحمد بن طاهر الإسفرائيني الفقيه، حين استعار منه رجل كتاباً، فرآه يوماً وقد أخذ عليه عنباً، ثم إنّ الرجل سأله بعد ذلك أن يعيره كتاباً، فقال: تأتيني إلى المنزل، فأتاه فأخرج الكتاب إليه في طبق وناوله إياه! فاستنكر الرجل ذلك، وقال: ما هذا؟ فقال أبو حامد: هذا الكتاب الذي طلبتَه، وهذا طبق تضع عليه ما تأكله! فعلم بذلك ما كان من ذنبه.

ومن آداب الاستعارة: ألاّ يُرجِع الكتاب متغيِّراً متكسّراً مهملاً، فإن فعلت ذلك عوقبت بمنعك من الاستعارة، كما فعل بعض أهل العلم حين

استعار منه رجل كتاباً، فردّه إليه بعد حين متكسراً متغيراً، عليه آثار البزور[١] وغيره، فسأله أن يعيره غيره، فقال له: ما أحسنت ضيافة الأول فنضيفك الثاني؟

أما فقد الكتاب المستعار، فهذه كبيرة من كبائر الاستعارة، لا يحق لمن فعلها أن يُعار بعد ذلك، حتى إنّ أحدهم بيّن ندمه على تضييع كتاب قد استعاره، فقال: إنّه أعاره رجل من وجوه بني هاشم بالبصرة دفتراً، فضاع، فتفجّع لذلك، فاعتذرت إليه وقلت:

يا مالكاً ما تزال راحته … تعطي المعالي وتبسط النِّعما
هبْ لمقرٍّ بالذنب معترفٍ … بواسع العفو منك ما اجترما
أعرتَهُ دفتراً تضنّ به … فخانه[٢] الدهر فيك فاصطلما
إعظامك العلمَ إذ فجعتَ به … يزيد عندي خطيئتي عِظَما

وجعل الشاعر الآخر رد الكتاب المستعار شرطاً في الإعارة فقال:

أيها المستعير مني كتاباً … إن رددتَ الكتاب كان صواباً
أنت والله إن رددتَ كتاباً … كنتَ أُعطِيتَه أخذتَ كتاباً[٣]

أمّا الامتناع التام عن الإعارة فغير محمود، قال أبو عبدالله محمد بن عثمان العكبري: أنشدني شيخي ابن الباقلاني المقرىء الواسطي:

كتبي لأهل العلم مبذولة … أيديهم مثل يدي فيها
متى أرادوها بلا مِنّة … عاريةً فليستعيروها
حاشاي أنْ أكتمها عنهموا … بخلاً كما غيريَ يُخفيها

---

(١) جمع: بِزر، وهو: حَبٌّ يلقى في الأرض للإنبات. المعجم الوسيط ١/ ٥٤.
(٢) هذه العبارة فيها نظر، ولعلها تدخل في سبّ الدهر. والله تعالى أعلم.
(٣) الثمار اليانعة ص٣٧٢ ـ ٣٧٣.

أعــــارنـــا أشيـــاخُنـــا كُتْبَهُـــم وسنـــــةُ الأشيــــاخ نُحييهـــا

وقد روى هذه الأبيات ابن السمعاني عن ابن الباقلاني وقال: أنشدني خميس الجوزي لنفسه[١].

قال محمد بن أحمد بن يعقوب: (رأيت رجلاً قدم رجلاً إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي، فادعى عليه أنّ له سماعاً في الحديث في كتابه وأنّه قد أبى أن يعيره، فسأل إسماعيل المدَّعَى عليه فصدقه، فقال: في كتابي سماعٌ ولست أُعيره، فأطرق إسماعيل ملياً ثم رفع رأسه إلى المدَّعَى عليه، فقال له: عافاك الله، إن كان سماعه في كتابك بخطك فيلزم أَنْ تعيره، وإن كان سماعه في كتابك بخط غيرك فأنت أعلم، قال: سماعه في كتابي بخطي ولكنّه يبطىء بردّه عليّ، فقال: أخوك في الدين، أُحِبُّ أَنْ تعيره. وأقبل على الرجل فقال: إذا أعارك شيئاً فلا تبطىء به)[٢][٣].

* * *

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٤٣٦.
(٢) الجامع للخطيب البغدادي ١/ ١٧٤.
(٣) وانظر للفائدة عن الاستعارة: الجامع للخطيب البغدادي من ١٧٣ إلى ١٧٩، وأدب الإملاء والاستملاء من ١٧٤ إلى ١٧٩.

طالب العلم وحفظ القرآن

طالب العلم وحفظ القرآن

لقد كان حفظ القرآن عند أهل العلم من الأساسيات التي يبدأ بها طالب العلم، ولذا فقد كان الواحد منهم لا يتردد عن الشروع بحفظه وضبطه، فأصبح حفظه سمة بارزة في مجتمع أهل العلم وطلبته، والناظر في كتب التراجم يرى مصداق ذلك، بل العجيب أنَّ بعضهم كان يعاب بعدم حفظه للقرآن، ومن شواهد ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب في ترجمة عثمان بن محمد بن أبي شيبة، قال ما نصه: (ثقة حافظ شهير، وله أوهام، وقيل: كان لا يحفظ القرآن).

ولابد أن يقال هنا: إنَّ حفظ القرآن ليس واجباً على طالب العلم، لكنَّ حفظه مفتاح لطريق الحفظ والفهم، وهذا مشاهد في طلبة العلم الحافظين له؛ ولذا عليك يا طالب العلم الاهتمام بهذا الأمر، ومضاعفة الجهد في التحصيل.

وليعلم طالب العلم أنَّ حفظ القرآن والعمل به مما يزيده رفعة وعلوًا، كما ورد في الحديث: **«إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»**[١].

وحامل القرآن مقدَّم في الدنيا والبرزخ والآخرة:

فتقديمه في الدنيا يشهد له قوله ﷺ: **«يؤمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله...»**[٢] وتقديمه في هذا المقام الشريف دليل على شرف منزلته.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

وأما تقديمه في البرزخ فيشهد له: ما كان من أمر الصحابة رضي الله عنهم، عندما كثر القتلى عليهم في يوم أحد، فشقّ عليهم أن يدفنوا كل ميّت في قبر، فاستأذنوا النبي ﷺ في دفن الرجلين والثلاثة في القبر الواحد فأذن لهم، وكان ﷺ يشرف على الدفن، فكانوا إذا جاؤوا بالأموات سأل النبي ﷺ: «**أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟**» فإذا أشير إلى أحدهم أمر بتقديمه(١).

وأما تقديمه وعلوه في الآخرة، فيشهد قوله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»(٢).

وكفى بهذا الشرف فخراً ورفعة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أنَّ بعض الناس يعتريه قنوط ويأس ويقول: أنا حفظي ضعيف، ولا أستطيع حفظ القرآن؛ لما أجد من الصعوبة.

فهذا الكلام قد يَرِد، لكن نحن نعلم أنَّ النفس كلما عودتها اعتادت، وأنَّ الإنسان الجاهل إذا دخل الكتاتيب تعلَّم القراءة والكتابة، وكلّنا قد ولدنا لا نعلم شيئاً، كما قال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(٣).

فهذه الجوارح هي أسباب التحصيل والحفظ، فإذا أخلص العبد النيّة لله أعانه الله على حفظ كتابه، وهناك خطوات وأمور تعين على حفظ القرآن الكريم، ومنها:

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد.
(٣) النحل: ٧٨.

١ ـ الإخلاص لله عز وجل وأن يكون حفظه ابتغاء مرضاته، وأن يكون عوناً له على طاعة الله وعلى تحصيل العلم، فإذا جاهد الإنسان نفسه في تقويم نيّته، وجاهد نفسه في عمل الأسباب من قراءة القرآن وترديده بكثرة في آناء الليل وأطراف النهار، فإنَّ ذلك إن شاء الله ييسر له حفظ القرآن.

٢ ـ قراءةُ تفسير ما تريد حفظَه من الآيات. أليس من التقصير أننا نحفظ سوراً قبل أن يمر علينا سنّ التكليف، وإلى هذه اللحظة ونحن نجهل كثيراً من كلماتها أو من ألفاظها؟! فمثلاً ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[(١)] لو قيل لنا ما معنى الإيلاف؟ لتوقف كثير منّا. ولو قيل لنا: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[(٢)] ما معنى هذه الألفاظ؟ لكان الجهل من بعضنا هو الجواب، وهذا ممّا يعاب به طالب العلم، ولاشك أنَّ هذا من الخلل في شخصية طالب العلم.

وقد يقول قائل: وهل هذا يجب عليَّ؟ فيقال: لا ليس واجباً عليك، ولكن يعاب عليك أن تحرص على الحفظ المجرد لهذه الألفاظ القرآنية وأنت تجهل معناها، ولقد كان اهتمام السلف بالمعاني ـ كما ذكر شيخ الإسلام ـ أكثرُ من اهتمامهم بحفظ الألفاظ[(٣)].

وكانوا يعملون بما يحفظون، قال أبو عبدالرحمن السلمي: (حدثنا الذي كانوا يُقرؤوننا القرآن أنهم إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعلم

(١) قريش: ١.
(٢) العاديات: ٤ ـ ٦.
(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية.

والعمل جميعاً)[١].

ويقال في هذا المبحث أيضاً: إنّ مما يعين على الاهتمام بمواصلة الحفظ: ربط الحفظ بالفهم، أن يقرأ تفسيراً مختصراً لما حفظه من الآيات، ومن ثمّ ينتقل إلى تفسير أكثر بسطاً من سابقه، ولعل مثال الأول: تفسير الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى، ومثال الثاني: مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى.

ومما يحسن أن يضاف إلى ما سبق: كتاب: «الصحيح المسند من أسباب النزول» للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، وكتاب: «دفع إيهام الاضطراب» للشيخ الشنقيطي، وكتاب: «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبو شهبة.

٣ ـ القيام بما يحفظ في صلاة الليل وترداد ذلك؛ لقوله ﷺ: «**إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه**»[٢].

وإنَّ من المجرَّب ـ كما ذكر غير واحد ـ أنَّ من حفظ آيات ثم صلّى بها صلاة الليل وأعاد ذلك مرات وكرات، فإنَّ ذلك يزيد الحفظ رسوخاً في ذهنه، بخلاف ما لو كررها دون صلاة.

٤ ـ تكرار القراءة في غير الصلاة، وهي متعلقة بالتي قبلها.

٥ ـ أن يكون الحفظ بالتلقي؛ لأنَّك قد تخطىء في قراءة بعض الآيات فتحفظها كذلك، وأعرف بعض القراء ممن يحفظ القرآن وقال لي: كنتُ أقرأ بعض الألفاظ خطأً حتى تنبهت، ولم أتنبه إلاَّ بالفحص والتلقي. وذكر مثالاً

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢، مقدمة في أصول التفسير ص٥.

(٢) مسلم بشرح النووي ٦/ ٧٦، السلسلة الصحيحة، رقم ٥٩٧.

لبعض تلك الآيات، وإذا حفظ الإنسان بالتلقي على شيخ معين أو شريط معيّن، فإنَّ هذا بإذن الله مما يقلل خطأه في القراءة.

٦ ـ أن تكون القراءة أو الحفظ على نسخة واحدة؛ لأنَّ الإنسان وهو يقرأ يتخيّل موضع الآيات، فإذا اختلفت النسخ فإنَّ هذا مدعاة إلى تشتت الذهن، مما يؤدي إلى سوء الحفظ.

بعد هذا يقال: إنّ الواحد منّا يستطيع أن يوفر له في كل يوم ساعة ـ على الأقل ـ لمراجعة حفظه، وذلك في الوقت بين الأذان والإقامة، فإذا كان طالب العلم حريصاً على التقدُّم إلى المسجد مع الأذان أو قبيل الأذان فسيحصل على ثلث ساعة ـ تقريباً ـ بعد أذان الفجر، وثلثٍ بعد الظهر، وثلثٍ بعد العصر، وثلثٍ بعد العشاء. والمجموع أكثر من ساعة، ولو وطّنَ الواحد منّا نفسه على هذا، لتحصّل على منافع عظيمة، من أجر التقدم إلى المسجد، وإدراك الصف الأول، ومن ثمّ تفرغه للحفظ والمراجعة، والموفَّق من وفّقه الله.

وأيضاً: فإنّ تكرار القراءة للقرآن يفتح آفاقاً من المعرفة لطالب العلم، فقد ذكر عباس بن عبدالدايم المصري الكناني عن شيخ ضرير أنّه أوصاهم بوصايا، منها: وصيته لهم بكثرة القراءة، فقال: (أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنّه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ماتقرأ. قال: فرأيت ذلك وجربته كثيراً، فكنت إذا قرأت كثيراً تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي)[1].

وهنا أمر لابد من التنبيه عليه وهو:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٩٨.

الحذر من دخول اليأس إلى قلبه بسبب طول مدّة الحفظ.

فلقد كان السلف يجلسون الزمن الطويل في حفظ السورة الواحدة وما يزيدهم ذلك إلاّ مثابرة وحرصاً، فلقد ورد أنّ ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما: مكث بضع سنين في سورة البقرة[١].

وقال أبو بكر بن عياش: (قرأت القرآن على عاصم بن أبي النجود، فكان يأمرني أن أقرأ عليه في كل يوم آية لا أزيد عليها، ويقول: إنّ هذا أثبت لك. فلم آمن أن يموت الشيخ قبل أن أفرغ من القرآن، فما زلت أطلب إليه، حتى أذن في خمس آيات كل يوم!)[٢].

فياطالب العلم، حذار من اليأس، وابذل جهدك بصدق، فلن ترى ـ بإذن الله ـ إلاّ ما يَسرُّكَ ويُثْلِجُ صدرك، وتذكر قول النبي ﷺ: «**إنّما العلم بالتعلم**...»[٣].

وقوله: «... **ومن يتصبّر يصبّره الله**...»[٤].

واعلم: أنَّ أطر النفس على العلم ومجاهدتها على ذلك، يورث الطالب علماً جمّاً، والناظر في سير السلف الصالح يرى مصداقية ذلك، وكما قيل: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وإليك أمثلة من قوّة حفظ وحرص السلف رحمهم الله تعالى؛ علّها أن تكون سبباً معيناً للحرص على الطلب والحفظ، فمن ذلك:

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، قال: ذكره مالك.
(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٤٢.
(٣) رواه الدارقطني وغيره.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

قول مجاهد: (صليت خلف مسلمة بن مخلد، فقرأ سورة البقرة فما ترك واواً ولا ألفاً)[١].

وقال حفص بن غياث: (من جلالة ابن أبي ليلى أنّه قرأ القرآن على عشرة شيوخ)[٢].

(وكان الأعمش يعرض القرآن فيُمسكون عليه المصاحف، فلا يخطىء في حرف واحد)[٣].

ومن حفظهم في غير القرآن:

قال أبو داود: (أملى [إسحاق] أحد عشر ألف حديث من حفظه، ثم قرأها علينا فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً)[٤].

وقال عمر بن شبّة: (أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة)[٥].

وبكل حال: يستفاد مما سبق أنَّ مما يعين على حفظ القرآن الكريم:

١ ـ دعاء الله بصدق وإخلاص أن يعينه على حفظه، وأن يكون قصده مرضاة الله تعالى علماً وعملاً.

٢ ـ أن يرتب له وقتاً يومياً ـ إن استطاع ـ يتفرغ فيه تفرغاً كليّاً لقراءة الحفظ.

٣ ـ أن يسمّع القَدْرَ الذي يريد حفظه على قارىء ضابط.

٤ ـ أن تكون مراجعته للمحفوظ في أوقات مرتبة، وأن يحاول جاهداً عدم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٢٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣١٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٥.

(٤) تهذيب التهذيب ١/ ٢١٧.

(٥) تهذيب التهذيب ٦/ ٤١٦.

الإخلال بها.

٥ ـ أن تكون النسخة أو الطبعة التي يحفظ عليها واحدة؛ ليزداد حفظه رسوخاً في ذهنه.

٦ ـ أن يردّد مايحفظ عشرات المرات قائماً وقاعداً وماشياً، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٧ ـ أن تكون قراءته في صلاته من حفظه الجديد؛ فذلك أدعى لرسوخ الحفظ.

٨ ـ أن يقرأ تفسير الآيات التي حفظها، وفي ذلك مصلحتان رواية ودراية، رواية القرآن وحفظه، ودراية معانيه وفهمه.

٩ ـ ليحذر من المعاصي؛ فمن آثارها: نسيان العلم والحفظ، قال الضحاك: (ما تعلّم أحد القرآن فنسيه إلاّ بذنب ـ ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1] ـ ثم قال: وأيّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؟)[2].

وقال بشر بن الحارث: (إن أردتَ أن تُلَقّن العلم فلا تعص)[3].

وقبل ختام هذا المبحث يقال:

احرص يا من أكرمك الله بحفظ القرآن كاملاً على مراجعة الحفظ وتعاهده؛ فإنّه كما قال ﷺ: «**تعاهدوا هذا القرآن؛ فإنّه أشد تفلّتاً من الإبل في عُقُلها**»[4].

---

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) مختصر قيام الليل ص١٦٢.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٩٨.

(٤) رواه الشيخان وأحمد.

واحذر من التذرع بالأشغال أو التسويف في أمر التعاهد، واجعل التعاهد أصلاً والأشغال عرضاً، فبذلك - إن شاء الله - يبقى الحفظ منضبطاً في ذهنك.

١٠ - أن يكون مقدار الحفظ قليلاً؛ ليكون أثبت لحفظه، قال أبو بكر بن عياش: (قرأت القرآن على عاصم بن أبي النجود، فكان يأمرني أن أقرأ عليه كل يوم آية لا أزيد عليها، ويقول: إنَّ هذا أثبت لك. فلم آمن أن يموت الشيخ قبل أن أفرغ من القرآن، فما زلت أطلب إليه، حتى أذن لي في خمس آيات كل يوم)[١]!

* * *

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٤٢.

طالب العلم والقول بلا علم

طالب العلم والقول بلا علم

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١).

وقال تعالى عن نوح عليه السلام لمّا سأله نجاة ابنه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾(٢).

وقال تعالى معاتباً أهل الكتاب: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

ففي الآية الأولى أدّب الله نبيه ﷺ بأدب عظيم، وهو الإمساك عمّا ليس له به علم وعدم الخوض فيه، وفي الآية الثانية نهى الله نبيه نوحاً عليه السلام عن سؤال ما ليس له به علم، وفي الآية الثالثة أنكر الله على أهل الكتاب محاجتهم فيما ليس لهم به علم وعدّ ذلك من جهالاتهم، فالواجب على من جهل شيئاً أن يمسك عن الخوض فيه، ولْيعلم أنّ هذا من مناقبه وليس من مثالبه، وقد قرر أهل العلم من السابقين واللاحقين خطورة هذا الباب، وهو التكلم بلا علم. وأسوق إليك قليلاً من كثير من كلامهم حول هذا البحث:

قال ابن جماعة: (إذا سئل عما لا يعلمه قال: لا أعلمه، أو: لا أدري، فمن العلم، أن يقول: لا أعلم، وعن بعضهم: «لا أدري» نصف العلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخطأ العالم «لا أدري» أصيبت

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) هود: ٤٦.

(٣) آل عمران: ٦٦.

مقاتله.

وقيل: ينبغي للعالم أن يورّث أصحابه «لا أدري»؛ لكثرة ما يقولها.

واعلم أنّ قول المسؤول: «لا أدري» لا يضع من قدره، كما يظنّه بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنّه دليل على عظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته، وقد روينا معنى ذلك عن جماعة من السلف، وإنّما يأنف من قول: «لا أدري» مَن ضعفت ديانته، وقلّت معرفته؛ لأنّه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، وهذه جهالة ورقّة دين، وربما يشهر خطأه بين الناس، فيقع فيما فرّ منه، ويتصف عندهم بما احترز عنه.

وقد أدّب الله تعالى العلماء بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، حين لم يَرُدَّ موسى عليه السلام العلمَ إلى الله تعالى لمّا سئل: هل في الأرض أعلم منك؟)(١).

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى:

(ومن أعظم ما يجب على المعلمين: أن يقولوا لما لا يعلمونه: الله أعلم، وليس هذا بناقص لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرهم، ويُستدل به على كمال دينهم، وتحريهم للصواب.

وفي توقفه عمّا لا يعلم فوائد كثيرة:

منها: أنّ هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنّه إذا توقف وقال: الله أعلم، فما أسرع ما يأتيه علم ذلك من

---

(١) تذكرة السامع ص٤٢ ـ ٤٣.

مراجعته أو مراجعة غيره؛ فإنّ المتعلم إذا رأى معلمه قد توقف؛ جدّ واجتهد في تحصيل علمها وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر!

ومنها: إذا توقف فيما لا يعرف؛ كان دليلاً على ثقته وأمانته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أنّ من عُرف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم؛ كان ذلك داعياً للرَّيب في كل ما يتكلم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها: أنّ المعلم إذا رأى منه المتعلمون التوقف فيما لا يعلم؛ كان ذلك تعليماً لهم وإرشاداً لهذه الطريقة الحسنة، والاقتداء بالأقوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال)[1].

قال الإمام ابن مفلح رحمه الله تعالى:

(**فصل في قول العالم: لا أدري، واتقاء التهجم على الفتوى**) ثم قال:

(قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ترك العالم «لا أدري» أصيبت مقاتله. وكذا قال علي بن الحسين.

وقال مالك: كان يقال: إذا أغفل العالم «لا أدري» أصيبت مقاتله. وقال أيضاً: كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وسيّد العالمين يُسأل عن الشيء، فلا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء.

وقال الشعبي: «لا أدري» نصف العلم.

وصحّ عن ابن عمر رضي الله عنهما: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنّة ماضية، ولا أدري.

وبإسناد حسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: مِن عِلْمِ الرجل

---

(١) الفتاوى السعدية ص٦٢٨ ـ ٦٢٩.

أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم؛ لأنّ الله عز وجل قال لرسوله ﷺ: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾(١).

وقال أحمد في رواية المروذي: ليس كل شيء ينبغي أن يتكلم فيه. وذكر أحاديث النبي ﷺ، كان يُسأل فيقول: لا أدري، حتى أسأل جبريل.

وقال سفيان: من فتنة الرجل إذا كان فقيهاً: أن يكون الكلام أحبّ إليه من السكوت.

وقال المروذي: قلت لأبي عبدالله: العالم يظنونه عنده علم كل شيء! فقال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنّ الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون.

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: خمس لو سافر الرجل فيهن إلى اليمن لَكُنّ عوضاً عن سفره: لايخشى عبد إلاّ ربه، ولا يخاف إلاّ ذنبه، ولا يستحي مَن لا يَعْلَمُ أن يتعلّم، ولا يستحي من تعلّم إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: الله أعلم، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وإذا قطع الرأس توي الجسد.

وقال القاسم وابن سيرين: لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول ما لا يعلم.

وقال سعيد بن جبير: ويل لمن يقول لما لا يعلم: إنّي أعلم.

وقال مالك: من فقه العالم أن يقول: لا أعلم؛ فإنّه عسى أن يهيأ له الخير)(٢).

---

(١) سورة صٓ: ٨٦.
(٢) الآداب الشرعية ٢/ ٦٤ إلى ٦٩ باختصار.

وقال الغزالي: (لو سكت مَن لا يعرف؛ قَلّ الاختلاف، ومن قصر باعه وضاق نظره عن كلام علماء الأمّة والاطلاع عليه، فما له وللتكلّم فيما لا يدريه، والدخول فيما لا يعنيه؟ وحق مثل هذا أن يلزم السكوت)(١).

وقال مالك رحمه الله تعالى: (وينبغي للمرء أن لا يتكلّم إلاّ فيما أحاط به خُبراً)(٢).

وقال السيوطي رحمه الله تعالى: (... ردّ الجواب على من عَلِمَه فرض، كما قال الله لآدم: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، والسؤال على من لا يعلم فرض، قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾)(٣).

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سأله أعرابي: أترث العمّة؟

فقال: لا أدري، قال: أنت لا تدري؟! قال: نعم، اذهب إلى العلماء فاسألهم.

وسأل رجل عمرو بن دينار عن مسألة فلم يجبه، فقال الرجل: إنَّ في نفسي منها شيئاً فأجبني، فقال: إن يكن في نفسك منها مثل أبي قبيس أحبّ إليّ من أن يكون في نفسي منها مثل الشعرة.

وقال ابن مهدي: سأل رجل مالك بن أنس عن مسألة، فطال ترداده إليه فيها وألحّ عليه، فقال: ما شاء الله، يا هذا، إنّي لم أتكلّم إلاّ فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه(٤).

---

(١) الحاوي للفتاوي ٢/١١٦.
(٢) التراتيب الإدارية١/ ٤٠٤.
(٣) الحاوي للفتاوي ١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٤) الآداب الشرعية ٢/ ٦٤ ـ ٦٩ باختصار.

وقال محمد بن عبدالحكم: سألت الشافعي رحمه الله تعالى عن المتعة: أكان فيها طلاق أو ميراث أو نفقة تجب أو شهادة؟ فقال: والله ما ندري[١].

ولمّا تكلّم الإمام الذهبي رحمه الله تعالى عن عُمُرِ سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال ما نصه: (وما أراه بلغ المائة، فمن كان عنده علمٌ فليفدنا، وقد نقل طول عمره أبو الفرج بن الجوزي وغيره، وما علمتُ في ذلك شيئاً يركن إليه. . ، وقد ذكرتُ في تاريخي الكبير أنّه عاش مائتين وخمسين سنّة! وأنا الساعة لا أرتضي ذلك ولا أصححه)[٢].

قال أبو إسحاق: بلغني أنّ رجلاً جاء إلى عمرو فقال: عليّ رقبة من ولد إسماعيل، فقال: ما أعلمها إلاّ الحسن والحسين، قلت ـ أي الذهبي ـ: مافهمته[٣].

قال ابن عيينة: كان أبوالحصين إذا سئل عن مسألة قال: ليس لي بها علم، والله أعلم[٤].

وأورد ابن كثير أثراً عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾[٥] ثم قال ابن كثير: (وحكى لي شيخنا الحافظ أبوعبدالله الذهبي: أنّه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية فاستشكله وتوقف في ذلك، والله أعلم)[٦].

---

(١) تذكرة السامع ص٤٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٨٦.
(٤) تهذيب التهذيب ٧/ ١٢٧.
(٥) سورة النساء: ٢٣.
(٦) تفسير ابن كثير ١ ـ ٤٩٨.

وقال القاسم بن محمد: (وكنت أجالس البحر ابن عباس، وقد جلست مع أبي هريرة وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ فأكثرتُ، فكان هناك ـ يعني ابن عمر ـ ورع وعلم جمّ، ووقوف عمّا لا علم له به)[١].

ومن ذلك اعتراف الذهبي بعدم معرفته. انظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١ مع الحاشية ١٣/ ١٥٨.

ومثل ذلك ماذكره الإمام ابن حزم في مفتتح كتابه «حجة الوداع» ص١٣ وص٢٨.



(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٥.

طالب العلم والإشاعة

طالب العلم والإشاعة

مما عمّت به البلوى: مسألة الإشاعة، وهي آفة عظيمة، ومما زاد ضررها: أنّها وجدت لها سوقاً رائجة، وبضاعة نافقة، وأخطر من هذا أنّ الناقلين والمتلقفين لها لا يكترثون ولا يقدِّرون الآثارَ الناتجة عن بث الإشاعة.

وشاهد القول في هذا المقام: أن يكون لطالب العلم موقف متميّز من تلك الإشاعات، وأن يربأ بنفسه أن يكون كأولئك الفضوليين الذين لا همّ لهم إلاّ بث تلك الإشاعة، عند كل أحدٍ في كل مجلس، غير آبهين بحكم الإسلام في مثل هذا.

فيا طالب العلم، لتكن لك شخصيتك العلمية قولاً وفعلاً.

واحذر من أن يكون اسمك ملفوظاً في كل مجلس، مقروناً بتلك الإشاعة، ثم هب أن ذلك كان، فما المصلحة من مصاحبة اسمك لتلك الإشاعة؟!

والأدهى من ذلك أن تكون الإشاعة زوراً وبهتاناً، فقل لي بربك: كيف تكون نظرة عوام الناس لك فضلاً عن طلبة العلم؟ فلا تكن حمّالاً لكل خبر مشّاءً به في كل مجلس، وتذكر قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾(١).

فكم قد أصابت الإشاعة بريئاً بتهمة ولوثت سمعته، وجعلت سيرته

---

(١) الحجرات: ٦.

مضغة علىٰ ألسنة كثير من الناس وهو منها براء.

وتذكر أيضاً قول النبي ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»(١).

وقال إياس بن معاوية يوصي سفيان بن حسن: (احفظ ما أقول لك: إيّاك والشناعة في الحديث؛ فإنه قلّما حملها أحد إلا ذل في نفسه وكذب في حديث)(٢) والشواهد في هذا الباب كثيرة.

والمقصود: أن طالب العلم ينبغي أن يكون مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أخرج ابن ماجه بإسناد حسن: «**إن من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه**» [صحيح الجامع].

فعليه أن يتذكر ويذكّر ناقل الإشاعة:

- بتقوى الله تعالى ومراقبته في كل ما يقول أو يفعل.
- وأن يذكّره أيضاً بأنه محاسب عن كل كلمة يقولها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾(٣).
- وأن يجعل قصده سليماً لا لوث فيه، إن ابتلي بنقل تلك الإشاعة.

وأن يحذر من سوء القصد، كأن يستغل ترويج الإشاعة بدافع شخصي من نفسه، بقصد تشويه سمعة المنقول عنه وانتقاصه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا

---

(١) رواه مسلم.
(٢) مقدمة صحيح مسلم ١/ ٧٥ ـ ٧٦ (بشرح النووي).
(٣) الانفطار: ١٠ ـ ١١.

﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾(١) ، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾(٢) .

ـ وعليه أن يوصي ناقل الإشاعة بالتروِّي والتثبت في كل ما يقول .

وأن يُحذِّرَه من التزيّد في الكلام .

وأن لا ينقل إلاّ ما كان متأكداً من سماعه أو رؤيته حتى تبرأ ذمته .

وأن يكون مقصده من نقل الإشاعة التأكد من صحتها إن كان في ذلك مصلحة .

ـ وأمر آخر أيضاً : وهو أن يُفرّق بين المجالس التي يرتادها أو الجليس الذي يجالسه ، فلا يتحدث أو يفاتح بالإشاعة كل أحد ، دون تقييم للجليس أو المجلس .

فمن الجلساء والمجالس ما يكون سبباً في ترويج الإشاعة على وجوه مختلفة ، بل قد يتعمد بعضهم إضفاء نوع من أسلوب الإثارة في سرد الإشاعة ، وهنا يتسع الخرق على الراقع ، وهذا ديدن المجالس التي يحضرها غوغاء الناس .

وعلى طالب العلم أن يوصي صاحب الإشاعة باستشارة أهل العلم في ترويج تلك الإشاعة ، فيرى مشورتهم في ذلك ، فلعلهم ـ وهو الغالب ـ ينبهون إلى أمور غفل عنها أو يراها راجحة فتكون مرجوحة بعد ذلك أو العكس .

---

(١) البقرة : ٢٣٥ .
(٢) غافر : ١٩ .

ـ وأمر آخر وأخير :

إن كانت الإشاعة حول شخص موسوم بالخير والصلاح، فينبغي أن تُحمل على المحمل الحسن، والتماس المعاذير له هو الأصل، إن كان للعذر مسوغ شرعي.

فإن لم يكن في ذلك ما يسوغ الموقف، فعليه أن يوصي ناقل الإشاعة بمناصحة أو مكاتبة المشاع عنه؛ حتى يستقيم عِوَجُه وخَلَلُه.



طالب العلم وقيام الليل

طالب العلم وقيام الليل

أخي طالب العلم، إنّ المتصفّح لتراجم سلفنا الصالح، ليعجب ويدهش مما يقرأ عن عبادتهم ومحافظتهم على النوافل، ناهيك عن الفرائض: فأحدهم يقوم أوّل الليل، وآخر يقوم آخره، وثالث يقوم وسطه، ورابع يجمع بين أطرافه. كل على قدر جهده وطاقته.

وكان هذا الحرص وغيره ـ بعد عون الله ـ معيناً لهم على فعل الخيرات، وترك المنكرات، والمواظبة على الطاعات، وسبباً في زيادة البركات في الأوقات، (قال بشر: . . . ولي حفص بن غياث القضاء من غير مشورة أبي يوسف، فاشتدّ عليه، فقال لي ولحسن اللؤلؤي: تتبعا قضاياه. فتتبعنا قضاياه، فلما نظر فيها، قال: هذا من قضاء ابن أبي ليلى، ثم قال: تتبعوا الشروط والسجلّات ففعلنا، فلما نظر فيها، قال: حفص ونظراؤه يعانون بقيام الليل. .)[١].

وبعد هذا يا أُخي اعلم ـ رعاك الله ـ أنّ طالب العلم يتميز عن الآخرين بما حباه الله تعالى وأكرمه من الانتساب إلى هذه الطائفة المباركة (أهل العلم) ولذا فعليه أنْ يحرص جاهداً أنْ يرعى هذه المكّرمة المباركة، وأنْ يجتهد حسب استطاعته في المسارعة إلى فعل الخيرات، على تنوّع أبوابها، وفي المقابل أن يجتهد في ترك ما يخرم مروؤته فضلاً عن المنكرات.

وعوداً على بدء يقال:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣١٣.

إنه لابدّ من تميّز طالب العلم بالخُلق والفضل والسمت، والحرص على أنواع العبادة، كل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى أولاً، ثم ليزكي ما آتاه الله من العلم والدين؛ ليكون قدوة صالحة لمن رآه أو سمعه أو جالسه.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه:

(ينبغي لحامل القرآن أنْ يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبتواضعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون)[١].

وهكذا فليكن طالب العلم قدوة في حضوره، وقدوة في غيابه، وقدوة في عبادته، وقدوة في جميع شؤونه.

وبعد هذا، أذكر لك يا طالب العلم، بعض خصائص صلاة الليل، لعلها أن تكون حافزاً لي ولك، حتى نكون من أهلها:

من خصائص صلاة الليل:

وردت في فضل صلاة الليل أحاديث كثيرة، بل صنفت في ذلك مصنفات مستقلة[٢]، تتضمن شيئاً من أحكام تلك الصلاة وفضائلها، ومن تلك الفضائل:

* **أولاً**: أنها أفضل الصلاة بعد المكتوبة، قال ﷺ: «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل**»[٣].

---

(١) رواه الآجري في كتاب أخلاق أهل القرآن ص١٠٢.

(٢) مثل «قيام الليل» للمروزي، اختصار المقريزي.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

* **ثانياً**: أنها شرف للمؤمن، قال ﷺ: «**شرف المؤمن قيامه بالليل...**»[١].
* **ثالثاً**: أنها من دأب الصالحين.
* **رابعاً**: أنها قربة إلى الله تعالى.
* **خامساً**: أنها منهاة عن الإثم.
* **سادساً**: أنها تكفير للسيئات.
* **سابعاً**: أنها مطردة للداء عن الجسد.

ويجمع هذه الخصال قوله ﷺ: «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد**»[٢].

* **ثامناً**: أن صلاة الليل من أوائل وصايا النبي ﷺ لأهل المدينة عندما قدم عليهم لأوّل مرة.

فعن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[٣] الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ، عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذّاب، وكان أوّل شيء تكلّم به أنْ قال: «**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام؛ تدخلون الجنة بسلام**».

قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح[٤].

---

(١) رواه الخطيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، صحيح الجامع.
(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن بلال رضي الله تعالى عنه، صحيح الجامع.
(٣) انجفل الناس: أي ذهبوا مسرعين نحوه. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٩.
(٤) سنن الترمذي ج٤ص٦٥٢ حديث رقم ٢٤٩٠.

* **تاسعاً**: أنها تؤدى في خفاء الناس، وهذا أدعى لكثرة الأجر، قال ﷺ: «**صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس، تعدل صلاتَه على أعين الناس خمساً وعشرين**»(١).

* **عاشراً**: كون صلاة الليل تصلى غالباً في وقت نزول الرب إلى السماء الدنيا، وهو وقت شريف، يقول الله فيه: هل من داع فأجيبه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟

* **حادي عشر**: أنها سبب في رفع الدرجات، ودليل ذلك حديث معاذ رضي الله تعالى عنه، وفيه: وما الدرجات؟ قال: «**إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام**...»(٢).

* **ثاني عشر**: أنها باب من أبواب الخير، ودليل ذلك قوله ﷺ: «... **ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئةَ كما يطفىء الماءُ النارَ، وصلاة الرجل في جوف الليل**...»(٣).

إلى غير ذلك مما ورد في شأنها وفضلها.

وأمّا الثمرات التي يجنيها صاحب صلاة الليل فكثيرة جداً، فإضافة إلى ما تقدم بيانه من الفضائل، يقال: إنّ من ثمرات قيام الليل:

* **أولاً**: تعاهد القرآن بالحفظ والإتقان بالقيام به، فقراءة صلاة الليل ترسخ الحفظ في ذهن صاحبه، وبخاصة إذا بادر فور حفظه بالقيام به في صلاة الليل.

---

(١) رواه أبو يعلى عن صهيب رضي الله تعالى عنه، صحيح الجامع.
(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما.
(٣) رواه الترمذي وغيره.

* **ثانياً**: المعونة على الاستيقاظ لصلاة الفجر.

* **ثالثاً**: التشبه بالرعيل الأوّل.

إلى غير ذلك من المنافع والثمرات.

وبعد سرد بعض تلك الفضائل والثمرات المتعلقة بصلاة الليل، أسوق إليك أخي طالب العلم، بعض الأسباب المعينة على قيام الليل: فمن ذلك:

* **أولاً**: الدعاء، فمتى ما دعا العبدُ ربه وأخلص الدعاء وألحّ على الله في طلبه، فإن ذلك يكون أدعى للإجابة والقبول.

* **ثانياً**: المحافظة على الفرائض، فحرص العبد على أداء ما لا تبرأ الذمة إلاّ به، دليل على همّته في فعل أحبِّ ما يتقرب به إلى الله عز وجل.

* **ثالثاً**: تجنّب السهر إلاّ فيما دعت الحاجة إليه؛ لأن المرء إذا سهر إلى وقت متأخر، فالغالب أنه يتثاقل عن القيام إلى صلاة الليل، بل قد يؤدي ذلك إلى التثاقل عن صلاة الفجر.

* **رابعاً**: الحرص على القيلولة وسط النهار أو بعده؛ ففيها راحة للبدن ليستجمع قواه؛ حتى يكون نشيطاً في أثناء قيامه في صلاة الليل(١).

* **خامساً**: ترك المعاصي والإقلاع عنها، فالمعاصي حبائل الشيطان، نصبها ليقع فيها العبد، فتمنعه عن فعل الخيرات، قال رجل للحسن رحمه الله تعالى: أعجزنا قيام الليل؟ فقال: (قيدتكم خطاياكم).

بل قد يستمرئ العبدُ فعلَ الشر حتى يكون طبعاً له، أمّا إذا كان العبد

---

(١) فائدة: في تعريف القيلولة، قال ابن الأثير: (المقيل والقيلولة: الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ١٣٣.

حريصاً على نفسه، حَذِراً من مصائد الشيطان ومزالقه، وعَلِمَ الله منه ذلك؛ فسيرى من علامات التوفيق والسداد ما يسره ويشرح صدره، بإذن الله تعالى.

* **سادساً**: مجاهدة النفس على القيام وترك التثاقل والتسويف؛ فإن النفس متى ما أطرها وعوّدها صاحبها على شيء، فإنها تأخذ عليه ويسهل عليها، وقد قال ﷺ: «**إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحِلْم بالتحلّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقَّه**»[١].

وقال ﷺ: «. . . **من يستعفّ يُعفّه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله**. . . »[٢].

ففي هذه الأحاديث وغيرها بيان على أن من جاهد نفسه، وعوّدها على فعل شيء، فإنها بالمصابرة والمثابرة تأخذ على فعل ذلك الشيء وتتأقلم عليه، حتى يكون طبعاً لها.

وما أجمل ما قاله سليمان التيمي في هذا المقام:

(إن العين إن عودتها النوم اعتادت، وإذا عودتها السهر اعتادت)[٣].

ويشبهه قول الشاعر:

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهمله شبّ على
حب الرضاع وإنْ تفطمه ينفطمِ

ومن طريف ما روي عن الأعمش رحمه الله تعالى في هذا المقام ـ وهو يدل على زهده وورعه ـ ما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء، ونصه: (قال

---

(١) رواه الدارقطني والخطيب، صحيح الجامع.
(٢) أخرجه البخاري ١١/٣٠٩ الفتح.
(٣) مختصر قيام الليل للمروزي ص٥٥.

الأعمش: بلغني أن الرجل إذا نام حتى يصبح (يعني: لم يصل) توركه الشيطان فبال في أذنه، وأنا أرى أنه قد سلح في حلقي الليلة! وذلك أنه كان يسعل[١].

وقال أبو خالد: ذكر الأعمش حديث: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنه**» فقال: ما أرى عيني عمشت إلا من كثرة ما يبول الشيطان في أذني. وما أظنه فعل هذا قط. قلت [الذهبي]: يريد أن الأعمش كان صاحب ليل وتعبد)[٢].

* **سابعاً**: ومما يعين على قيام الليل بإذن الله تعالى:

اتخاذ الأسباب التي تمكن طالب العلم وغيره من القيام من النوم للصلاة، ومن تلك الأسباب:

١ ـ توقيت الساعة المنبهة على الوقت الذي يريد الاستيقاظ فيه.
٢ ـ الاتصال الهاتفي المبرمج[٣].
٣ ـ وصية أحد المعارف بالاتصال عليه، وبخاصة أولئك الذين يقومون بأذان الفجر الأول.

إلى غير ذلك من الأسباب التي يستطيع تحصيلها.

وأختم هذا المبحث بما ذكره الإمام ابن مفلح، نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله تعالى عليهما ـ قال:

(بات عند الإمام أحمد رجل فوضع عنده ماء، قال الرجل: فلم أقم بالليل ولم أستعمل الماء، فلمّا أصبحت قال لي: لِمَ لَمْ تستعمل الماء؟

---

(١) مختصر قيام الليل للمروزي ص٥٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٣) يمكن التعرّف على ذلك من خلال دليل الهاتف الرسمي.

فاستحييت وسكت، فقال: سبحان الله! سبحان الله! ما سمعت بصاحب حديث لا يقوم الليل.

وجرت هذه القصة له مع رجل آخر، فقال له: أنا مسافر، قال: وإنْ كنتَ مسافراً، حج مسروق[1] فما نام إلاّ ساجداً، قال الشيخ تقي الدين: فيه أنه يكره لأهل العلم ترك قيام الليل وإنْ كانوا مسافرين)[2].

فاحرص يا طالب العلم رعاك الله، على إحياء هذه الفضيلة العظيمة الأجر، ولتكن همتك عالية في الحرص على كل خير مهما استطعت إلى ذلك سبيلاً.



(١) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة، الكوفي، ثقة فقيه عابد مخضرم، مات سنة اثنتين ـ ويقال: سنة ثلاث ـ وستين. تقريب التهذيب ص٩٣٥.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ١٦٩/٢.

طالب العلم وبر الوالدين

طالب العلم وبر الوالدين

وهذا المبحث من الأهمية بمكان عظيم، وعلى طالب العلم أن يجعل هذا نصب عينيه؛ لعظيم شأنه وجليل قدره، فأمر الوالدين كبير وشأنهما رفيع.

وأدرى الناس بهذا أهلُ العلم؛ لعلمهم بدلالة النصوص الكثيرة في شأن الوالدين.

وليس المقام مقام سردها؛ ففي كتب الجوامع والرقائق والسلوك عشرات النصوص والآثار، فضلاً عن القصص والأخبار.

بل قد أفرد بعض المصنفين (من المتقدمين والمتأخرين) مصنفات مستقلة في (بر الوالدين) جمعت بين دفتيها كثيراً من النصوص والشواهد.

وبكل حال: يكفي شاهداً في هذا المبحث قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: (... ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين، فقال: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، كقوله في الآية الأخرى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

---

(١) الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

وقولُه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: أي لا تنفض يدك عليهما.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما...)[1].

وأمّا النصوص النبوية في شأن الوالدين فكثيرة جدًّا، فمن ذلك: ما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله...**»[2].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رجل للنبي ﷺ: أجاهد؟ فقال النبي ﷺ: «**لك أبوان**»؟ قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**»[3].

إلى غير ذلك مما تكاثر في الأحاديث.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧ / ٣٨.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

فيا طالب العلم، إنّ بر الوالدين في حقك متأكد أكثر من غيرك، فَقَبِّل رأسيهما صباحاً ومساءً، وتلطّف في القول معهما، واجعلهما يعرفان منك وعنك المحبة لهما، والشفقة عليهما والتوقير لجنابهما، وإدخال السرور عليهما. وكل ذلك من زكاة علمك، وردٌّ لبعض معروفهما.

وأسوق إليك أخي طالب العلم بعض الأخبار في بر بعض الأئمة بوالديهم، وحرصهم على ذلك، مع جلالة قدر أولئك الأئمة ورفعة منزلتهم: فمن ذلك:

١ ـ (أن إياس بن معاوية بكى لمّا ماتت أمه، فقيل: ما يبكيك؟ قال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة، وغُلِّق أحدهما).

٢ ـ وفي أخبار أبي حنيفة ذكر المؤلف[١]: (أن أمّ أبي حنيفة حلفت يميناً، فحنثت، فاستفتت أبا حنيفة، فأفتاها فلم ترضَ، وقالت: لا أرض إلاّ بما يقول زرعة القاص! فجاء بها أبو حنيفة إلى زرعة فقال: أفتيكِ ومعكِ فقيه الكوفة؟! فقال أبو حنيفة: أفتها بكذا وكذا، فأفتاها فرضيت!).

وقال أبو يوسف: (رأيت أبا حنيفة رحمه الله تعالى يحمل أمه على حمار إلى مجلس عمر بن ذر، كراهيةَ أن يردَّ على الأم أَمرَها)[٢].

٣ ـ وقال محمد بن بشر الأسلمي: (لم يكن أحد بالكوفة أبرَّ بأمه من منصور بن المعتمر وأبي حنيفة، وكان منصور يفلي رأس أمه ويذوبها)[٣].

---

(١) كتاب مناقب أبي حنيفة ١/ ٢٥٤ للإمام الموفق ابن أحمد المكي.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٥٥، والمراد بالأثر: أن أم أبي حنيفة كانت تأمر أبا حنيفة أن يسأل لها عمر بن ذر.

(٣) مناقب أبي حنيفة١/ ٢٥٥ وقد عقد المؤلف باباً سمّاه: في ذكر بره بوالديه وتعظيمه أستاذه رضي الله عنهما «أخبار أبي حنيفة وأصحابه» للصيمري ص٥٢ ـ ٥٣.

٤ ـ وسُئِلَ الإمام ابن عساكر عن سبب تأخره عن المجيء إلى أصبهان، فقال: (لم تأذن لي أمي)[١].

٥ ـ وكان حيوة بن شريح[٢] ـ وهو أحد أئمة المسلمين ـ يقعد في حلقته يعلم الناس، فتقول له أمه:

قم يا حيوة فألقِ الشعير للدجاج، فيقوم ويترك التعليم.

٦ ـ وقال محمد بن المنكدر[٣]: (بات عمر ـ يعني أخاه ـ يصلي، وبتُّ أغمر رجل أمي، وما أحب أن ليلتي بليلته).

٧ ـ وأمَّا الإمام الذهبي رحمه الله تعالى فقد ذكر عن نفسه أنه قرأ على شيخه الفاضلي ثم قال الذهبي: (ولما مات شيخنا الفاضلي قبل إكمالي القراءات؛ بقيت أتلهف، فذكر لي أبو محمد المكين الأسمر، وأنه باقٍ في الإسكندرية، وأنه أعلى رواية من الفاضلي [قال الذهبي]: فازددت تلهفاً وتحسراً على لقيّه، ولم يكن الوالد يمكِّنني من السفر)[٤].

وقال الذهبي أيضاً في ترجمة (عبدالرحمن بن عبداللطيف البغدادي): (وكنت أتحسَّرُ على الرحلة إليه، وما أتجسَّر؛ خوفاً من الوالد؛ فإنه كان يمنعني)[٥].

ورحل الذهبي إلى أحد الأئمة ومكث عنده مدة وقال: (وكنت قد

---

(١) تذكرة الحفاظ ص١٣٣٣.
(٢) ثقة ثبت فقيه زاهد. تقريب التهذيب، ترجمة ١٦١٠.
(٣) ثقة فاضل، تقريب التهذيب، ترجمة ٦٣٦٧.
(٤) معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٥١.
(٥) معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٥٦.

وعدت أبي وحلفت له أني لا أقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر، فخفت أعقه)[١].

كانت هذه بعض الأمثلة التي اخترتها لك؛ لترى كيف كان أولئك العلماء الكبار من أبرِّ الناس بوالديهم.

فأين نحن جميعاً من أولئك الأعلام؟!

فلنحرص على القيام بشأن الوالدين ففي ذلك:

طاعة لله تعالى، وطاعة للنبي ﷺ.

وسبب للبركة في العمر والرزق.

وسبب لبر الأبناء بالآباء.

وسبب لإجابة الدعاء، كما في خبر أويس القرني.

جعلنا الله ممن يبرون والديهم ويبرهم أولادهم[٢].



---

(١) معرفة القراء الكبار ٢/٥٥٨.

(٢) للفائدة: من الكتب المصنفة في «بر الوالدين»:
- بر الوالدين للإمام ابن الجوزي.
- بر الوالدين وصلة الأرحام للشيخ ابن جارالله.
- البر والصلة للإمام ابن الجوزي.
- بر الوالدين للأستاذ عبدالرؤوف الحناوي.
- ففيهما فجاهد للشيخ عبدالملك القاسم.

طالب العلم في أثناء الجدال العلمي

طالب العلم في أثناء الجدال العلمي

أخي طالب العلم:

قد يجمعك مجلس علم، يتخلله طرح بعض المسائل العلمية، التي تختلف فيها وجهات نظر من يجالسك، حسب بحث وفهم كل واحد منهم، فيقوم كلٌّ بإدلاء دلوه حسب بحثه وقراءته، وربما يصل الأمر إلى درجة المناظرة، فيبدأ كل واحد بطرح أدلته وما يعرف في تلك المسألة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقوم بالرد على من خالفه، وهذا لا غرابة فيه ولاعجب، فمجالس العلم لا تخلو غالباً من هذه المناظرات.

لكن كل ذلك بهدف التوصل إلى الحق وبيانه، ومن ثمّ رجوع المخالفين إليه، تظلهم في ذلك ظِلال المحبة والإخاء، هكذا كانت مجالس سلفنا مع بعضهم، والله نسأل أن يسلك بنا مسلكهم، فلنعم القوم هم.

شاهد المقال:

أن بعض المناظرات العلمية قد تخرج عن هدفها الأسمى، وتَجُرُّ أصحابها ى الوقوع بأنفسهم في محاذير شرعية، من حب الانتصار للنفس، والمكابرة في عدم الرجوع إلى الحق، وإظهار التشفِّي من الطرف الآخر عند رؤيته متراجعاً عن قوله.. إلى غير ذلك مما لا يليق بالمسلم العامي، فكيف بطالب العلم الذي يُنظَرُ إليه باعتباره قدوةً وأسوةً في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته؟

بعد هذا، أسوق بعض الآداب التي ينبغي لطالب العلم أن يتأدب بها أثناء المناظرة:

فمن آداب المناظرة العلمية:

١ ـ أن يكون القصد ابتغاء مرضات الله تعالى في إظهار الحق.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (.. ومن ذلك: أن المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب، وقد كان مقصود السلف المناصحة بإظهار الحق، وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل، وإذا خفي على أحدهم شيء نبهه الآخر؛ لأن المقصود كان إظهار الحق)[١].

٢ - أن يكون عالماً أو ملماً بالمسألة التي يناظر فيها.

فإن ذلك من أسباب قوة المناظرة، وكذلك من أسباب ظهور ثمرات المناظرة.

وللإمام ابن كثير رحمه الله تعالى كلام نفيس عن آداب المجادلة، قال رحمه الله تعالى بعد كلام له: (فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها، وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم.

فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً، فإن صح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ كذلك.

ومن نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر مما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي

(١) تلبيس إبليس ص١٢٠.

زور، والله الموفق للصواب)[١].

٣ ـ إظهار روح المودّة والأخوّة قبل وأثناء وبعد الجدل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين.

نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر منه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع)[٢].

٤ ـ ضبط النفس النفس وعدم الانفعال:

بل إنْ استطاع أنْ يلطف الجدال بكلماتِ مودةٍ واحترام طيلة المناظرة فليفعل، كمناداة صاحبه، بما يليق به من الألفاظ، ولو قرن ذلك بالدعاء له لكان أولى، ومن جميل ما ورد عن ابن عون رحمه الله تعالى أنه إذا أغضبه رجل، قال له: بارك الله فيك[٣]. وأَعجب منه ما روي عن يوسف ابن الإمام ابن الجوزي من ضبط نفسه في أثناء المناظرة، فقد حكي عنه: أنه كان يناظر، ولا يحرك جارحة![٤]

---

(١) مقدمة التفسير ١/ ١٠ ط مؤسسة الريان.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦٦.
(٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٦٠.

بل إن ذلك أيضاً ما ورد عن عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة: أنه كان لا يناظر أحداً إلا وهو يبتسم، حتى قال بعض الناس: هذا الشيخ يقتل خصمه بالتبسم![١].

٥ ـ المبادرة إلى الرجوع عند ظهور الحق مع صاحبه.

فالرجوع إلى الحق وترك ما سواه، من خصال أهل الحق، كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله تعالى عنهما ـ:

(... ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم، فراجعت فيه رأيك، فهديت فيه لرشدك، أن تراجع فيه الحق؛ فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل...)[٢].

ومن عجيب ما روي في الرجوع إلى الحق، ما نقل عن ابن الجوزي أنه كان يعمل بحديث يتضمن بعض الأذكار عقب الصلاة فقال: (كنت قد سمعت هذا الحديث في زمن الصبا، فاستعملته نحواً من ثلاثين سنة، لحسن ظني بالرواة، فلما علمت أنه موضوع تركته، فقال لي قائل: أليس هو استعمال خير؟ قلت: استعمال الخير ينبغي أن يكون مشروعاً، فإذا علمناأنه كذب خرج عن المشروعية)[٣].

٦ ـ عدم التشهير بخصمك عند غلبته في مجلس المناظرة:

فبعض الناس إذا تمكن من غلبة أخيه في مناظرته له، جعل تلك المناظرة

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١٣٧.
(٢) أطال ابن القيم النفس في شرح خطاب عمر إلى أبي موسى الأشعري، انظر: إعلام الموقعين ص٨٥ إلى ١٨٣ من الجزء الثاني.
(٣) الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢٤٥.

فاكهة مجالسه، فيتحدث بها مع كل جليس، وكيف أنه دحض حجج خصمه، وتمكن من تزييف قول صاحبه، وهكذا شأنه مع كل جليس.

وهذا التصرف مشين في حق طالب العلم؛ فربما يجرّه ذلك إلى باب الرياء وحب السمعة، وأيضاً ربما يكون سبباً في نفور أخيه عنه ونشوء الشحناء بينهما، بسبب تلك التصرفات التي إثمها أكبر من نفعها، بل لا ينفع فيها إذا كانت من هذا القبيل، فهذا التصرف يلج بصاحبه إلى باب الغيبة، وكان الأولى به أن يحمد الله ويشكره على توفيقه وإعانته على الوصول إلى الحق، وأن يكف عن ذكر ذلك خشية تلبيس إبليس، إلاّ إذا رأى في ذلك مصلحة، فيذكرها بأدب أهل العلم، فلا شماتة، ولا حبّ ظهور، بل سمت ووقار وثناء على أخيه.

قال الإمام ابن الجوزي: (. . . ومن ذلك: ترخّصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة، فيقول أحدهم: تكلمت مع فلان فما قال شيئاً! ويتكلم بما يوجب التشفي من غرض خصمه بتلك الحجة)[١].

٧ ـ شكر أخيك عند ظهور حجتك عليه، والثناء عليه في رجوعه إلى الحق:

إذا وفقك الله إلى ظهور حجتك على أخيك، ورأيت تراجعاً من أخيك عن قوله؛ فاحمد له هذا العمل، وبادره بثناء طيب على شخصه في رجوعه إلى الصواب، وأنّ هذا هو المظنون به، فذلك أدعى للمحبة والمودّة بين القلوب والأبدان.

٨ ـ إغلاق باب المناظرة إذا رأيت من الطرف الآخر عناداً وتعنتاً:

فربما يترتب على استمرار المناظرة بوادر الشحناء والبغضاء، وهنا

---

(١) تلبيس إبليس ص١٢٠.

يغيب الهدف الأسمى للمناظرة وينصب الشيطان راياته وألويته.

والأولى بك أن تلطف الكلام لصاحبك، وتنقل الحديث إلى موضوع آخر؛ لكي تخفّ الوطأ ومن ثمّ تزول بالكلية، فإذا رأيت بعد ذلك مصلحة في إعادة المناظرة فافعل، لكن بأسلوب تكسب به ودّ أخيك، وتردّه عن كيد الشيطان، وإنْ رأيت أنَّ المصلحة في عدم فتح باب المناقشة فافعل، مع إرشاده إلى بعض المراجع التي تعلم أنها أجادت في بيان الحق في تلك المسألة.

بعد هذا أخي، أسوق إليك عدداً من المراجع التي تكلمت عن آداب المناظرة لتتم الفائدة، فمن الكتب التي تتعلّق بالجدل وآدابه:

١ ـ المعونة في الجدل، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي، المعروف بالشيرازي.

٢ ـ أدب البحث والمناظرة، جزآن، محمد الأمين الشنقيطي.

٣ ـ الخلاف بين العلماء، أسبابه وموقفنا منه، الشيخ محمد العثيمين.

٤ ـ قواعد المنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي.

٥ ـ آداب الحوار والمناظرة، المستشار الدكتور علي جريشة.

٦ ـ آداب الحوار في الإسلام، م/ سيف الدين شاهين.

٧ ـ الحوار أصوله المنهجية وأهدافه السلوكية، أحمد بن عبدالرحمن الصويان.

٨ ـ الفاخر في أدب الحوار والمناظرة، علي صالح الهزاع.

٩ ـ الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، إعداد يحيى بن محمد حسن بن أحمد رمزي.

١٠ ـ في أصول الحوار، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

وصايا لطالب العلم

وصايا لطالب العلم

إنّ مما يبشر بخير ما نراه جميعاً من التوافد على طلب العلم، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدل على حبٍ للعلم وطلب العلم، ولكن لتعلم أنّ للعلم آداباً، وأنّ للعلم شروطاً، وأنّ له أموراً لزاماً على من شمّر عن ساعد الجد في الطلب أن يجعلها نصب عينيه، والعلم كما قال الذهبي: (ليس بكثرة الرواية، ولكنّه نورٌ يقذفه الله في القلب، وشرطه الاتباع والفرار من الهوى والابتداع) انتهى[١].

فعلينا أن نراجع ما سمعنا، وأن يذاكر بعضنا بعضاً ما حفظنا وما قرأنا، ووالله إن الإنسان يدرس سنة كاملة ولا يحصّل شطر ما حصّل في حلقات العلم في المساجد؛ إذْ أنّ الإنسان يذهب إلى تلك المدارس والكليات النظامية، وقد يعتري نيته ما يعتريها من تحصيله للشهادة، ومن سعي في تحصيل المادة، وما شاكلها، أمّا في حضوره في المسجد فالمظنون أنّه لم يحضر إلاّ لقصد الطلب والتحصيل، وليس من لازم هذا تقليل شأن الدراسة النظامية، ففيها خير كثير لمن وفقه الله، وقد سبق بيان شيء من ذلك[٢].

وقد آثرت أنْ أخص هذا المبحث بذكر وصايا لطالب العلم، وهذه الوصايا كلّما جعلها طالب العلم نصب عينيه واسترجعها، فإنّ فيها ـ بإذن الله ـ خيراً كثيراً؛ إذ أنّ هذه الوصايا مما نص عليه سلفنا وحمدوه لطالب العلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٣١٣.
(٢) انظر ص٧٧.

وكما تقدم فإنّ طالب العلم ليس بما يحفظ فحسب، بل لطالب العلم سمتٌ وخُلُقٌ وأثرٌ على نفسه وعلى غيره، ولقد مر بك الأثر الذي فيه: أنّه كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون؛ نحو من خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت(١).

ولا خير في طالب علم لا يظهر عليه سمت أهل العلم، ووقار أهل العلم وهيبة أهل العلم، وهذه الوصايا التي سوف أذكرها فيها ما هو من باب الأفضل، بمعنى: أنها من كمال سمت طالب العلم، ومنها ما هو لازم أن يكون ملتزماً بها، ولعلك تستطيع التفريق ـ إن شاء الله ـ عند ذكرها.

الوصية الأولى: (الإخلاص لله تعالى في الطلب والتحصيل):

يجب على طالب العلم أن يتحرى الإخلاص في الطلب وفي التحصيل، وألاّ يحضر أحدنا إلى حلقات العلم إلاّ ويبتغي بذلك وجه الله، لا أن يقال: إنّ فلاناً بلغ منزلة مابلغها فلان من أقرانه وأترابه، والكلام عن الإخلاص قد تقدم بعضه، ولا يخفى هذا ـ إن شاء الله ـ عليك.

الوصية الثانية: (قراءة الكتب المتعلقة بالعلم وبطلب العلم وبآداب طلبة العلم)(٢):

والفائدة من قراءة هذه الكتب أنّها تبيّن لطالب العلم حقيقة قدره؛ لأنّ بعضنا إذا حفظ متناً أو قرأ كتاباً أو كتابين، قد يعتريه من العُجْب ما يعتريه، فإذا قرأ سير أولئك الأفذاذ عرف قدر نفسه، وعرف أنّه ما بلغ شيئاً بالنسبة لما بلغوه، ولذا لزاماً علينا أن نجعل لأنفسنا حظاً من قراءة هذه الكتب، هذا،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٣١٦.
(٢) وقد تقدم سرد عددٍ من هذه الكتب ص٧٠ ـ ٧١.

إضافة إلى ما فيها من الفوائد التي تبعث في نفس الطالب همّة وعزيمة، يزداد بها رغبة في الطلب والتحصيل.

الوصية الثالثة: (تقديم الأولويات في الطلب):

وقد سبقت الإشارة إلى هذا(١).

الوصية الرابعة: (الحذر من التعالم):

وهذا مدخلٌ يخفى على الكثير؛ إذ إنّ الإنسان إذا أظله سقفٌ مع من هم أقل منه علماً قد يُنَصّبُ نفسه إماماً بينهم، ويحاول عدم الاعتراف بجهل شيء سُئِلَ عنه، أو أن يحجم عن مسألة خاضوا فيها، فقد جعل نفسه محدثاً وفقيهاً، وهو لم يدرِ أنّه قد أودى بنفسه.

الوصية الخامسة: (الثناء على الله تعالى عند ذكره):

وهذا من باب الأفضل، وإلاّ فليس ذلك بواجب، لكن كلما عَوَّد الإنسان نفسه ذلك ازداد تعظيم الله تعالى في قلبه.

الوصية السادسة: (الصلاة والسلام على النبي ﷺ عند ذكره):

والذي يقلّب كتب الحديث والمسانيد يرى عجباً؛ يمر ذكر النبي ﷺ عشرات بل مئات المرات، ومع هذا لا يفترون عن كتابتها.

وقد سنّ بعض الناس سنة سيئة إذ رمز إلى الصلاة على النبي ﷺ بهذا الحرف (ص) أو بتلك الكلمة(صلعم)! وهذا فيه تعطيل لهذه السنة، وحرمان لأجر القارىء أو السامع، وقد ذكر السيوطي في تدريب الراوي: أنّ أول من كتب (صلعم) قطعت يده؛ لأنّه سنّ سنة سيئة. وبغض النظر عن صحة الخبر

---

(١) وذلك في ص٧٤.

أو ضعفه، فطالب العلم ينبغي أن يتطلع دائماً إلى معالي الأمور ومضاعفة الأجور.

الوصية السابعة: (الترضي عن الصحابة رضي الله عنهم عند ذكرهم):

وأذكر هنا ثلاثة أمور أو ثلاث إشارات، تتعلق بأحد الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ذكرتها هنا؛ لأنّا بُلينا بها في بعض الكتب والمجلات، بل حتى في بعض الكتب الدراسية، وهذه الأمور الثلاثة تتعلق بعلي رضي الله تعالى عنه، فنلاحظ فيما نقرأ ونسمع أنّ علياً رضي الله عنه إذا ذكر تُذكر معه أوصاف ثلاثة: إما أن يقال: قال الإمام عليّ، أو كرم الله وجهه، أو قال عليّ عليه السلام! فهذه الكلمات فيها غلو، وقد نص أهل العلم ـ كابن كثير وغيره ـ على أنّه لا يجوز أن يُخصَّ عليّ دون سائر الصحابة، رضي الله تعالى عن الجميع، فالشيخان وعثمان أفضل منه رضي الله عنهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (وقد غلب هذا في عبارة كثير من النسّاخ للكتب، أن يُفرَد عليّ رضي الله عنه بأن يقال: عليه السلام، من دون سائر الصحابة، أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يسوَّى بين الصحابة في ذلك؛ فإنّ هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين)[1].

وزعم من خصّ علياً بهذه الصيغة (كرم الله وجهه): أنّه لم يسجد لصنم قط. وهذا قول مردود؛ إذ إنّ بعض الصحابة ولد في الإسلام كصغار الصحابة، بل قد ثبت أنّ الصديق وغيره لم يسجد لصنم قط، وعلى هذا لا يُخص عليٌّ رضي الله عنه دون غيره بشيء من ذلك، وقد أجازها بعض العلماء

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٣٩.

كالهيتمي في فتاواه، لكن كلامه مردود، وقد رَدَّ تخصيص علي بتلك الصيغة ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ وهو قبل الهيتمي ـ فيما سبق ذكره.

أما وصفه بالإمام، فهو ـ كما ذكرت ـ فيه رائحة غلو؛ لأنَّهم إذا ذكروا مَنْ قبله قالوا: قال أبو بكر، قال عمر، وقال عثمان، وقال الإمام عليّ، ولعلها ـ عند بعضهم ـ نزعة للتشيع، إذ إنّهم يرون أنّ الإمامة ثابتة في حق عليّ ولا تصح في حق سواه، وقل مثل هذا في عبارة: عليه السلام.

فاحذر من هذه الصيغ، وبيّن خطأها لمن قرأها أو سمعها[١].

الوصية الثامنة: (الترحم على العلماء عند ذكرهم):

فقد قال ابن جماعة الكناني رحمه الله: (وربّما يقرأ بعضهم الحديث بسنده، فيدعو لجميع رجال السند، فسبحان من اختص من شاء من عباده بما شاء من جزيل عطائه)[٢]، وهذا قد يكون فيه مشقّة، لكن لو عوّد الإنسان نفسه عليه لاعتادته.

الوصية التاسعة: (عدم العزو إلى مرجع إلاّ إذا قرأ الخبر فيه):

خاصة كتب الحديث، ولتقريب هذا يُقال: إنّ من الكتب مايجمع الآلاف أو المئات من الأحاديث، «ككنز العمال»، «وجامع الأصول» والكتب الجوامع الصغيرة «كرياض الصالحين» و«الترغيب والترهيب» و«بلوغ المرام»، فإذا قرأ أحد منّا حديثاً في كتاب «رياض الصالحين» مثلاً وقال صاحب الكتاب: رواه الشيخان، أو رواه البخاري ومسلم، فعلى طالب

---

(١) انظر للفائدة: تذكرة السامع ص١٧٧، السمعاني في الأنساب ١/ ٣٢٦، تحت المجهر ١/ ١٢١.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص٦٤.

العلم أن يكون دقيقاً في العزو؛ حتى لا يؤخذ عليه شيء، فيقول: ذكره النووي في كتاب «رياض الصالحين» وعزاه إلى الشيخين، فلو كان المصنف مخطئاً في عزوه فليس عليك ملامة، ومن أسند فقد برئت ذمته، وهذه من صفات طالب العلم الذي يتحفظ فيما يقول، وكم من حديث عزاه صاحب الكتاب إلى غير أصله، ثم تتابع النَّقَلَةُ على هذا الخطأ، فإذا عزونا ما نقرأ من الأحاديث إلى تلك المراجع التي قرأناها فيها، لم يكن علينا ملامة ولا عتب، وهذا الأمر قد نص عليه أهل العلم كالنووي رحمه الله تعالى وغيره.

الوصية العاشرة: (عدم نسبة الحديث إلى غير الصحيحين إذا كان فيهما أو في أحدهما):

إذا كان حديثٌ مّا عند الشيخين وغيرهما، فلا يعزو طالب العلم هذا الحديث إلى غير الشيخين، بل عليه أن يعزوه إليهما قبل غيرهما؛ لأنَّ مما يعاب به بعض طلاب العلم، أنّه إذا قرأ حديثاً عزاه إلى بعض كتب الحديث مع أنّ الحديث في الصحيحين أو أحدهما، وقد قال مُغْلَطَاي أحد شُرّاح البخاري: (ليس لحديثيٍّ عزو حديث في أحد الستة لغيرها إلاّ لزيادة ليست فيها أو لبيان سنده ورجاله)(١) ونحن نرى بعض طلاب العلم يذكر حديثاً عند الشيخين، ثم يعزوه مثلاً لابن ماجه، وهذا خطأ وتقصير منه ويعاب عليه، إذ أنّ الحديث إذا كان عند الشيخين فقد جاوز القنطرة، فينبغي أن يُعزى لهما.

الوصية الحادية عشرة: (التثبُّت في النقل):

فكم من كلام قد نُقل ثم بان خطؤه، وترتب على ذلك النقل أشياء كثيرة، والله عز وجل أدّبنا فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن

---

(١) نقله المناوي في فيض القدير ١/ ٢٨٠.

﴿تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[١].

فإذا جاء الناقل بخبر، فلزاماً علينا أن نتبيّن، وكذلك أنت إذا نقلتَ خبراً فلزاماً أن تتثبت، وهل هذا ـ الذي نقلته ـ هو قول المتكلم أو الكاتب، أو ما فهمته أنت من قوله؟

الوصية الثانية عشرة: (عزو الفائدة إلى صاحبها):

إنّ من بركة العلم أو نماء العلم أن تعزو الفضل إلى أهله:

إذا أفـادك إنسـانٌ بفـائـدةٍ ... مـن العلـوم فـأدمِـنْ شكـرَه أبـداً
وقل فلانٌ جزاه الله صالحةً ... أفادنيها وألقِ الكبـر والحسـدا[٢]

لا نلبس ثوب زور فنعزو إلى أنفسنا فضلاً لغيرنا، كأن يفيدك أحد إخوانك أو أقرانك بفائدة عزيزة عليك، تعبت في البحث عنها، فإذا دلّك عليها نسبت الفضل إلى نفسك! فالحذر الحذر؛ إذ ينبغي أن نعرف الحق لأهله، حتى يبارك الله عز وجل فيما أعطانا، وإلاّ فإنّ ذلك سبب في محق بركة العلم، وكلّما زكّى الإنسان نفسه كاذباً كان ذلك أدعى وأقرب إلى ظهور خطئه وكذبه، فاعزُ العلم والخبر إلى من أعطاك إيّاه حتى يبارك الله لك وله، ويزيدك الله وإيّاه.

الوصية الثالثة عشرة: (عدم احتقار الفائدة وإنْ قلّتْ):

فقد تسمع فائدة فتتهاون في كتابتها أو في التثبت منها، فهذه فائدة

---

(١) الحجرات: ٦.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٨٧.

وتلك أختها، فإن اجتمعت اجتمع عندك كَمٌّ عظيم من العلم، فلا تحقرن من المعروف شيئاً.

الوصية الرابعة عشرة: (الحذر من كتم الفائدة ومحاولة الاستئثار بها في بعض الأحايين):

فقد تطرح مسألة في مجلس، وفي المجلس طلاب علم ـ وبخاصة أقرانك ـ وأنت تعرف جوابها وعندك من العلم بها ما لو سمعوه لاستفادوا كثيراً، فربما يأتي الشيطان إليك فيجعلك تستأثر بهذه الفائدة، وأنك إذا أخبرت بها ذهبت منك ونقلت إلى غيرك من الناس، ولا ينسب الفضل إليك!!

أخي، ألقِ عنك هذه الأثرة، والحذر الحذر أن تلبس هذا الثوب؛ لأنّ من كان هذا طبعه محقت بركة علمه، وأنت تعلم جزاء مَنْ كتم علماً، فبادر بإخراج ماعندك؛ يضاعف الله لك ما عندك.

الوصية الخامسة عشرة: (الحذر من الاستشهاد بالأخبار الضعيفة والموضوعة):

وهذا مما بُلِيَ به بعض مَن ينتسبون إلى العلم، وأنت تعلم أنّ العامة إذا سمعوا ممن ينتسب إلى العلم كلاماً وجعلوا كلامه حجة.

فكم من رجل قد نقل خبراً ضعيفاً أو موضوعاً، فإذا كلمته قال: قاله فلان في خطبته، قاله فلان في محاضرته، قاله فلان في مجلسه! وهذا من الخلل في شخصية طالب العلم، بل لزاماً أن يتثبت فيما يقول عن الناس وعن أهل العلم، وعليه أن يعلم أنّ ذلك في حق النبي ﷺ واجب، يأثم إذا قال عليه ما لم يقل، بل قد استُفْتي بعض أهل العلم عن خطيب يذكر في خطبته الضعيف والموضوع فقال: (ما ذكره من أحاديث في خطبه من غير أن يبيّن

رواتها أو من ذكرها، فجائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة في الحديث، أو ينقلها من كتابٍ مؤلِّفهُ كذلك، وأما الاعتماد في رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها في كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث، أو في خطب ليس مؤلفها كذلك، فلا يحل ذلك، ومن فعله عُزّر عليه التعزير الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء، فإنهم بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث، حفظوها وخطبوا بها من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلاً أم لا، فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك، ويجب على حكام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكبه . . . فعلى هذا الخطيب أن يذكر مستنده في روايته، فإن كان مستنداً صحيحاً فلا اعتراض عليه، وإلا ساغ الاعتراض عليه، بل جاز لولي الأمر ـ أيد الله به الدين وقمع بعدله المعاندين ـ أن يعزله من وظيفة الخطابة؛ زجراً له عن أن يتجرأ على هذه المرتبة السَّنِيَّة بغير حق)[1].

الوصية السادسة عشرة: (عدم تضعيف الحديث إلاّ بعد البحث والسؤال):

ذكرت هذا؛ لأن بعض الناس إذا وقف على حديث ورأى في إسناده رجلاً مُضَعّفاً أطلق القول بضعف الحديث.

وأنت تعلم أن من الحديث ما يكون له طريقان أو ثلاث أو عشر، وقد ذكرت لك سابقاً أن الجوهري يقول: (كل حديث لايكون عندي من مائة وجه فأنا فيه يتيم)[2].

فلا تتسرع بتضعيف حديث إلاّ بالتقييد، ولعلي أضرب مثالاً حتى

---

(١) الفتاوى الحديثية ص٤٣.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٥٠، تاريخ بغداد ٦/ ٩٤، تهذيب التهذيب ١/ ١٢٤.

يتضح المقام: قد يأتي حديث له طريقان: طريق يثبت به الحديث، وطريق لا يثبت به، فمن ذلك ـ فيما أذكر ـ ماروواه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: «صلاة السفر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، تمامٌ غير قصر، على لسان نبيكم ﷺ»(١).

فهذا الحديث إذا قرأته في المسند سترى أن الحديث من رواية عبدالرحمن بن أبي ليلى عن عمر، وأنت تعلم أن ابن أبي ليلى لم يلق عمر، فيكون الخبر منقطعاً، وهذه علة قادحة في الحديث، لكن لو قلَّبت سنن ابن ماجه لرأيت أن ابن أبي ليلى قد روى الحديث عن كعب بن عجرة، فاتصل الحديث، إضافةً إلى أنّه روى الحديث من وجه آخر منقطعاً.

إذن فطالب العلم أوطالب الحديث ينبغي أن يكون دقيقاً في كلامه فيقول: هذا الحديث ضعيف من طريق الإمام أحمد، وتلك الساعة لا ملامة عليه ولا عتب، وأما إذا قال: الحديث ضعيف، وسكت، فقد يعاب عليه ذلك.

الوصية السابعة عشرة: (عدم إهمال المسائل التي تُسألُ عنها):

لأنّها قد تفتح لك أبواباً من البحث ومن التنقيب في بطون الكتب، إذا اهتممت بها ولم تهمل شأنها أو تتهاون بأمرها، وللشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى كلام سديد حينما سأله سائل فأكثر المسألة عليه، فكأنّ السائل قال له معتذراً بما معناه: اعذرنا يا شيخ فلقد أثقلنا عليك، فلما أجاب الشيخ عما سألوه قال: (نحن ممنونون في كل ما يقع لكم من الإشكالات؛ لأنّها قد تصير سبباً لبحث أمور لم تخطر على البال ومراجعة محالها، وهذا من طرق العلم،

---

(١) راجع: المسند للإمام أحمد ١/ ٣٧، سنن ابن ماجه ١/ ٣٣١ رقم الحديث ١٠٦٤.

فلا تحرمونا ذلك، أرجو الله أن يجعل عملنا وإياكم خالصاً لوجهه)[١].

فلا تتهاون بمسألة سُئلت عنها، فقد يسألك فلان سواء كان أباك أو جارك أو أخاك عن مسألة، فتقول: لا أدري، ثم يأتيك مرة أخرى شخص آخر وثالث ورابع في المسألة نفسها، فلو أنّك بحثت عنها وسألت عنها؛ لترتب على ذلك مصالح كثيرة، فأنت ازددت علماً، وصاحبك السائل زال جهله، وسينقلها إلى غيره، وغيره سينقلها إلى غيره، وهلمّ جراً، ولك مثل أجورهم لا ينقص من أجورهم شيء فلا تهمل مسألة سُئلت عنها.

الوصية الثامنة عشرة: (حمل مذكِّرة صغيرة لتقييد الفوائد والمسائل):

فقد عُرِفَ من بعض الإخوة أنَّ قراءتهم قليلة وحضورهم للدروس قليل، ولكن عندهم من العلم ما قد يفوق بعض من يحضر إلى الدروس، وإن كنّا جميعاً لا نقرهم على ترك الدروس ـ ولعل لديهم مشاغل هم أدرى بها ـ فبعضهم ممن فتق الله لسانه في الوعظ بين جماعات المصلين، وقد رأيت وأراني بعضهم أوراقاً أو مذكرات يحملونها، وفيها العشرات من الأسئلة، فلما سألته قال: هذه المسألة من شخص في البلد الفلاني، وشخص آخر في المكان الفلاني، ثم إذا أجبته أو أعنته في البحث عن الإجابة، وردّ الجواب إلى من سأل عنه؛ انتفع هو وانتفع المجيب وانتفع السائل.

فإذا سألك سائل عن مسألة فلا تهمل أمره؛ لأنّ كونه أتى إليك يستفتي هذا بحد ذاته مكسب له؛ لأنّه يريد الخير، وأيضاً فيه خير لك: فإن كنت تعرف الجواب فالحمد لله، وإن كنت لا تعرفه، فخذ اسم السائل، و ـ إن تيسر ـ رقم هاتفه، ثم ابحث وأخبره ولا تتأخر في ذلك؛ لأنك بهذه الوسيلة

---

(١) الفتاوى السعدية ص١٠٣.

ستستطيع ـ إن شاء الله ـ إيصال العلم .

الوصية التاسعة عشرة : (محاولة القراءة عن كل مناسبة تحصل ، أو عن كل نازلة تنزل ، أو عن الموسم قبل حلوله) :

وهذا قد سبقت الإشارة إليه ، فإذا كنّا على أبواب رمضان وأردنا معرفة وترسيخ أحكام الصيام في أذهاننا ، فعلينا أن نتفرغ قبل شهر رمضان بمدة ، أسبوع أو أسبوعين أو شهر ، كل حسب طاقته ، لنقرأ عن الصيام ، ونحضر محاضرات الصيام وحلق العلم المتعلّقة بالصيام ، ونقرأ فتاوى الصيام ، ونسمع الأشرطة المتعلقة بالصيام ، وهلمّ جراً ، ومثل ذلك أيضاً إذا أردت أن تزور مريضاً ، فقبل الذهاب إليه قلّب الكتب المتعلقة بالمرض ، وانظر إلى فضل زيارة المرضى ، والأدعية التي تقال لهم ، وإذا أردت أن تسافر فاقرأ في أحكام السفر . فبهذه الطريقة سترى أنّك قد جمعت خيراً كثيراً في وقت يسير ، وجرّب وسترى .

ومن لم يجرب ليس يعرفُ قَدْرَه   فجرِّبْ تجدْ تصديقَ ماقد ذكرناهُ[(١)]

الوصية العشرون : (الحذر من كثرة الاشتغال بالمباحات) :

قال الوزير ابن هبيرة :

والوقتُ أنفسُ ماعُنيتَ بحفظه   وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ[(٢)]

هذه الدقائق التي تمر من أعمارنا ، لن تعود مهما كلّف الأمر ، وهذه

---

(١) منظومة الصنعاني في الحج ص٨٣ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨١ .

سُنَّةٌ ماضية، فالحذر من أن نشغلها بما لا ينفعنا، وأنت تعلم أنّ كثرة الاشتغال بالمباحات عقبة من عقبات الشيطان التي يتدرج بها مع العبد، كلّما خلص من عقبة نزل به وانتقل به إلى عقبة ثانية، فكن حريصاً على وقتك ضنيناً به، ولاتهدر ثانية من عمرك إلاّ فيما يعود عليك بالنفع.

الوصية الحادية والعشرون: (تجنب الاشتغال بالمفضول وترك الفاضل):

وهذه الوصية قد تكون منك محل استغراب وتعجّب في ذكري لها، وهي بشأن ما يلاحظ من اشتغال البعض بكثرة تصوير المخطوطات وشراء الطبعات الكثيرة للكتاب الواحد، وقد يكون لا يعرف كثيراً من أحكام الصلاة، ولا يحفظ جزءاً من القرآن حفظاً تامّاً، ويشغل نفسه وينفق ماله في جمع وشراء المخطوطات! بل إنّ بعضهم قد ينسخ المخطوطات، ويمر عليه الشهر والشهران ينفق عليهما.

وهذا فيه تفصيل: فإن كان هذا الرجل مكلّفاً ببحث، أو لابد من بحث المسألة في هذا الكتاب، فنعم، وإلاّ فمن جعل هذا الأمر ديدناً له، يضيع به ساعات عمره، وينفق فيه دراهمه، والنفع منها قليل؛ فإنّه قد يكون ممن فرَّط في أوقاته، ولو أنّه اشتغل بقراءة كتاب في مكتبته له سنوات طويلة لم يُفتح؛ لكان خيراً له.

الوصية الثانية والعشرون: (زيارة المكتبات والاطلاع على ما جدّ من الكتب):

وهذه الزيارات تثري ثقافة الشخص العلمية، ويكون على صلة بما يطبع من الكتب والرسائل، وكم من إنسان قد أنفق أوقاته في بحث مسألة وقد نزل فيها كتابٌ أو كتابان أو ثلاثة، وهو لم يدر.

الوصية الثالثة والعشرون: (تفقد مكتبتك الخاصة):

فقد يشتري بعضنا الكتاب مرتين أو ثلاثاً، بل ـ والله ـ قد يبحث الإنسان مسألة من المسائل، ثم فجأة أو مصادفة يقلّب بين أدراج مكتبته فيعثر على كتاب لأحد العلماء، قد أطال النفس في بحث هذه القضية، ولكن لغياب الكتاب عن عينه ذهب وقته أدراج الرياح، لم ينتفع به نفعاً كثيراً.

فكلّما كان الإنسان محيطاً بما في مكتبته من المراجع والمصادر كان هذا أحفظ لوقته.

وينبغي ألاّ يكون الحديث ممن قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعاباً، مَن نوّر الله قلبه هداه بما يبلُغه من ذلك، ومَن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلاّ حيرة وضلالة)[1].

ولقد ذُكِرَ عن بعض الناس أنّه يحرص على أن يكون نصيب الكتب عنده أكثر من فلان! وهذا والله مزلقٌ خطير:

إذا لم تكن حافظاً واعياً | فجمعك للكتب لا ينفع

أنا وأنت نستطيع أن نشتري مئات الكتب والرسائل وأن نرصّها في حجرات المنزل، لكن ما الفائدة المرجوّة إذا كان الهدف هو التكثُّر من الجمع فحسب؟!

وقد ذكرت لك أنّ الإمام البيهقي رحمه الله تعالى على جلالة قدره لم يكن عنده بعض المراجع، فقد قال الذهبي عنه: (ولم يكن عنده سنن

---

(١) الوصية الصغرى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٢٣٩.

النسائي، ولا جامع الترمذي، ولا سنن ابن ماجه)[١].

وكذلك ابن حزم لم تتوفر له بعض المصادر، فقد ذكر الذهبي في ثنايا ترجمته قوله: (ما ذكر سنن ابن ماجه، ولا جامع أبي عيسى؛ فإنّه ما رآهما، ولا أُدخِلا إلى الأندلس إلاّ بعد موته)[٢].

الوصية الرابعة والعشرون: (تجنب تعميم الاصطلاح العلمي المتشابه في اللفظ):

فأنت تعلم أن بعض الكتب قد تكون لها ضوابط خاصة، وبعض العلماء قد يصطلح اصطلاحاً خاصاً بنفسه، فمن الخطأ العلمي أن تُعَمّم هذا الاصطلاح على غيره، وأذكر لك بعض الأمثلة:

المثال الأول: إذا قرأت في كتاب «تقريب التهذيب» تجد أن الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى يرمز لمن أخرجوا للراوي بالرمز الحرفي، فمثلاً: إذا ذكر فلاناً من الرواة قال: [خـ ـ م ـ ق] فمعنى خ: البخاري، وم: مسلم، وق: ابن ماجه.

بينما لو قلّبت «الجامع الصغير» للسيوطي لوجدت هذه الرموز تعني: خ: البخاري، و م: مسلم، و ق: متفق عليه.

فلا تقس هذا على ذاك، فـ (ق) عند ابن حجر يختلف عن (ق) عند السيوطي، فالحافظ المراد عنده بحرف (ق) ابن ماجه؛ لأنّه محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، بينما المراد عند السيوطي بحرف (ق) متفق عليه.

المثال الثاني: عبارة (متفق عليه) فإنّ الدارج والشائع أنّ (متفق عليه)

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٣٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٠٢.

معناها: رواه البخاري ومسلم، لكن كما ذكرت لك، حاول أن تقرأ مصطلح المؤلف أو أن تقرأ مقدمة الكتاب، حتى تكون على بيّنة، فمتفق عليه في كتاب «منتقى الأخبار» لمجد الدين ابن تيمية معناها: رواه أحمد والبخاري ومسلم، وخالف الاصطلاح المشهور في سائر الكتب.

المثال الثالث: عبارة (منكر الحديث) في علم الجرح والتعديل:

فمنكر الحديث عند الإمام أحمد إذا قالها في أحد الرواة، فإنّها تعني أنّ أخباره أو أحاديثه قليلة.

أمّا عند البخاري فكما صرح بنفسه رحمه الله تعالى بقوله: (كل من قلت فيه: منكر الحديث، فلا تحل الرواية عنه)[١].

المثال الرابع: (الغريب) عند الزيلعي في «نصب الراية» يعني: لا أصل له، وهذه الغرابة تختلف عن مراد الترمذي إذا قال (غريب).

قال الشيخ الألباني ـ أثابه الله تعالى ـ بعد حديث: «من صلى خلف عالم تقي فكأنّما صلى خلف نبي» قال: (لاأصل له، وقد أشار لذلك الحافظ الزيلعي بقوله في «نصب الراية»: غريب، وهذه عادته في الأحاديث التي تقع في «الهداية»، ولا أصل لها فيما كان من هذا النوع، فاحفظ هذا فإنّه اصطلاح خاص به)[٢].

فلذلك حاول أن تقرأ مقدمة الكتاب، حتى تكون على بيّنة، ويتبيّن هذا بالوصية الخامسة والعشرين.

---

(١) لسان الميزان ١/ ٢٠، وللفائدة انظر: الرفع والتكميل ص١٤٣ وما بعدها، وانظر: الميزان ١/ ٦.

(٢) السلسلة الضعيفة ٢/ ٤٤ حديث رقم ٥٧٣.

الوصية الخامسة والعشرون: (الحرص على قراءة الكتب التي تبيّن اصطلاح المؤلفين، أو تبيّن منهج الكتاب أو مباحث الكتاب):

فهناك كتب خاصة في تبيين مناهج المؤلفين، أو في مباحث الكتاب وهناك كتاب «أصول التخريج والأسانيد» لأحد المعاصرين(١)، بيّن فيه مناهج بعض الكتب مثل: «تحفة الأشراف» و«مفتاح كنوز السنّة» و«جامع الأصول» فهذه الكتب قد نمتلكها، ولا يعرف بعضنا منهجها أو منهج مؤلفها، وهذا مما يعاب به طالب العلم، ويتضح هذا: إمّا بقراءة مقدمة الكتاب، أو بالحرص على أن تقرأ تلك الكتب التي هي دليل إلى بطون ومناهج الكتب.

الوصية السادسة والعشرون: (عدم التسرّع في فهم الكلام):

سواءً كان الكلام مقروءاً أو مسموعاً، وقد ذكر ابن القيم عن أيوب السختياني رحمه الله تعالى أنّه كان إذا سأله السائل قال له: أعد، فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولاً، أجابه، وإلاّ لم يجبه، وهذا من فهمه وفطنته رحمه الله تعالى(٢)، وكأنّ لسان حاله يقول: إذا لم تقدر على حفظ السؤال فكيف تقدر على حفظ الجواب؟!

وكذلك الشأن في قراءة الكتب، فكم من شخص يقرأ كلاماً قد يكون مبتوراً، أو قد يكون فيه إحالة إلى موضع آخر، أو أنّ له تتمة في موضع سابق أو موضع لاحق، فيأخذ الشخص الكلام مخروماً مبتوراً، فيترتب عليه سوء الفهم، ومن ثمّ سوء النقل، فينقل إلى غيره خلاف المراد، وهذا مما يعاب به

---

(١) وهو الشيخ محمود الطحان.

(٢) إعلام الموقعين ٢/ ١٨٧.

طالب العلم، ويعتبر نقصاً واضحاً في شخصيته؛ إذْ إنّ الرفق مطلوب، كما قال ﷺ: «**ما صاحب الرفق شيئاً إلاّ زانه**» وقال ﷺ: «**إنّ الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(١).

وقال ﷺ: «**إنّ الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كلّه**»(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق**»(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**التأني من الله والعجلة من الشيطان**»(٤).

والشاعر يقول:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

الوصية السابعة والعشرون: (الإكثار من قراءة كتب الفتاوى):

وقد تقول: ولِمَ التركيز على هذا الأمر مع أنّك قد ذكرته سابقاً؟ فأقول لك: إنّ الإكثار من قراءة هذه الكتب فيه فائدة عظيمة، وبخاصّة الفتاوى التي يُسأل عنها في المجتمع الذي يعيشه طالب العلم؛ لأنّ الجهل بها كثير، والأسئلة عنها تتكرر مرات وكرات بحيث يعرف الجواب بالدليل، خاصّة إذا كان صاحب الفتاوى ممن ينهج نهج الدليل.

الوصية الثامنة والعشرون: (عدم التسرع في النفي العام):

وهذا مما بُلي به بعض الناس، ولقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله: أنَّ إحاطَةَ الإنسان بما يعلمه أكثرُ من إحاطته بما يجهله.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه أحمد والبخاري في التاريخ الكبير والبيهقي.
(٤) رواه البيهقي. قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢/ ١٨٦): إسناده جيد.

فأنت لو حصرت ما تعلم فإنّك تستطيع أن تقول: أعلم كذا وكذا، لكن لا تستطيع أن تقول: أجهل كذا وكذا؛ لأنّ العلم بالنسبة إلى ما عندك من الجهل يسير، فلا تتسرع في النفي العام، كأن تنفي كلاماً عن إمام، أو تنفي ورود حديث، أو تنفي صحة حديث، وأضرب لك مثالاً لإمام ملأ كتب الحديث شغلاً، وهو الإمام الزهري رحمه الله تعالى، الذي لو قلبتَ صفحات الصحيحين والأمهات الست، لرأيت اسم هذا الرجل يرد عليك مراراً وتكراراً، فلقد ذكر ابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق»: أن الزهري حصلت له حادثة طريفة في ذلك: فذكر واعظ حديثاً فقلت له: لم يرد هذا في سنة النبي ﷺ، فجلس الواعظ، فقام غلام فقال: يا إمام، قال: نعم، قال: أحفظت السنة كلّها؟ قال: لا، قال: أحفظت ثلثيها؟ قال: لا، قال: أحفظت شطرها؟ قال: لا، قال: هب أنّك حفظت شطرها، فاجعل حديث الشيخ في النصف الذي لم تحفظه! فسكت الزهري وأقّر بقوّة حجة هذا الصبي[١].

فإيّاك أن تقول في مجمع أو مجلس: لم يرد هذا في السنّة، أو لم يصح هذا عن النبي ﷺ فقد تكون كاذباً على النبي ﷺ!

وأذكر أنني كنت في منىً في مجلس مع فضيلة الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني منذ زمن طويل[٢]، فسأل أحدهم سؤالاً وذكر فيه تضعيفاً مطلقاً لحديثٍ، وقال: لم يرد له طريق صحيح (أو عبارة قريبة من هذا) ولعل السائل أراد بسؤاله أن ينبه الجمع، وإلاّ فالذي يسأل يعلم هذا! فقال الشيخ: أمّا قولك: (لم يرد هذا) فقد يكون كذباً على النبي ﷺ؛ لأنّه قد يرد من طريق

---

(١) ترجمة الزهري من تاريخ دمشق ص١٥٤، ويراجع تدريب الراوي للسيوطي، فقد ذكرت القصة كاملة.

(٢) كان ذلك في حج عام ١٣٩٨هـ في مخيمه بمنى.

صحيح لا تعلمه أنت، فقولك بهذا النفي العام يعتبر تكذيباً لكلام النبي ﷺ، فإن كنت ولابد متكلماً فقل: على حسب علمي. هكذا فهمت من كلام الشيخ الألباني.

إذن: إذا بحثت عن حديث ولم تجده، فقل: لم أجد هذا الحديث على حسب بحثي. فهذا القيد يضيق الدائرة تضييقاً شديداً، فلا لوم عليك، ولو أنّ أحداً أنكر عليك فإنّ هذا القيد يرفع عنك الملامة والعتب، ولهذا ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أنّه قد يخفى على الكبير ما يعلمه الصغير، وساق ما ذكره الله في سورة النمل عندما وقف الهدهد الحقير أمام نبي ملك فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1].

فلا تتسرع في النفي؛ لأنّ هذا يدل على العُجْبِ والتعالي، ولكن تأدب كما تأدب علماؤنا وسلفنا حيث يقولون: هذا حسب علمنا.

الوصية التاسعة والعشرون: (إذا رويت حديثاً بالمعنى فبيّن ذلك):

فلقد ذكر ابن عبدالبر رحمه الله تعالى في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله»[2] باباً ساق فيه آثاراً عن أبي الدرداء وأنس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم:

فقد ذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّه: كان إذا حدث عن رسول الله ﷺ ثم فرغ منه قال: اللهم إن لم يكن هكذا فَكَشَكْلِهِ.

وذكر كذلك عن أنس رضي الله عنه أنّه: إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغ منه قال: أو كما قال رسول الله ﷺ.

---

(١) النمل: ٢٢.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٩٥.

وذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه: حدّث يوماً بحديث فقال: سمعت رسول الله ﷺ. ثم أرعد وأرعدت ثيابه، وقال: أو نحو هذا، أو شبه هذا.

والرواية بالمعنى منعها قوم كابن سيرين، ولكن الصحيح ـ وهو قول الجمهور من المحدثين ـ أنّها تجوز لكن بقيود، منها[١]:

١ ـ أن تكون عالماً بما يروى.

٢ ـ ألاّ يكون تغيير اللفظ يترتب عليه تغيير في حكم، أو زيادة على حكم، أو نقص من حكم.

٣ ـ ألا يكون الحديث مما يتعبد بلفظه كالأذكار.

وكان بعض المحدثين إذا شك في حرف من الحديث تركه.

وعلى كل حال: فإنّ من الصعوبة بمكان أن يلزم الإنسان نفسه بحفظ الحديث حفظاً لفظياً؛ لذلك إذا ساق أحدنا حديثاً، يعلم أنّه قد غاب بعضه عن ذهنه ويتذكّر جملاً منه؛ فليقل: أو كما قال ﷺ.

وهناك حديث رواه الإمام أحمد قد يفهمه بعضنا فهماً خاطئاً وهو حديث: «**إذا حدّثتكم بحديث فلا تزيدن عليه**»، إذْ ليس المراد أن يلزم العبد برواية الحديث حرفياً، لكن المراد: لا يتعمد زيادة تقتضي تغيير حكم أو إضافة حكم آخر.

الوصية الثلاثون: (تجنب استخدام ألفاظ التعظيم أو العظمة للثناء على نفسك):

---

(١) انظر: الكفاية في علم الرواية ص٢٩٥ إلى ٣٠٠.

لأنّ في لغة العرب أحرفاً وألفاظاً وصفاتٍ للعظمة، كما لو قال المتكلم الواحد: دخلنا من كذا، أو نحن كذا، أو زرنا كذا، أو نقول بكذا. فهذه ألفاظ ينبغي أن يتجنبها طالب العلم؛ لأنّه يلبس نفسه ثوباً أوسع منه، فالإنسان كلّما تعوّد تجنب الثناء على نفسه وإطلاق الألقاب والتعظيم لنفسه؛ كان هذا أدعى للتواضع وأدعى للتحصيل، ومن أطلق هذه الألقاب على نفسه فقد زكى نفسه، وإذا زكى نفسه، فقد أغلق شيئاً كثيراً من الخير على نفسه.

وبعضهم يقول عبارات مثل: ولقد بحثنا هذا الحديث وحصلنا على النتيجة الفلانية! وأنا لا أقول لك: هذا لا يجوز، ولكن من صفات طالب العلم ومن أدبه: أن يعرف قدره، لكن إذا كان الرجل راسخاً في العلم فهذا له شأنٌ آخر.

فلا تطلق على نفسك هذه العبارات، وتواضع لله، وسترى من الله ما يسرك، بإذن الله تعالى.

وكما قال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ ... على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تك كالدخان يرفع نفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيعُ

فالنجم تراه في الماء لكنّه رفيع، والدخان أصله بالأرض لكنّه يتعالى بنفسه، وخيرٌ من قول الشاعر قول النبي ﷺ: **«إنّ الله أوحى إليّ أن تواضعوا ولا يبغي بعضُكم على بعض»** رواه مسلم وأبو داود، وفي الحديث الآخر: **«ما تواضع أحد لله إلاّ رفعه»** رواه مسلم.

الوصية الحادية والثلاثون: (تقبُّل النقد والنصح بصدر رحب):

لأننا لو تقبلناه بصدق لا بمماطلة أو بمجاملة وفتحنا صدورنا للنصح؛

لصلح كثير من معايبنا وشؤوننا، ونحن نعلم قول النبي ﷺ: «**المؤمن مرآة المؤمن**» وفي لفظ: «**المؤمن مرآة أخيه**»، وفي البخاري: «**وإذا استنصحك فانصحه**»، فاحرص على أن تستنصح من تثق بدينه وعقله وأمانته، وإن نصحك ناصح فافتح صدرك له، فإن كان ما قاله حقاً فالحمد لله، وإن كان ما قاله باطلاً فالأجر لك والوزر عليه.

واحذر من المماطلات أو من المجاملات، يقول الإمام ابن حزم رحمه الله: **(أَبْلَغَ في ذمك مَنْ مدحكَ بما ليس فيك؛ لأنّه نبه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك؛ لأنّه نبه على فضلك)**[1].

بعض الناس قد يسمع أو يصغي بأذنيه للناصح وفي نفسه من الاضطراب والحرج ما الله تعالى به عليم، بل إنّ بعض الناس قد تأخذه العزة بالإثم فإذا فرغت من نصيحتك، قال: وأنا عندي لك نصيحة! فاسمع: فيك كذا وكذا وكذا، فأصبحت المسألة يداً بيد وهاءً بهاء! وهذا لاشك من الجهل، واعلم أن إحقاق الباطل وإبطال الحق صفة إجرام، كما قال ابن جماعة[2]؛ استنباطاً من قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[3].

الوصية الثانية والثلاثون: (عدم الاكتراث بقلة المستفيدين):

فإنّ الله قد ييسر لك محاضرة أو درساً أو كلمة، فإذا بدأت في الكلام انفضَّ عنك أكثرهم، صحيح أنّ الجمع له أثر على النفس ويبعث في الإنسان الهمّة والنشاط، ولكن مع هذا لو لم ينتفع إلاّ واحدٌ فالأجر عظيم، فلا تنظرن

---

(١) الأخلاق والسير لابن حزم ص٣٨ ـ ٣٩.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص٤٠.
(٣) الأنفال: ٨.

لقلة الناس، فلقد ذكر الذهبي رحمه الله تعالى عن عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى أنّه قال: (كنت أجلس يوم الجمعة، فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلّوا حزنت، فسألت بشر بن منصور، فقال: هذا مجلس سوء، فلا تعد إليه. فما عدت إليه)[١].

فإذا كان يصيبك العجب، ويصيبك ما يصيبك من الغبطة إذا رأيت الجمع، ثم إذا ذهب الجمع وتفرقوا ولم يبق إلاّ القليل، لم تخلص في عملك وفي أداء ما عندك. فهذا مجلس سوء يضرك ولا ينفعك.

إذن لو لم يجلس إليك إلاّ واحد، فعلّمه مما علّمك الله، ولقد رأيت بعض المشايخ يجلس وحيداً ليس عنده أحد، فإن جاءه أحد وقرأ عليه شرح له، فإن لم يأت أحد وانتهى وقت الدرس، قام ولم يكترث، ويعود غداً وبعد غدٍ، إلى أن يشاء الله.

قال الإمام مالك: (كنت آتي نافعاً وأنا غلام حديث السن مع غلام لي، فينزل درجة فيقف معي ويحدِّثني، وكان يجلس بعد الصبح في المسجد، فلا يكاد يأتيه أحدٌ)[٢].

وذكر الذهبي في ترجمة عطاء بن أبي رباح أنّ أحد معاصريه قال: (رأيت عطاء ـ وهو أرضى أهل الأرض عند الناس ـ وليس يجلس معه إلاّ تسعة أو ثمانية)[٣].

فالعبرة ليست بالكثرة، إنّما العبرة في الإخلاص وفي النفع المقدَّم لهذا الجمع، فلا تحقرن من المعروف شيئاً إطلاقاً، وابذل ما عندك من العلم، فقد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٤.

يحضر عندك خمسة أو أربعة، فينتفع منهم واحد، ويحضر عند غيرك أربعون أوخمسون فينتفع منهم خمسة أو ستة، ويكون هذا الواحد الذي عندك نفعه أعظم من ذلك النفع الذي عند الخمسة أو الستة، فينفع الله بذلك الواحد أضعاف أضعاف ماينفع بأترابه وأقرانه.

الوصية الثالثة والثلاثون: (الحذر من إضاعة الأوقات في البحث عن الأمور التي لا فائدة منها):

مثل المسائل الشاذة وغرائب الأمور، فقد كره السلف التوغل فيها، خاصّة المسائل التي لا فائدة فيها، ولا يترتب على العلم بها حكم، ولا يترتب على تحصيلها أي فائدة، ولقد ذم شيخ الإسلام ونقد في «مقدمة أصول التفسير» التي كتبها شيئاً من هذا[1]، ولعلك ترى بعض المفسرين يشحن صفحات من تفسيره بمثل هذا، مثل: لون كلب أصحاب الكهف! هل هو أحمر أو أصفر؟ هل هو كذا أو كذا؟ فلو كان أصفر هل يترتب عليه حكم؟ ولو كان أحمر فهل يترتب عليه حكم؟ وبعضهم يضيع وقته ويقول: الشجرة التي أكل منها آدم شجرة كذا أو شكرة كذا! فهذه الشجرة العلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضر، فالمهم أنّها شجرة أيّاً كانت.

الوصية الرابعة والثلاثون: (عدم الاشتغال بالفوائد والشوارد أثناء بحث مسألة):

وتنبّه لهذه، فقد نص عليها غير واحد كابن جماعة، فإذا كنت تبحث عن مسألة من المسائل وأثناء تقليبك للمراجع، فاحذر أن تتعلق بقراءة ما يمر من الفوائد، فالفوائد كثيرة، وقد يذهب عليك الوقت كلّه وأنت تنتقل من

---

(١) عمدة التفسير ١/ ١٣٥.

فائدة إلى أخرى، وبخاصّة إذا كان الفهرس شاملاً حاوياً، فعندما تبحث عن فائدة معينة ثم مرّت عليك فائدة أخرى في الفهرس، فثق تمام الثقة أنّك إذا رجعت إلى مصدرها وقرأتها، فستمر عليك فائدة ثانية وثالثة ورابعة، ثم ينتهي وقتك وأنت لم تنته من البحث عن مسألتك، فإن كنت ولابد فاعلاً فعلى الأقل علّم عليها بالقلم، فإذا فرغت من بحثك المسألة التي بدأت فيها، فارجع إلى تلك الفوائد التي علّمت عليها؛ لئلا يضيع الوقت من حيث لا تشعر، والمصيبة أنّ قراءتك لهذه الفوائد قراءة عابرة تتلاشى بعد ترك الكتاب مدة يسيرة؛ لأنّك قرأتها عرضاً، وما قرأتها تركيزاً، فما رسخت في ذهنك رسوخاً، وإنّما أحببت أن تكحّل عينيك بالفائدة حتى لا تفوت عليك، وما دريت أنّك بهذه الطريقة سيضيع وقتك، وهذا شيء مجرّب، فاحرص على ألاّ تشتغل إلاّ بفائدتك المقصودة.

الوصية الخامسة والثلاثون: (عدم التشتت في أثناء القراءة):

أن يحرص طالب العلم المبتدىء على التمعّن في الكتاب الذي يقرؤه، ويحاول جاهداً أن يتفهم ما فيه، ولا يشتغل بالنظر في مجموعة من الكتب في وقت واحد، فذلك مشتت للجهد، مضيع لكثير من الفائدة.

قال ابن جماعة: (وكذلك يحذر في ابتداء طلبه من النظر في تفاريق المصنفات؛ فإنّه يضيع زمانه ويفرق ذهنه، بل يعطي الكتاب الذي يقرؤه ـ أو الفن الذي يأخذه ـ كليته حتى يتقنه)[1].

الوصية السادسة والثلاثون: (عدم التقعر في اختيار الألفاظ):

فإنّك قد تسمع بعض طلبة العلم، أو بعض الخطباء، يتكلم كلاماً، أو

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص١٧، ١٨.

يورد عبارات، لا يفهمها طلبة العلم، فضلاً عن عامّة الناس، وهذا كما يقول الخطيب وغيره: (يورث خيلاء في القلب)، فهذه العبارات إذا قالها وهو يعرف معناها، فإنّ كثيراً ممن يسمعه لا يستفيد من سماعها شيئاً، بل قد تغيب الفائدة بسبب ورود هذه الكلمة، وإذا كان أبو عمرو بن العلاء ـ وهو من فطاحلة النحو ـ يقول عنه الأصمعي:

(كنتُ إذا سمعتُ أبا عمرو بن العلاء يتكلم ظننته لا يعرف شيئاً، كان يتكلم كلاماً سهلاً)[١].

وأما اختيار الألفاظ الغريبة، واستقراء أو تتبع العبارات الغامضة، التي لا يُعرَف معناها، ثم إيرادها من باب تضخيم كلامه، أو من باب لفت النظر إلى كلامه، فإنّ هذا من دواعي العُجب.

وأما إذا كنت تقرر مسألة لغوية أو نحوية، فلا حرج، لكن عندما تخاطب العامة بكلام لا يفهمونه، فهذا لا شك من موارد أو مداخل الشيطان.

الوصية السابعة والثلاثون: (الحذرُ من القولِ بلا علم، والحرجِ من ترك سؤال بلا جواب)[٢]:

قد تكون في مجلس والأنظار متجهة إليك، وأنت صاحب الصدارة وأنت أعلم القوم، فيطرح عليك هذا سؤالاً وذلك سؤالاً، ولا تعرف جواباً لهما فتتحرج من الاعتراف بالجهل؛ لأن القوم قد أحسنوا الظن فيك، فتحاول أن تلتمس قولاً عاماً، مثل: أذكر أني سمعت كذا، أذكر أن الشيخ قال كذا، لعل الجواب كذا. عجباً لك!! ألم تسمع ما روي عن الإمام مالك

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٤١٠.
(٢) لأهمية هذا الموضوع أفردتُ له معلماً خاصاً ص٢٠٣.

إمام دار الهجرة عندما أتى رجل من الأندلس، وسأله عن ثنتين وأربعين مسألة، فأجاب عن اثنتين، وقال في الأربعين: لا أدري، فتعجب الرجل ثم قال: أنت مالك ولا تدري؟! قال: نعم، وأخبر مَن وراءك أن مالكاً لا يدري.

ولقد قال السيوطي: (الجواب على من علمه الله فرض، كما قال الله لآدم: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾، كما أن السكوت على من لا يعلم فرض، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾)(١).

وقال الغزالي: (لو سكت من لا يعرف قلّ الاختلاف).

وخيرٌ منه قول النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت**» رواه الشيخان.

إذن، الحذر كلّ الحذرِ أن يتحرج أحدنا من قول: لا أعلم، وهذا منهج سلفنا الصالح، وقد سمعتُ سماحة الشيخ الجليل عبدالعزيز ابن باز رحمه الله في برنامج (نور على الدرب) وفي بعض دروسه أو محاضرته يقول: لا أدري، لا أعلم.

ولقد نقل ابن جماعة: أنّه ينبغي أن يورّث العالم أو الشيخ تلاميذه كلمة «لا أدري» لكثرة ما يقولها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إذا أخطأ العالم «لاأدري» أصيبت مقاتله)(٢).

وإنّ من المصيبة ومن العجب: أنّك لا تدري، وأنّك لا تدري بأنّك لا تدري! كما قال الشاعر:

---

(١) الحاوي (١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).
(٢) تذكرة السامع لابن جماعة ص٤٢.

ومن أعجب الأشياء أنّك لا تدري   وأنّك لا تدري بأنّك لا تدري

وبعضهم يتعالم ويحاول أن يجيب؛ لأنه يعرف أن شخصه قد ينقص وتقل هيبته إذا قال: لا أدري! وهذا من تلبيس إبليس، ولو أنك قلت: (لا أدري) فأنت مأجور، وهذا مما يرفع مقامك عند الناس.

لكن لو أجبت السائل بجواب الاحتمال، وقلت كما يقول بعض الناس: أذكر أن الشيخ من زمن طويل قال كذا، وأنت لا تعرف كلام الشيخ بنصه أو معناه، بل خيالٌ وأحلامُ ليل، وسراب بقيعة، فإذا رجعت إلى كلام الشيخ وجدت أنه مناقضٌ لما قلت، فانظر ماذا فعلت في ذلك الرجل، وكم من الناس سَيُنقل كلامُكَ إليهم؟!

إذن فقل: «لا أدري» ولا تتحرج.

ولقد ذكر ابن كثير في تفسير آيات سورة النساء عند قوله تعالى في المحرمات: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[1] أثراً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلاً سأله فقال: يا أمير المؤمنين، إن امرأتي ماتت، قال: ألك ربيبة؟ قال: نعم، قال: أين الربيبة؟ قال: عند أخوالها في الطائف، قال: فانكحها، قال: أليس الله يقول: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[2].

قال علي: إنها ليست في حجرك.

(١) النساء: ٢٣.

(٢) النساء: ٢٣.

ليس هذا ما أريد، وإنما الشاهد أن ابن كثير قال: (وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبدالله الذهبي: أنّه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله، فاستشكله وتوقف في ذلك. والله أعلم)[١] فانظر كيف أن شيخ الإسلام ـ على جلالة قدره ـ توقف فيه ولم يتحرج من ذلك؛ مع أنه يخالف الأصول، ويخالف القول الصحيح، أو القول المشهور.

وأذكر من زمن طويل في درس سماحة الشيخ الوالد عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ـ رحمه الله ـ أن رجلاً عامياً سأله عن إمام صلّى بهم المغرب ثلاث ركعات، فلما فرغ من الثالثة قام إلى الرابعة، فلما سبحوا له أصرّ وأتى بركعة رابعة، قال الرجل السائل: سألنا إمامنا، فقال: إنه ما قرأ الفاتحة في الركعة الثالثة[٢]، فقال سماحة الشيخ: أمهلني. ولم يجبه على سؤاله، ولم يقل: أنا فلان، وكيف أقول: لا أدري؟!

فعلى طالب العلم أن يجعل هذا منهجاً له فيما لم يحط به علماً؛ ليسلم له دينه ويبقى علمه.

ولهذا لو رأى الناس شخصاً يتجرأ على إصدار فتوى طبية فيقول: هذا العلاج يصلح لهذا المرض، أو شخصاً يجهل البناء يقول أو يشير على شخص يريد البناء: افعل كذا وكذا، لأنكر الناس عليه وذموه؛ لأنه لا يعلم هذه الأمور، ولكل قوم صنعة، فمن التناقض أن يتقوّل الإنسان قولاً لا يعرف صحته، خاصّة في أمور الفتيا[٣].

الوصية الثامنة والثلاثون: (عدم التأثر بالإهانة الشخصية إذا سلم دينك):

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٩٨.
(٢) أو ما يشبه هذا السؤال.
(٣) انظر للفائدة: إعلام الموقعين ص١٨٤ إلى ١٨٧.

فقد تقول كلاماً، وتسمع ممن حولك إهانة أو كلاماً لا يليق أو سخرية صريحة، فلا يهمنّك شأنه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[(١)].

وإذا بليت بسفيه، فتذكر قول الشاعر:

وإنْ بليتَ بشخص لا خلاق له   فكنْ كأنكَ لم تسمعْ ولم يَقُلِ

وخير من قول الشاعر قول رب الشاعر: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[(٢)].

وربما في بعض الأحايين تكون في مجلس أو على وليمة والجمع كثير، فتذكر فائدة أو حكماً شرعياً، فتبتلى ببعض سقط المتاع! فيرد عليك. ويتجرأ في الرد، ويشنع في الكلام، فلا تكن مثله، بل أقم البيّنة وأظهر الحق، ودع عنك هذا وشأنه؛ لأنّك إن أطلقت الزمام معه سيزيد سفاهة عليك، يقول الشافعي ـ كما نُسِبَ إليه ـ رحمه الله:

يخاطبني السفيه بكل قبحٍ   فأكره أنْ أكون له مجيباً
فإن كلّمته فرجتُ عنه   وإن خلّيتُه كمداً يموتا
يزيد سفاهةً فأزيد حِلْماً   كعودٍ زاده الإحراقُ طيباً

(١) الروم: ٦٠.
(٢) الفرقان: ٦٣.

فلا تَلْقِ له بالاً، بل ذكره الله، وأسمعه الحكم الشرعي برفق، ولا يهمنّك أمره، بل لو أنّ جميع الحاضرين نقموا عليك، أو انتقدوك، وأنت واثق بأنّك على حق، فلا تهتمّ بأمرهم، ولا يهولّنك شأنهم، فهم على وزر وشر، وأنت على أجر وخير، ولكن بشرط مراعاة المصلحة وعدم التسرع.

الوصية التاسعة والثلاثون: (عدم اليأس من الطلب، وعدم القنوط، والحذر من الفتور):

فإنّ الفتور داء قاتل، يقتل همّة الشخص بقدر مايكون فيه من الفتور، وكلّما كان الشخص مستسلماً للفتور تناقص علمه، وربما يقول بعضنا بلسان الحال، بل قد يقوله بلسان المقال ـ وقد قيل ـ: ذهبت إلى دروس كثيرة ولم أستفد إلاّ القليل.

فيقال: تذكر يا أخي أنّ حضورك يكفي لحصول الأجر، فكيف إذا جمعت مع أجر الحضور الفائدة المرجوّة؟

لا تيأسن، واعلم ـ علمني الله وإياك ـ أنّ هناك من الناس من لو أخبرتك بشأنهم، لتعجبت كثيراً، ومن ذلك: أنّ صاحب «ذيل طبقات الحنابلة» ذكر في أثناء تراجمه أموراً عجيبة لبعض الناس، في طريق طلبهم للعلم، فعبدالرحمن بن النفيس أحد الحنابلة: كان في أول أمره مغنّياً، وكان ذا صوت حسن، ثم تاب من هذا المنكر، وطلب العلم وحفظ كتاب الخرقي (وهو من كتب الحنابلة المشهورة) فانظر كيف كان أول أمره؟! وانظر لمّا صدق في التوبة ما الذي حصل له؟

وكذلك عبدالله بن أبي الحسن الجبّائي: كان نصرانياً، وكان أهله نصارى، بل كان أبوه من علماء النصارى، وكانت النصارى تغلو فيه، لكنّه أسلم، وحفظ القرآن، وطلب العلم، يقول بعض من رآه: وكانت له مهابة

وجلالة في بغداد.

وكذلك نصير الدين أحمد بن عبد السلام: كان قاطع طريق، وذكروا في سبب توبته شيئاً عجيباً طريفاً، قال عن نفسه: إنّه كان ذات يوم في أثناء قطعه للطريق مضطجعاً تحت نخلة، أو في حائط نخل، فرأى عصفوراً يتنقل بين نخلتين بانتظام، فعجب وصعد إلى إحدى النخلتين، فرأى حية عمياء والعصفور يلقي لها الطعام! فتعجب من ذلك، وتاب من ذنبه، وطلب العلم، وسمع الكثير، وسمع منه خلق.

فهذا قاطع طريق! والذي قبله من الديانة النصرانية! والذي قبلهما كان مغنيًّا![1] ومع هذا أصبحوا أعلام هدى يُشار إليهم بالبنان في وقتهم، ويذكر علمهم بعد موتهم.

فلا تيأس، ولا تقنط، وجاهد نفسك، واستعن بالله ولا تعجز، فلو لم تُحصِّل علماً في يومك هذا، فابذل من جهدك في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث والرابع، والسنة والسنتين.

فهذا سقراط، فيلسوفٌ علمه ضلال وخذلان، لمّا سأله بعض من أعجب به: أنّى لك هذا العلم؟ قال: (لأنني أنفقت من الزيت أكثر مما شربت من الماء)[2] والمراد بالزيت: زيت السراج الذي يقرأ عليه.

والجاحظ (معتزليٌّ ضالٌّ وتنسب إليه فرقة الجاحظية): كان يستأجر الدكاكين من الورّاقين في بغداد، ويغلق على نفسه ويقرأ، ولا يقع بين يديه كتاب إلاّ أتى على آخره. والشاهد من ذلك: قوة همتهم وعزيمتهم.

---

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٠، ٢/ ٤٤، ٤٢٦.
(٢) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه للعسكري ص٨٧.

إذن المهم هو الهمّة، نريد همّة، وهذه الهمّة لا تكون إلاّ مع إخلاص النيّة.

وختاماً يُقال: إنّ طريق الطلب طويل جداً، كما قال ﷺ فيما رواه البزار: «**منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا**»(١). وكما يقول بعضهم: صاحب الحديث من المحبرة إلى المقبرة. وكما قيل للإمام أبي عبدالرحمن عبدالله بن المبارك المروزي رحمه الله تعالى: لو بعثت بعد موتك ماذا تفعل؟ قال: (أطلب العلم حتى يأتيني ملك الموت مرة ثانية).

فاحرص ـ رعاك الله ـ تعالى على التزود من العلم، والبحث عن مظانه، ومراجعة ذلك، ومدارسته مع نفسك ومع غيرك، فذلك يعين ـ بعد فضل الله تعالى ـ على ضبط العلم.

وأنت تعلم أنّ الضبط عند المحدِّثين ينقسم إلى قسمين:

١ ـ ضبط صدر.
٢ ـ ضبط كتاب.

وكلّنا يكتب ويقرأ، لكن إذا لم يراجع كرّة بعد كرّة، فإنّها تتلاشى، وهذا الداء (داء النسيان) طبع في الإنسان، ويختلف الناس فيه ما بين مستقلّ ومستكثر.

والإمام البخاري رحمه الله (إمام الدنيا في وقته، وجبل الحفظ) عندما سئل عن دواء النسيان، قال: مداومة النظر في الكتب.

إذن، فحاول أن تطرد عن نفسك كلّ فتور وكسل؛ لأنّ الإنسان كلما

---

(١) انظر: صحيح الجامع ٥/ ٣٧٤.

جاهد نفسه وعوّدها على المضاعفة من عمل الخيرات، كان ذلك من أسباب ذهاب كل فتور.

وعلى كلّ: إذا كان الإنسان مستغلاً وقته في كل أحيانه، فسيرى خيراً كثيراً بإذن الله، لكن الذي نخشاه أن يصيبنا حماس واندفاع في البدء، ثم يبدأ الفتور والضعف، حتى يعود الإنسان إلى حالته أو إلى سيرته الأولى، فينبغي أن نعلم أنّ هذا الحضور المتواصل شيء يسير، ولا يكاد يذكر بجانب همة السلف، فربما يعتري بعض الناس عجب أنّه ما فاتته حلقة ولا درس، ولا شك أنّ هذا فيه خير عظيم، لكن ليعلمْ أنّه لو قاس هذا الجهد بجهد من سبقه لصدق عليه قول القائل:

لا تعرضنّ لذكرنا مع ذكرهم
ليس الصحيح إذا مشى كالمقعَدِ

ولقد ذكرت لك ما قال ثعلب أبو العباس أحمد: (ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحو أو لغة خمسين سنة)[1].

وبعد هذا، ينبغي أن نعوّد أنفسنا الطلب، حتى ولو لم يكن هناك مجلس علم، فبعض الناس إذا انتهت الدروس، أو انتهت الحلقات، أو أوقف الشيخ درسه في المسجد أو المنزل؛ ظنّ أنّه بهذا قد انتهى عن الطلب حتى يعود الدرس إلى مكانه! وحتى يرجع الشيخ من سفره! ولاشك أنّ هذا من الخطأ، فطالب العلم كما سبق لا يفتر ولا يكلّ، بل فيه نهم، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البزار ـ وقد سبق أنْ سقته ـ: «**منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا**»، فصاحب المال لو أُعطي وادياً من ذهب لتمنى أن يكون له ثانٍ، كما قال ﷺ: «**لو كان لابن آدم وادٍ من مالٍ، لابتغى إليه ثانياً،**

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ٨٩.

ولو كان لهُ واديان لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»(١).

وكذلك طالب العلم إذا ما ذاق لذة العلم وحلاوته، ازداد تعلقاً وشغفاً به، فالإنسان إذا كان يقرأ في بيته فهو يطلب العلم، وإذا كان يحفظ على نفسه فهو يطلب العلم، وإذا كان يراجع مع أخٍ له فهو يطلب العلم، وإذا كان يسمع شريطاً فهو يطلب العلم، فطالب العلم يشغل وقته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً في طلب العلم والتحصيل.

فاحرص ـ رعاك الله ـ على استغلال كل أجزاء وقتك، فربما ينفع الله بك بلدك، بل قد ينفع الله بك المسلمين أجمعين، ولا تستبعد هذا الأمر، ولا تقل: من أنا؟ إذ ليس على الله بعزيز أن يرفع ذكرك وينشر علمك، وهل ولد البخاري وهو يعلم أنّ كتابه سيبلغ الآفاق شهرة وعلواً ورفعةً؟ أبداً لم يكن يعلم ذلك، حتى بعد إمامته، لكن باب الإخلاص والبذل والجهد يؤتي ـ بفضل الله ـ أكثر من هذا.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الشيخان.

بعد هذا أخي، أورد لك أخباراً متفرقة ونوادر وطرائف تتضمن
مناظرات علمية؛ لترى سرعة البديهة واستحضار الجواب
ذكرتها لك ترويحاً لنفسك وشحذاً لهمتك

من أمثلة المناظرات العلمية:

١ ـ قال الإمام النيسابوري رحمه الله تعالى في كتابه «المستدرك»: (حدثنا) أبو بكر محمد بن عبدالله بن الجراح العدل الحافظ بمرو، ثنا عبدالله ابن يحيى القاضي السرخسي، ثنا رجاء بن مرجي الحافظ، قال: اجتمعنا في مسجد الخيف، أنا وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين، فتناظروا في مس الذكر: فقال يحيى بن معين: يتوضأ منه، وقال: علي بن المديني بقول الكوفيين وتقلد قولهم.

واحتج يحيى بن معين بحديث بسرة بنت صفوان، واحتج علي بن المديني بحديث قيس بن طلق عن أبيه، وقال ليحيى بن معين: كيف تتقلد إسناد بسرة، ومروان إنما أرسل شرطياً حتى روجوا بها إليه؟! فقال يحيى: ثم لم يقنع ذلك مروان حتى أتى بسرة فسألها وشافهته بالحديث، ثم قال يحيى: ولقد أكثر الناس في قيس بن طلق وأنه لا يحتج بحديثه، فقال علي: كان ابن مسعود يقول: لا يتوضأ منه وإنما هو بضعة من جسدك.

فقال يحيى: عن من؟ فقال: عن سفيان عن أبي قيس عن هزيل عن عبدالله، وإذا اجتمع ابن مسعود وابن عمر واختلفا، فابن مسعود أولى أن يتبع.

فقال له أحمد بن حنبل: نعم، ولكن أبو قيس الأودي لا يحتج بحديثه.

فقال علي: حدثني أبو نعيم ثنا مسعر عن عمير بن سعيد عن عمار بن ياسر قال: ما أبالي مسسته أو الأنف.

فقال أحمد: عمار وابن عمر استويا، فمن شاء أخذ بهذا، ومن شاء أخذ بهذا.

فقال يحيىٰ: بين عمير بن سعيد وعمار بن ياسر مفازة[١].

أمثلة على قوة الحجة مع سرعة البديهة:

٢ ـ قال ابن القيم: (وقعت حادثة في أيام ابن جرير، وهي أن رجلاً تزوج امرأة فأحبها حباً شديداً، وأبغضته بغضاً شديداً، فكانت تواجهه بالشتم والدعاء عليه.

فقال لها يوماً: أنتِ طالق ثلاثاً، لا تخاطبيني بشيء إلا خاطبتك بمثله، فقالت له في الحال: أنتَ طالق ثلاثاً بتاتاً. فأبلس الرجل ولم يدر ما يصنع، فاستفتى جماعة من الفقهاء، فكلمهم قال: لابد أن تطلق، فإنه إن أجابها بمثل كلامها طلقت، وإن لم يجبها حنث وطلقت. فإن بر طلقت وإن حنث طلقت. فأُرشد به إلى ابن جرير فقال له: امض ولا تعاود الأيمان، وأقم على زوجتك، بعد أن تقول لها: أنتِ طالق ثلاثاً إن أنا طلقتك، فتكون قد خاطبتها بمثل خطابها لك، فوفيت بيمينك ولم تطلق منك؛ لما وَصَلْتَ به الطلاق من الشرط.

فذكر ذلك لابن عقيل، فاستحسنه، وقال: وفيه وجه آخر، لم يذكره ابن جرير، وهو أنها قالت له: (أنتَ طالق ثلاثاً) بفتح التاء، وهو خطاب تذكير، فإذا قال لها: أنتَ بفتح التاء، لم يقع به طلاق.

قلت: [القائل ابن القيم]: وفيه وجه آخر أحسن من الوجهين، وهو جارٍ على أصول المذهب، وهو تخصيص اللفظ العام بالنية، كما إذا حلف لا يتغدى، ونيته غداء يومه؛ قُصِرَ عليه، وإذا حلف لا يكلمه، ونيته تخصيص الكلام بما يكرهه؛ لم يحنث إذا كلمه بما يحبه، ونظائره كثيرة. وعلى هذا

---

(١) المستدرك ١/ ١٣٩.

فيناط الكلام (صريح أو كالصريح) في أنه إنما أراد أنها لا تكلم بشتم أو سب أو دعاء أو ما كان من هذا الباب إلا كلمها بمثله، ولم يرد أنها إذا قالت له: اشتر لي مقنعة، أو ثوباً أن يقول لها: اشتري لي ثوباً أو مقنعة، وإذا قالت له: لا تشتري لي كذا، فإني لا أحبه، أن يقول لها مثله. هذا مما يقطع أن الحالف لم يرده، فإذا لم يخاطبها بمثله لم يحنث، وهكذا يقطع بأن هذه الصورة المسؤول عنها لم يردها، ولا كان بساط الكلام يقتضيها، ولاخطرت بباله، وإنما أراد ما كان من الكلام الذي هيج يمينه وبعثه على الحلف، ومثل هذا يعتبر عندنا في الأيمان)[1].

٣ ـ **وقال أبو علي التنوخي**: «حدثني عبدالله بن عمر بن الحارث الواسطي السراج، المعروف بأبي أحمد الحارثي، قال: كنت مسافراً في بعض الجبال، فخرج علينا ابن سباب الكردي، فقطع علينا وكان بِزِيّ الأمراء، لا بزي القطاع، فقربت منه لأنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يدل على فهم وأدب، فداخلته فإذا برجل فاضل يروي الشعر، ويفهم النحو، فطمعت فيه وعملت في الحال أبياتاً مدحته بها، فقال لي: لست أعلم إن كان هذا من شعرك، ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة؛ لأعلم أنك قلته.

وأنشدَني بيتاً، قال: فعملت في الحال إجازةً له ثلاثة أبيات.

فقال لي: أي شيء أُخِذ منك؛ لأردّه إليك؛ قال: فذكرت له ما أخذ مني وأضفت إليه قماش رفيقين كانا لي، فرد جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها كيساً فيه ألف درهم، فوهبه لي. قال: فجزيته خيراً ورددته عليه، فقال لي: لِمَ لا تأخذه؟! فوريت عن ذلك، فقال: أحب أن تصدقني،

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٨١، ١٨٢.

فقلت: وأنا آمِنٌ، فقال: وأنت آمن، فقلت: لأنك لا تملكه، وهو من أموال الناس الذين أخذتها منهم الساعةَ ظلماً، فكيف يحل لي أن آخذه؟

فقال لي: أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب «اللصوص» عن بعضهم قال: إن هؤلاء التجار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بها، واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم ـ وإن كرهوا أخذها ـ كان ذلك مباحاً لهم؛ لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وإن هؤلاء ليستحقون أخذ الزكاة بالفقر، شاء أرباب الأموال أم كرهوا.

قال: لا عليك، أنا أُحضر هؤلاء التجار الساعة وأريك بالدليل الصحيح أن أموالهم لنا حلال، ثم قال لأصحابه: هاتوا التجار فجاءوا.

فقال لأحدهم: منذ كم أنت تتجر في هذا المال الذي قطعنا عليه؟ قال: منذ كذا وكذا سنة.

قال: فكيف كنت تخرج زكاته؟

فلتلجلج، وتكلم بكلام مَن لا يعرف الزكاة على حقيقتها، فضلاً عن أن يخرجها.

ثم دعا آخر فقال: له: إذا كان معك ثلاث مئة درهم وعشرة دنانير، وحالت عليك السنة، فكم تخرج منها للزكاة؟ فما أحسن أن يجيب.

ثم قال للآخر: إذا كان معك متاع للتجارة، ولك دين على نَفْسين أحدهما مليء والآخر معسر، ومعك دراهم، وقد حال الحول على الجميع، كيف تخرج زكاة ذلك؟

قال: فما فهم السؤال، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب، فصرفهم، ثم قال لي: بان لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ، وأن هؤلاء التجار ما زكّوا

قط؟ خذ الآن الكيس.

قال: فأخذته، وساق القافلة لينصرف بها.

فقلت: إن رأيت أيها الأمير أن تنفذ معنا من يبلغنا المأمن كان لك الفضل. ففعل ذلك[1].

٤ ـ **وحكى الحسن بن قحطبة** قال: استؤذن لشريك بن عبدالله القاضي على المهدي وأنا حاضر، فقال: عليَّ بالسيف، فأُحضر.

قال الحسن: فاستقبلتني رعدة لم أملكها، ودخل شريك فسلم، فانتضى المهدي السيف، وقال: لا سلم الله عليك يا فاسق.

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن للفاسق علامات يعرف بها، شرب الخمور وسماع المعازف، وارتكاب المحظورات، فعلى أي ذلك وجدتني؟ قال: قتلني الله إنْ لم أقتلك.

قال: ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين، ودمي حرام عليك؟

قال: لأني في المنام كأني مقبل عليك أكلمك، وأنت تكلمني من قفاك، فأرسلتُ إلى المعبّر، فسألته عنها، فقال: هذا رجل يطأ بساطك وهو يُسِرُّ خلافك. فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وإن دماء المسلمين لا تسفك بالأحلام. فنكس المهدي رأسه، وأشار إليه بيده: أن اخرج، فانصرف.

قال الحسن: فقمت فلحقته، فقال: أما رأيت صاحبك وما أراد أن يصنع؟

---

(١) الفرج بعد الشدة ٤/ ٢٣١.

فقلت: اسكت، لله أبوك! ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثلك.

٥ ـ **دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع**، فقال: أترغب عما نحن فيه؟! فقال: لا أصلح. قال: كذبت. قال: فقد حكم أمير المؤمنين عليَّ أني لا أصلح، فإن كنتُ كاذباً فلا أصلح، وإن كنتُ صادقاً فقد أخبرتكم أني لا أصلح. فحبسه.

وفي رواية أخرى قال أبو حنيفة: والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟! فلا أصلح لذلك، قال المنصور: كذبت، بل تصلح، فقال: كيف يحل أن تولي من يكذب؟!

٦ ـ **وعن إبراهيم بن أبي عبلة** قال: بعث إليَّ هشام فقال: إنا قد عرفناك، واختبرناك، ورضينا بسيرتك وبحالك، وقد رأيت أن أخلطك بنفسي وخاصتي، وأشركك في عملي، وقد وليتك خراج مصر، قلت: أما الذي عليه رأيك يا أمير المؤمنين فالله يثيبك ويجزيك، وكفى به جازياً مثيباً، وأما أنا فما لي بخراج مصر وما لي عليه قوة. فغضب حتى اختلج وجهه، وكان في عينيه حول، فنظر إليَّ نظراً منكَراً، ثم قال: لَتَلِيَنَّ طائعاً أو كارهاً. فأمسكتُ، ثم قلتُ: أتكلمُ؟ قال: نعم. قلتُ: إن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾.

فوالله ما غضب عليهن إذْ أَبَيْنَ ولا أكرههن، فضحكَ حتى بدت نواجذه وأعفاني.

٧ ـ **وجاء أن يحيى بن أكثم** لما ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة، قيل له: كم سن القاضي؟ قال: (مثل عتاب بن أسيد حين ولاه النبي ﷺ إمارة مكة وقضاءها يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجَّه به

رسول الله ﷺ قاضياً على اليمن)[١].

٨ ـ **ومن غريب ما يروى**: ما ذكره ابن عبدالحكم: أنَّ النبي ﷺ لما بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس (صاحب مصر) وبلغه كتاب النبي ﷺ، قال له: ما منعه أن يدعو عليَّ فيسلط عليَّ، قال له حاطب: ما منع عيسى أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل ويفعل، فوجم ساعة ثم استعادها، فأعادها عليه حاطب، فسكت.

ويروى أنه حين سأله عن أمر النبي ﷺ في حروب قومه، وذكر له أن الحرب تكون بينهم سِجالاً، تارة له وتارة عليه، قال له المقوقس: النبي ﷺ يُغلَب؟ فقال له حاطب: فالإله يُصلب؟

يشير بذلك إلى ما تزعمه النصارى من أن المسيح عليه السلام صلب مع دعواهم فيه أنه إله[٢].

٩ ـ **وأرسل أحد الأمراء المسلمين** رسولاً إلى الروم ليناظرهم، فذهب الرسول إلى ملك الروم، وجرت له أمور، فمنها: أن الملك أدخله عليه من باب خوخة ليدخل راكعاً للملك، ففطن لها ودخل بظهره.

ومنها أنه قال لراهبهم: كيف الأهل والأولاد؟

فقال له الملك: أما علمت أن الراهب يتنزه عن هذا؟ فقال: تنزهونه عن هذا ولا تنزهون الله عن الصاحبة والولد؟!

وقيل: إن طاغية الروم سأله: كيف جرى لعائشة؟ وقصد توبيخه. فقال: كما جرى لمريم! فبرأ الله المرأتين، ولم تأت عائشة بولد. فأفحمه فلم

---

(١) التراتيب الإدارية ١/ ٢٦١.
(٢) التراتيب الإدارية ١/ ١٨٦.

يدر جواباً[١].

وأحفظ[٢] أيضاً: أن الباقلاني سأله ملك الروم أيضاً: قال له: تزعمون أن القمر انشق لنبيكم، فهل للقمر قرابةٌ حتى ترونه دون غيركم؟! فقال: وهل بينكم وبين المائدة أخوة ونسب إذا رأيتموها ولم ترها اليهود واليونان والمجوس الذين أنكروها وهم في جواركم؟ فأفحم ولم يدر جواباً[٣].

وقد ذكر القصة مبسوطة ابن التلمساني في شرح الشفا قائلاً: (ذكر بعضهم أن الإمام العالم الأعرف أبا بكر بن الطيب، لما وجهه صاحب الدولة سفيراً إلى ملك الروم؛ ليظهر به رفق الإسلام وبغض النصرانية، وجرت في تلك الوجهة في القسطنطينية بينه وبين ملكها مع بطارقته وتلامذته مناظرات ومحاورات، منها:

أن الملك قال له: هذا الذي تدَّعون في معجزات نبيكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟

قال: هو صحيح عندنا، انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رآه الناس، وإنما رآه من الحضور من اتفق نظره إليه في تلك الحال.

فقال الملك: وكيف لم يره جميع الناس؟

قال: الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لحضوره.

قال: وهذا القمر بينكم وبينه قرابة؟! لأي شيء لم يعرفه الروم وغيرهم من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي. وفيات ٤٠١ ـ ٤٢٠ ص٨٩.
(٢) القائل هو صاحب التراتيب الإدارية.
(٣) التراتيب الإدارية ١/ ١٨٨.

قال: فهذه المائدة بينكم وبينها نسب؟! وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد واليونان جيرانكم؟! فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن.

فتحير الملك وقال في كلامه: سبحان الله! وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلمني، وقال: نحن لا نطيق، فلم أشعر إذ جاءوا بالرجل كالدب أشقر الشعر، فقعد وحُكِيتْ له المسألة فقال: الذي قال المسلم لازم، لا أعرف له جواباً إلا ما ذكره.

فقلت له: إن الكسوف إذا كان يراه جميع أهل الأرض، أم يراه أهل الإقليم الذي في محاذاته؟

فقال: لا يراه إلا من كان في محاذاته.

قلت: فما أنكرت من انشقاق القمر كذلك، إذا كان في ناحية لا يراه إلا أهل تلك الناحية ومن تأهب للنظر؟ وأما من أعرض عنه، أو كان في الأمكنة التي لا يُرى القمر فيها فلا يراه.

فقال: هو كما قلت لا يدفعك عنه دافع، وإنما الكلام في الرواة الذين نقلوا، فأما الطعن في هذا الوجه فليس بصحيح.

فقال الملك: وكيف يطعن في النقلة؟ فقال النصراني: شبه هذه الآيات إذا صح وجب أن ينقله الجم الغفير حتى يتصل بنا العلم به، ولو كان كذلك لوقع لنا العلم الضروري به، فلمّا لم يقع دل على أنه أكبر مفتعل باطل.

فالتفت الملك إليَّ وقال: الجواب.

فقلت: يلزمه في نزول الملائكة بالمائدة ما لزمني في انشقاق القمر،

ويقال له: لو كان نزول المائدة صحيحاً لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني إلا ويعلم هذا بالضرورة، ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دل أن الخبر كذب [بناءً على زعمكم].

فبهت النصراني والملك، ومن ضمه المجلس، وانفصل الوطن على هذا)[١].

١٠ ـ **وقد سُمِعَ أبو عبدالله الشافعي** ورجل يناظره ـ في جلد الميتة إذا دُبغ... وكان يذهب إلى أن الدباغ يطهره، فقال للذي يناظره ـ وقد أضجره ـ: (وجلدك أيضاً إن دبغ انتفع به!)[٢]

* * *

(١) التراتيب الإدارية ١/١٨٩ ـ ١٩٠.
(٢) طبقات الحنابلة ١/٣١٧.

خاتمـــة

وبهذا تمَّ الكتاب.

والله أسأل أن يرزقنا جميعاً الإخلاص في السر والعلن، وفي القول والعمل.

اللَّهمَّ اجعلنا قدوة في أقوالنا وأعمالنا وجميع شؤوننا.

اللَّهمَّ اجعلنا ممن ينفع أهله ومجتمعه وأمته والمسلمين أجمعين.

اللَّهمَّ اغفر لمشايخنا واجزهم عنَّا خير الجزاء.

اللَّهمَّ وفِّق ولاة أمرنا إلى كل خير.

دعوناك ربَّنا فأجبنا وسألناك خالقنا فآتنا سؤلنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على رسول ربِّ العالمين وعلى آله وصحبه الطيبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان

الفهـــــارس

الموضوع الصفحة

* * *